وزارته التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
نموذج رقم (8)

((إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات))

الاسم: سعد بن عبد العزيز الدرهم - كلية: اللغة العربية - قسم: الدراسات العليا
الأطروحة: نيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها - في تخصص: البلاغة
عنوان الأطروحة: سورة آل عمران دراسة بلاغية.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنباء والمرسلين، وعلى آله
وصحبه أجمعين، وبعد:

فيما على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه، والتي تم مناقشتها
بتاريخ: 28/11/1412 هـ، بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث قد تم عمل
اللازم، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة
أعلاه،...

أعضاء اللجنة

الناشط الخارجي
د. عبد الجواد طبق

الناشط الداخلي
د. يوسف الأنصاري

المشرف
د. دخيل الله الصبحي

يعتمد: رئيس قسم الدراسات العليا العربية
أ.د: سليمان بن إبراهيم العابد
سورَة عَلَي عُمْرَان
 دراسة بلغية

بحث مُقدَّم لَنيل درجة الدكتوراه
الجزء الأول

إعداد الدارس
سعَد بن عبد العزيز بن سعد الديريهم

المحاضرة بكلية الملك خالد العسكرية بالحرس الوطني
(الرقم الجامعي: 5 – 8827 – 418)

إشراف الأساتذة الدكتور
أحمد بن عبد السيد الصاوي

الأساتذة في قسم الأدب
1421 هـ
بِلَادِ النَّعْمَانِ
بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة، والسلام على أشرف الأنبياء والرسلين؛ نبينا محمد وعلى
الله وصبه أجمعين.

وبعد: فهذه رسالة يعنوان « سورة آل عمران دراسة بلاغية »، أعدت نيل درجة
الدكتوراه، وقد استقبلت مادها من تراث السابقين والمعاصرين من علماء الأمة الأحياء، الذين
خدموا كتاب الله سبحانه وتعالى في هذه الناحية من نواحي إعجازه.

وقد بدأت البحث بمنهج موجز عن فكرة النظم تعريفًا بها، والإشارة إلى أبرز مباني
البحث البلاغي وفقًا لها، ثم تحدثت بع ذلك عن سورة آل عمران تعريفًا بها، وبيانًا لفضلها،
ومنهج السورة في عرض آياتها.

ثم قمت بعد ذلك بتناول آيات هذه السورة المباركة من خلال أبواب الرسالة الثلاثة،
جعلت الباب الأول لوقف عند خصائص اللقوظ القرآني من حيث صفاء الكلمة، واصطفاها،
وجرسها، وإيقاعها، وإخوائها، كذلك عرضت لظواهر: التعريف، والتكبير فيها، والإظهار،
والإضمار، والتعبير عن الماضي بالمستقبل والعكس، وكذلك الأنتفاس.

والباب الثاني كان حديثًا عن خصائص التراكيب من حيث التوكيد وأنواعها، والقصر،
والتعبير بالجملة الإنشادية الخدبية، والاجماع والفعلة، والذكر والجزء، والتفصيل، والتأخير،
والشرط والجذر، والفصل والوصل، والجملة الحالية، والفواعل وأعلاقها بنظم الآية.

ثم جاء بعد ذلك الباب الثالث، وكان خاصًا للحديث عن خصائص التصوير في هـ
السورة، حيث عرضت للتصوير بطرق البيان، وعرضت لثلاثة مـن أساليبه: التشبيه،
والاستعارة، والكتابة والتعريف، ثم قمت ذلك ببعض من صور التصوير بطرق البديع، ثم
ختمت ببحث خاتمة تحدثت فيها عن بعض نتائج البحث، فالنهاية.

عميد كلية اللغة العربية

أ. د / صاحب جمال بدوی

المشرف

سعد بن عبد العزيز الدريهم

الباحث

87/1/89
كتَب القاضي الفاضل النيسانِي، عَبْدُ الرَّحْمَنِ، المُتَوَفِّي سنة 96 هـ إلى العماد الأصفهاني، معتذرًا عن كلام استدرَّك عليه:
» إنِّه وَقَع لي شيء، وما أدرّي أو قَع لَكَ أمَّا؟ وَهَا أَنا (1) أنَا حَيْرُك بِهِ؛
وَذلِك أَنَا رَأيْتُْ أَنَّهُ لَا يَكْتُب إِنسان كِتابًا فِي بُعْوَمِهِ إِلاْ فَالْقُالُ فِي غَرَهِ: وَلَوْ غَيَّرَ هَذَا المِثَالُ لِكَانَ أَحْسَنَ، لَوْ زِيدَ هَذَا لِكَانَ يُسْتَحْسَنَ، وَلَوْ قَدْمَ هَذَا لِكَانَ أَفْضَلَ، وَلَوْ تَرَكَ هَذَا لِكَانَ أَجْمَلَ. وَهَذَا مِنْ أعْظَم العِبْرَ، وَهَذَا دِينَ عَلَى أَسْبِلَاء النَّفْقِ ْعَلَى جُمْلَةَ البَشْرَ (2).

(1) صواب العبارة: ها أنا ذا.
(2) انظر: إيناء السماد المتقن: 1/3 ; الحظة في ذكر الصحاح السنة: 22.
المقدمة
المقدمة

إن الحمد لله، محمد، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ ببال من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدى الله، فلا مضل له، ومن يضلل هادٍ.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

يابلِآيَّها الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ اللَّهَ حُكْمَهُ وَأَتَيْنَاهُمُ الرَّحْمَةَ مُصطَلِحُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (1)

يابلِآيَّها النَّاسُ آتَيْنَاهُمُ الْجِبَاحَ خَلَفَانِي مِنْ نَفْسِي أُحْذِي وَخَلَفَ مَنْ حَذَيْنِي، وَبَيْنَ الْمُحْذِينِ وَالْمُحْذِينِ مِنْ أَفْسَأَلَيْنَاهُمُ اللَّهُ وَأَعْلَمُ مِنْهُمْ رَبِّي (2).

وَأَنْفَقَ لَكُمْ دُنْيَاكُمْ وَمِنْ يَطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَذَلِكَ فَارْظَعُوٰنَ عَزِيزًا (3).

أما بعد: فقد كان من توفيّ اللهم سبحانه وتعالى، أن يكون الموضوع الذي يُهتم به للحصول على درجة «الدكورة»، مصلىً بأشرف غاية، وهي خدمة كتاب الله سبحانه وتعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

(1) آل عمران آية : 102.
(2) النساء آية : 1.
(3) الأحزاب آية : 70.
(4) هذه خطة الحاجة، التي كتبت بها أصاحبها.

انظر: خطة الحاجة، للشيخ، محمد ناصر الدين الآلباني، طبع الكتب الإسلامية، وهي في سنين ابن ماجه، كتاب النكاح. باب خطة النكاح. من رواية عبد الله بن مسعود 1395 / 6-7).

ورواه الإمام أحمد ( 272 / 3722 ) رقم ( 101/ 3976 )، تستنى أحمد شاكر، وقال: «إسناده من طريق أبي عبيدة ضعيف لنافelta، ومن طريق أبي الأحوص، عوف بن مالك بن نضلة صحيح لائصمه، المسند. طبع دار المعارف، 1381 هـ.


وقد ورد ذكر طرف من هذه الخطة في صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب خططه في الجمعة: 157 / 6.
وفي ناحية من نواحي إعجازه...

وقد وقع اختياري على سورة من أعظم سور القرآن الكريم، وهي «سورة آل عمران»، التي جاءت النصوص تترى في فضيلها، ومكانتها، وترغب الناس في قراءتها، فمن ذلك ما ذُكر من آية: «آمناً من الحياة»، و«كثر العقول»، و«آمنا تحاج عن قارئها يوم القيامة»، و«أنه يكتب من قارئ أخرى في ليلة كقيام ليلة»...

إضافة إلى طول السورة، وغرارة المادة البلاغية التي اشتملت عليها آيات هـ هذه السورة المباركة؛ ولنَا تعلَج موضوعًا بحثًا حياة المسلمين في هذه العصور المتأخرة، ألا وهو الصراع مع أهل الكتاب: اليهود والنصارى؛ لكوننا نحتاج إلى استلهام العبور من هذه السورة في كيفية التعامل مع هذين الطائفتين؛ لذا عقدت العزم على جعلها موضوعًا للدراسة في مرحلة الدكتوراه، فعرضت الأمر على المشرف فضيلة الدكتور أحمد عبد السيد الصاوي، الذي أتَى على حسن الاختيار، ولمست منه كل تشجيع ومساعدة، والتي كان لها أكبر الأثر في تذليل ما كان يعترض طريق البحث من صعوبات، حتى استوى على سوته رافداً من روافد الدراسات القرآنية البلاغية...

ولا يخفى على الدارس والباحث ما في الدراسات القرآنية من دقة وعناية وحذر؛ وذلك لأن الألسن الذي بين يدي الباحث ليس بكلام بشر، وإنما هو كلام رب البشر سبحانه و تعالى، الذي ما إن تسمعه الجوارح حتى تشعر منه، ثم تلين منهم الجلود والقلوب بعد ذلك، فتلمذن، ويزداد إيماناً، وتفتح بصائرها، مما يجعل الباحث قبل أن يقول، يجب لكل كلمة حساس، ويراجع نفسه فيها، حثنة من زلل القلم، أو خطل النظر، أو شرود الفكر، ولكنها يسلي الباحث، يجعل قلبه مطمئناً بما يكتب أن آيات القرآن الكريم التي هي مجال يبحث، تأتي في ذروة البلاغة والبيان، وفي نفسه المزلة العالية الرفيعة من الاحترام، بل هي هجيه في الليل.
والنهار، والإقامة والترحال، راجياً بذلك ثواب الكريم المنى.
وتقوم دراستي في هذه الأطرة، على تحليل مدلول ألفاظ الآيات القرآنية،
متبناً الغرض من سياقها، والأساليب العربية التي تعمها آيات، وصولاً إلى بيان
الغرض العام الذي من أجله سبقت الآيات في هذه السورة الكريم.
وهذا المنهج، هو المنهج الأمثل في الدراسة البلاغية، والذي يجمع القواعد
البلاغية خادمة للمقاصد القرآنية، وليس العكس؛ وذلك لأن المواقف اللغوية هي
المناخ الأول التي يتكون منها النظام القرآني، وإبراز مقاصد الألفاظ، وإظهار
وظائفها، وتسجيل المعاني الناتجة عن العلاقة بين الكلم، وفق قانون النحو وقواعده،
وهو ما أطلق عليه إمام البلاغيين «النظام»، والذي أدار عليه الإجماع القرآني،
والذي عاب فيه على من ينظر إلى معيين بلاغي، ويفغقل معايده من أمور النظام
ومفردها، مما هو منها بسبب، وله به علاقة ونسب.
والبصير في هذا السبيل، يجعل المعاني البلاغية، كم أسفنت، خادمة وموصلة
للأغراض القرآنية من خلال «النظام»، وليس العكس، وهذا تسلم الآية القرآنية
من التجربة والتخطيط، ويتكشف شيء من أسرار جمالها، وبدائع نظمها.
وهذا المنهج هو المنهج الأوّل والأليق بكتاب الله سبحانه وتعالى، وهو منهجي
الذي ارتكبته في دراسي البلاغية، لكل آية من الآيات، وذلك بعد أن أقوم بتقديم
توطية قصيرة للمبحث البلاغي الذي أنا بصدده، ثم أتناول بعد ذلك ما تيسر من
آيات هذه السورة العظيمة، مما يدرج تحت هذا البحث، مشيراً إلى سبب التبول
إلى وجود_ _، وموضحاً علاقتها بما قبلها_ _ ما أمكن_ _، ثم أبدأ ببيان الغرض
البلاغي الرئيس في الآية، والذي يشبه سلكت الآية في هذا البحث، مع التركيز
علىه، ثم أقوم بعد ذلك بالاستجابة لطائف النظم في الآية الكريم، مع إظهار بعض
الأسرار البلاغية الأخرى، وإن لم تكن منضوية تحت البحث البلاغي الرئيس الذي
شكلت الآية فيه وبسبه، وذلك في ضوء المنهج التحليلي ذي الطبيعة المتكاملة، ومسن
7
هنا كان عنوان البحث «سورة آل عمران دراسة بلاغية».
وفي سبيل إعطاء هذا الموضوع حظه، وضعنا لنفسنا ومعونة متن مشرف
مخططًا يلم بقضاياها التشريعة، اشتمل على مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب وحائطة،
إضافة إلى الفهرس.
في المقدمة بيت أهمية البحث، وسبب اختياره، والمنهج الذي سيرت عليه،
وحطة البحث، ثم ذيلت هذه المقدمة بكلمة شكر لمن أسهم في هذا البحث.
وقد جعلت التمهيد حديثًا موجزاً عن أمرين:
تحدثنا في الأول عن «فكرة النظم عند البلاطين»، تعريفًا بها، وإشارة إلى
أبرز مسار بالبحث البلاغي وفقًا لها.
وتناولت في الثاني «سورة آل عمران» تعريفًا بها، وبيانًا لفضلها، ومنهج
السورة في عرض موضوعاتها.
والباب الأول: سميتة «خصائص اللفظ القرآني في آيات سورة آل
عمران»، وجعلته في فصلين:
الفصل الأول: "تميز اللفظ القرآني"، وتناول ما يلي:
اختلفة الكلمة.
صفاء الكلمة.
جرس الكلمة وإيقاعها.
إياع الكلمة وظلالها.
الفصل الثاني: "تنوع التعبير باللفظ عن المعنى الموارد"، وقد تناول ما يلي:
البحث الأول: التعرف، والتنكر.
البحث الثاني: الإظهار، والإضمار.
البحث الثالث: التعبير عن الماضي، المستقبل، وعكسه.
المبحث الرابع: الانتفات.

وأما الباب الثاني، فكان بعنوان: "خصائص التراكيب في آيات سورة آل عمران"، وهو مكون من ثلاثة فصول:

الفصل الأول: التوكيد وأنواعه، وقد تناول ما يلي:
المبحث الأول: أدوات التوكيد.
المبحث الثاني: التكرار.
المبحث الثالث: القصر وطرقه.

الفصل الثاني: "طرق التعبير بالجملة عن المعنى المراد"، وقد تناول ما يلي:
المبحث الأول: التعبير بالجملة الخبرية، والإلنشادية.
المبحث الثاني: التعبير بالجملة الاسمية، والفعلية.
المبحث الثالث: التقدم، والتأخير.
المبحث الرابع: الذكر، والخفي.
المبحث الخامس: الشرط، والجزء.

الفصل الثالث: "الفصل والوصول"، وقد تناولت فيه ما يلي:
المبحث الأول: الأسرار البلاغية للفصل والوصول.
المبحث الثاني: الجملة الحالية.
المبحث الثالث: الفواصل القرآنية، وعلاقتها بنظم الآيات.

ثم جاء بعد ذلك الباب الأخير، وكان بعنوان "خصائص التصوير في آيات آل عمران"، وقد جعلته في فصولين، هما:

الفصل الأول: "التصوير بطرق البيان"، وهو يقع في ثلاثة مباحث هي:
المبحث الأول: التصوير بالتشبيه.
المبحث الثاني: التصوير بالاستعارة.
المبحث الثالث: التصوير بالكتابة.
الفصل الثاني: "التصوير من خلال فنون البديع":

- الطباق
- المقابلة
- الجنس

رد الأعجاز على الصدر.

ثم تأتي بعد هذه الأبواب والفصول والباحث، خاصة البحث التي ذكرت فيها ما توصلت إليه من نتائج، يعقب ذلك فهارس البحث.

وكتب حريصًا خلال كتابة البحث على الأمور التالية:

أولاً: ترجم جميع الآيات الواردة في البحث، وذلك بذكر السورة ورقم الآية.

وقد أخذت هذه الآيات من البرامج المخصصة لذلك، حرصًاً ميّز على سلامتها من التحريف.

ثانيًا: ترجم جميع الأحاديث الواردة فيه، وذلك بعزوها إلى مصادرهما من دواوين السنة.

ثالثًا: عزو الشواهد الشعرية إلى أصحابها قدر الإمكان مع ردها إلى دواوين قائليها من الشعراء، أو غيرها من كتب التراث الموثقة.

رابعًا: ترجمت لبعض من المؤرخين، والقرويين، والأدباء، واللغويين، من حريهم تعلق بالبحث، ولم أترجم للمشاهير: من الصحابية، والتابعين، والأئمة الأربعة، وناجمهم من تغييرة شجرهم عن الترجمة لهم.

خامسًا: رجعت في كل علم وفني تعرضت له الرسالة إلى كتب ذلك العلم، أو الفن، ولم أكتف بما تنقله الكتب الأخرى عنها إلا حين يتعدى علمي، أو يصعب الرجوع إليها.
سادسًا: تأ寄せ بالبحث عن الخلافات التي لا تتعلق من ورائها، ولا أثر لها في إثراء البحث البلاغي.

سابعًا: عند عرض الآيات؛ فإن أقوم بعرضها كاملاً، ما لم تكون في نص.

وذلك لأن النص القرآني، لا يفهم إلا بذكر ما قبله وما بعده.

ثامنًا: قد أختصر اسم المرجع والمصدر، فأكتفي بذكر الاسم الأول، خاصة عند أمن اللبس؛ بناء على أن أسماء المراجع والمصادر الكاملة، وأسماء مؤلفيها في قائمة المصادر والمراجع آخر البحث، وكذلك مهانة، ومكان، ورقم الطبعة.

وقد افترضت في تضاعيف البحث، جملة من المصادر، ولعل على رأسها أن كثيراً من اللطائف البلاغية، لا زالت بتكرار لم تبحث، ولم يجر عليها الفسرون، ولم يشيروا إلى أي منها، كذلك الاجتهادات المفسرين متباينة من تفسير لآخر هذا وجهته نحوية، وهذا فقهية، وهذا يجعل الباحث في عناية من كبر تقيبل هذه التفسيرات، ومحاولة استنباط هذه النكتات من بين طيائها، إلى أن يجد الباحث ضالتة وينفق مراحته.

وأخيراً ومن منطلق حديث الرسول ﷺ: (لا يشكر الله من لم يشكر الناس) التاس(1).

أرى أنه من الواجب علي أن أقدم شكري وتقديري لجامعة «أم القرى» بعمة المكرمة التي أثناها في فرصة الدراسة بها، وهيأت للدارسين فيها الكثير من وسائل الراحة، والكثير من أسباب التحصيل العلمي، وعلى رأسها معالي مديرها.

كما لا يفتونني أن أشكر كلية اللغة العربية ممثلة في عميدها. د/ صالح جمال بدوي، ووكيلها. د/ حامد الريعي، ورئيس قسم الدراسات العليا العربية. د/ روا أبو داود: 1 / 555، والتزمني: 4 / 338، وقال: حديث صحيح ولفظه: (من لا يشكر الناس لا يشكر الله)
سلمان بن إبراهيم العائد. وسائر أساتذته على ما رأيته منهم من تعاون وتقدير
واحترام.

كما أشكر قسم البلاغة والنقد ممثلاً في رئيسيه، الدكتور د. خليل الله
الصحفي، والمشرف على الرسالة فضيلة، وجميع أعضاء القسم على ما قدموه لي من
نصح وتعاون وتسير واهتمام، وزمالائي في الدراسة، أخص منهم أحمسي وزملي
الأستاذ: عبد الله بن عبد الرحمن أكبي.

كما أشكر المناقشين الكريمين فضيلة الدكتور / عبد الجواد طبقق، وفضيلة
الدكتور/ يوسف الأنصاري، على قبولهما مناقشة هذه الرسالة، كما أسأل الله عز
وجل أن يجزي الثواب لكل من مد لي يد العون في هذا البحث المبارك من قريب، أو
بعيد، وأخص منهم والدي الكريمين، حيث كانا عوناً لي في بعـد الله بدعانهما لي
بالتوافق، وزوجتي التي كانت لي نعم المعين بتوفيرها لي الجو المناسب للبحث، وإزالة
كل ما من سبيله أن يعكر صفوه.

وفي ختام هذه المقدمة، لا أزعم أنني قد استقصيت المعاني البلاغية لأيات هـذـه
السورة المباركة، ولا أعطت بدقائق التساؤل فيها؛ وذلك لأن الذي بين يدي كـذـب
ربى سبحانه و تعالى، الذي لا ينضب بأسراره إلا من تكلم به سبحانه و تعالى، ولكـن
حسبي أن وضعت لبئس في صرح الدراسات البلاغية القرآنية؛ مبتعياً بذلك وحجـه الله
 سبحانه و تعالى.

وبعد فإن كانت الدراسة قد حالفها التوفيق في كل المباحث أو بعضها ؛ فإنـهـ
بفضل الله ورحمته، وإن كانت قد تعترض في خطاها ؛ فإن ذلك مـن وسنـه، الشـيطان،
وعلى كل حال، فـاتـهُ أنـهُ لمـن يجرمي مـن الأجر المحتمدين، وإن يجعل هذا العمل خالصـاً
لوجهه الكريم، وهو حسبي ونعم الوكيل.
وصلى الله على أشرف رسله المرتضى، وأكرم خلقه النخی، وأحب العالمين إليهـ
المصطفى، سيدينا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

سعد بن عبد العزيز بن سعد الدريهم الرياض
يوم الثلاثاء: 1462 / 2 / 1422 هـ
التمديد

المبحث الأول: فَضْرَةُ النَّظُورِ عِندَ البَنَاتِ
المبحث الثاني: الحديث عن سُورةَ آل عمران
المبادئ الأول
فكرة النظرة عند البلغويين
فكرة النظم عند البلاغيين
نزل القرآن الكريم؛ ليرسم للأمة معلم طريقها، ويسمو عماراً على يديه، فبالإجماع، فعلى ضوء أن يعكفوا عليه تأملًا ودراسة، ودراسة؛ للوقوف على ما جاء به من أحكام، ومن أسلوب رفع يبلغ أعلى درجات البلاغة، وهي درجة الإعجاز، وإلى جانب هذا السبب أخر، وهو: محاولة دفع الشهادات التي تثيرها أعداء الدين المشركون به، من الملاحِدة، والشَّعوبين، الذين استفحل أمرهم، وبلغ منتهاه في العصر العباسي، ولا يزال، وكان عليه رأس هؤلاء "ابن المفعّل" (1)، و"صالح بن عياذ قاسود" (2)، و"النظام" (3)، وغيرهم من تولى كُبر هذا الأمر، يقول "أبو هلال" (4) (علم الله الخير)، وذلك عليه، وقبيه لـ، وجعل من أهمه أن أحق العلم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ، بعد المعرفة بالله حسن

(1) هو: عمار بن المفعّل، من أئمة الكتب، وأول من عين في الإسلام بترجمة كتاب المقطع، أصله من الفرس، ولد في العراق، "عموساً مرسكاً"، وأسلم على يد "عبيس بن علي" عم "المسحاح"، وولي كتابة الديوان "لمصور"، أُلم بالرئِّقة، فقلته أمرها "سفيان بن معاوية المهلبي" سنة 424 هـ، من آثاره، "كتلة ودمة"، و"الأدب الصغير والكبر"، و"رسالة الصحابة".

(البابية والفقهاء: 188، والمجلات المجلة: 148)

(2) هو: أبي الضابط، صالح بن عبد القادر بن عبد الله بن عبد القادر الأعرجي الجاهلي، مولاه: شاعر، حكيم، كان متكلماً بعظ الناس في البصرة، له، مع "العلاف" مناظرات، وشعره كلّه أشعار، وحكم، وأدابه، فقدم عند "المهدي" بالرئيسة، فقلته، ببغداد سنة 160 هـ.

(البابية والفقهاء: 140، واللغات المجلة: 172، والمجلة: 106، واللسان: 105، واللغة: 105)

(3) هو: أبو إسحاق، إبراهيم بن سبأ بن هاني البصري النسائي، من أئمة النظم، وأبيله تربة فرقته، "النظامية" من المنظرة، أُلم بالرئيّقة، وألفت كتب كثيرة تدل عليه، توقيف سنة 321 هـ.

(بطاقة المجلة: 49، وتاريخ بغداد: 108/4، واللغة: 104/1، والمجلة: 101/1، واللسان: 103/1)

(4) هو: أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل بن مهران العباسي، عالم بالأدب، والبلاغة، له شعر، من أهل "عسكر مكرم" "ابن الأهلوات"، تعلم "بغداد"، "البصرة"، "أصفهان"، توفي سنة 395 هـ. من أثاره: "كتاب الصناعية"، و"ديوان المعاني".

ثناًو — علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز القرآن؛ كتّاب الله
— تعالى — الناطق بالحق، الهادئ إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة،
وصحة البينة، التي رفعت أعلام الحق، وأقامتها منار الدين، وأزالت شعبة الكفر
ببراهينها، وهتك حجاب الشك بقينها (1).

عند ذلك انبرت طائفة من فحول علماء هذه الأمة؛ للدفاع عن الدين، وعـن
القرآن الكريم، وإعجازه، الذي كان له الأثر الكبير في بلوغ فكرة الدعوت.
وينبغي أن : «أبا عثمان الجاحظ (2)» هو أول من تكلم في سر إعجاز القرآن
الكريم في كتابه «الاحتجاج لنظم القرآن»، الذي ألفه للرد على الملاحدة
والزندقة، وللرد على شيخه «إبراهيم بن سير النظام»، الذي رد إعجاز القرآن
للصرفة. يقول الجاحظ عن كتابه هذا: «أجهذته في نصفي، وبلغت فيه أقصى ما
يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، وارد على كل طائع، فلم أدع فيه مسألة لفرضي،
ولا لحديشي، ولا لخشي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقوم، ولا لأصحاب
النظام»، ومن بحث بعد النظام من يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة، وأنـه
تسريل، وليس برهان، ولا دلالة (3).

وعبذا كتاب «الباححة» وكلاماه عنه، يحيى بأن الجاحظ يرد إعجاز القرآن

(1) الصناعين، لأبو هلال العسكري: ط/ بدون تحقيق على محمد نحوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم.
(2) بروت: الكتبة العصرية ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦ م. ١.
(3) وهو: أبو عثمان، عمرو بن يعر بن محبوب الكفائي بالولاء، الليثي، الشهر بالباححة: من أنسـة الأدب
العري، والبلاغة، ورئيس الفرقة «الباححة» من «المزاج»، ولد بـ "البصرة": "سنة ١٦٣ هـ،
وتعلم ما بـ "بغداد"; فيه ذكره في علوم الأدب، وأحاط به يعرف عصره، وناصر من الخلفاء
والوزراء إلى أن ولي «الموكل»، فنشأته للمزاج، فنُكرت للبلدة، فتُفرى «الباححة»، وعاد إلى "البصرة"، ولازم
مائله إلى أن تُوفي سنة ٢٥٥ هـ. من آثاره: «البيان والبيانين»، و"نظام القرآن»، و"الحيوان"،
وغيرها من الموقفات.
(5) رسائل الجاحظ، لأبي عثمان الجاحظ، مصر: مطبعة تقدم ١٣٢٣ هـ: ١٢٢، ١٢٣/١٢٠. ١٣٢/١٢١.
الكرم إلى "النظام"، وإن كان ليس بوسعاً أن يعرف المدى الذي وصل إلىه "الجاحظ" في ذلك، لأن كتابه هذا قد سقط من يد الزمن، إلا أن تسميتنا هذا الاسم تدل على أنه توحي العلاقات بين الآيات بعضها بعض، والكلمات بعضها بعض، وأنه جمع كثيراً من العناصر البلاغية في هذا الكتاب، هذا الحكم على الكتاب، وعلى مجرده، وهو "النظام"، راجع إلى ما جاء في بعض كتبه الأخرى من حديث عن كتابه "الاحتجاج لنظام القرآن".

يقول "الجاحظ" في مقدمة كتابه "الحيوان" أثناء رده على من عاب بعض كتبه ومؤلفاته: "كما عنيت كتابي في الاحتجاج لنظام القرآن، ورغب في تأليفه، وبديع تركيبه".(1)

ويقول: "وفي كتابنا المنزل، الذي يدل على أنه صدق، نظامه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلالات التي جاء بها من جاء به".(2)

فهذان النصان، وغيرها، يدلان على أن "الجاحظ" يرجع إعجاز القرآن الكريم إلى نظامه، الذي يأخذ بالقلب كل مأخذ، ولو أن كتابه هذا بين أيدينا، لكان بإمكاننا أن نكتشف عن رأيه الواضح في هذه المسألة، لأن النقول التي وصلت إليها لا تعطي فكرة واضحة عن فحواه.

ثم بنهج فكرة "النظام"، أكثر الحديث عنها عند "أبي سعيد السيرافي"(3)، وتأخذ صورة أكثر فضحاً وضحاً، وذلك عند حديثه عن معاني النحو.

(1) الحيوان للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ط/ التاندة، بيروت: المجمع العلمي العربي الإسلامي 1388 هـ: 9/90.
(2) الحيوان: 4/90.
(3) وهو: أبو سعيد، المنصور بن عبد الله بن المزني السيرافي: محوي، تمام الباء، أصله من "سيراف" من بلاد فارس، تلقى في "عمان"، وسكن "بغداد"، فعلى نهاية الفضاء سنة 368 هـ. كان متغلقاً متفقاً، لا يأكل إلا من كسبه، من آثاره: "شرح أباط السيوه"، و"الإفلاع". (بيعة الوعد: 1/100؛ طبقات النحويين والتلفظ: 1119؛ نهضة الأدب: 327؛ والأعلام: 190/2).
يقول: «معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ، وسكتاته، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضبة لما، وبين تأليف الكلام بالتقدم والتأخير، وتوخي الصواب في ذلك، وتجنب الخطأ في ذلك، وإن زاغ شيء عن النية؛ فإنه لا يخلو من أن يكون سانغا بالاستعمال النادر، والتأويل البعيد، أو مرودا نقروحة عن عادة القوم الجارية على فطرتهم».

ثم جاء «محمد بن زيد الواسطي(1)»، فألف كتابًا في الإعجاز سماه «إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه»، ولكن للأسف، فإن هذا الكتاب سقط من يد الزمن أيضًا، ولم يصل إلينا منه شيء، ولا شرحاء اللذان شرحهما الشيخ «عبدالقاهر الجراحى(2)».

ثم جاءت بعده كتاب الإعجاز ترى؛ لتوضح هذا الخلل، ولكنها دون ما كننا نرجو، فقد جاءت قطارات لا تبل الصدى، ولكنها ومضات تثير الطريق، سار على هجه البلاذيون(3).

فـ«الرامى(4)» يرى: "أن أعلى مرتبة في حسن البيان ما جمع أسباب الحسن في العبارة: من تعديل النظم، حتى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان، وتقابله في المجاز(5).

(1) معجم الأدباء: 2 / 903.
(2) وهو: أبو عبد الله محمد بن زيد بن علي بن الحسين الواسطي: معتزل، من كبار علماء الكلام. أصله من واسط، سكن بغداد، وتوفي فيها سنة 307 هـ. من أئهله: «إعجاز القرآن في نظمه».
(3) طبقات المؤمنين: 2 / 143؛ والوثائق بالوفيات: 3 / 87؛ هديه الطيار: 15 / 129 (كشف الصمت: 120).
(4) وهو: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجراحى: من أئهله: "أتم الحكمة"؛ ووضع أصول البلاغة، من كلم، فيه: "مذهب اللفظ، من أهل حرحان" مولى ووفاة سنة 471 هـ. من أئهله: "دليل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة".
(6) انظر: أساليب البلاغة، مطلق، حلول، الأولي، الكريمة: وكالة المطبوعات / 49.0
(7) وهو: أبو الحسن علي بن عبد الله الرامي، ويعرف بالإخضدي، وبالوراق: "سماح معتزل، فسي، أصول، بلاغى، من كبار النحاة: أصله من "ساملاء"، ولد بغداد سنة 396 هـ."
النفس تقبل البردة (1).

ولأمة «الخطابي» (2)؛ فيرى أن القرآن الكريم إما صار معجزًا؛ لأنه جاء بـ فصاح لفظ، في أحسن نظم التأليف، مضمّنًا أفضى المعني، ويقول: «إن عمود هذه البلاحة، التي يجمعها لما هذه الصفات، هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشمل عليها فصول الكلام موضعه الأحص الأشكال به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعني الذي منه فساد الكلام، وإما ذهب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاحة» (3).

ولأمة «الباقلاني» (4)؛ فيرى أن القرآن معجز بالنظم، وهو خارج عن جميع وجه النظم المعتادة في كلام العرب، فيقول: «فأنا شأو نظم القرآن، فليس له مثل يحتذى عليه، ولا إمام يقتدي به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقًا، كما يتفق للشعر البيت المادر، والكلمة الشارد، والمعنى الفذ الغريب، والشيء القليل العجيب» (5).

هـ، وحذٍ عن في السراج، و«أبن دريد»، و«الزجاج». توفي سنة 384هـ. من آثاره: "النكت في إعجاز القرآن".

(1) النكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن الرميان، طبع ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ط / الرابعة، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، و/ عموم زغول سلام، القاهرة، دار المعارف. 1987.
(2) الخطابي هو: أبو سليمان، محمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطابي اليزبي: محدث، فقيه، بالغ، ولد في بسات سنة 319هـ، وجمع الحديث بـ «مكة»، و«البصرة»، و«بغداد». توفي بـ بسات سنة 388هـ. من آثاره: "بيان إعجاز القرآن".
(3) بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ط / 107.
(4) وهو: أبو بكير، محمد بن الطيب بن محمد بن حناصر الباقلاني: متكلم، فقيه، قاض، من كبار علماء الكلام، ولد في البصرة، سنة 338هـ، وهو ناشئ، وتعلم بـ بغداد. استدعاه "عهد الدولة" إلى "شاير" لما عظته NIL، فجعل فيهم، ثم وجه سفيرًا إلى ملك الروم، استغل بالتدريس العمام، ثم لأبناء عهد الدولة. توفي بغداد سنة 403هـ. من آثاره: "إعجاز القرآن".
(5) إعجاز القرآن، للباقلاني، ط / الثالثة، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة، دار المعارف، 112.

20
ثم جاء من بعد ذلك القاضي «عبد الجبار»، وله كان أكثر وضوحًا من سابقه من العلماء، وذلك حينما رأى أن «الفصاحة والبلاغة» تقومان على ضم الكلمات، وتقاربها.

يقول: «أعلم أن الفصاحة، لا تظهر في أفكار الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقه مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقوـد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالموضضة، التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالوضع، وليس لهذه الأقسام رابعًا؛ لأن إما إن تعتبر فيه الكلمة، أو حركتها، أو موقعها، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات؛ إذا انضم بعضها إلى بعض».

ويرى بعض الباحثين بأن له الفضل في تجميع معين النظم «وإن كثيراً من الباحثين يرجع إليه الفضل في الكشف عن نظرية النظم، وتفسيرها تفسيراً دقيقاً أفاد منه».

«الدالاقل الجرجاني» كثيراً.

ولكن والحق يقول: إن العلماء السابقين، وإن بدأوا جهداً كبيراً في الكشف عن النظم، ومعرفته ومعرفة كته ومحتواه، واستنفرو في ذلك الجهود الكبير، فإنهم لم يستطيعوا تجميع هذه النظرية، وإيضاح صورها في الأذهان، حتي جاء إمام البلغاء وحمل لواءهم: الإمام عبد القاهر، فأوضح هذه النظرية، حيث أطفال

(1) هو: أبو الحسن، عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل الحكيم الأسد أبو نسيدي: قاضي، أصولي. كان إمام المعرفة في عصره، ولقبونه «قاضي الفضاعة»، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره، فرأوا على «خضاع ابن عباس»، ثم رحل إلى «بغداد»، فقرر على علمائها، واستدعا «صاحب» بن عبد، إلى «الري»، فولي قضاياه، إلى أن توفي سنة 445 هـ. من آثاره: «منشأ القرآن».

(2) الخولى، القاهرة 1380 هـ 2/6/1969، وما بعد.

(3) إنجاز القرآن وعظمته عند السكانى، د/ فوزي السيد عبده ربه، ط/ الأولى، القاهرة: مطبعة الحسين، 1409 هـ.
الحديث في كتابه «دلايل الإعجاز»، وسمي موضوعات: «التقدم والتأخير»، و«الذكر والخذف»، و«القصر»، و«الفصل والوصل»، و«التعريف والتنكر»، أو عبارة أكثر إيجازاً موضوعات «علم المعاني»، وبعض أساليب علم البيان والبدع، و«معاني النحو»، أو «النظم». 
و«النظم» عنده هو تعليق الكلم بعضها بعض، وجعل بعضها بحسب مبدأ بعض على حسب الأغراض التي يضاعف لها الكلام.

يقول «عبد القاهر»: «معلوم أن ليس النظام سوى تعليق الكلم بعضها بعض، وجعل بعضها بحسب مبدأ بعض من بعض» (1) ، وفي موضع آخر يقول: «اعلم أن ليس النظام إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علوم النحو»، وتعمل على قوانيته وأصوله، وتعرف مناهجه التي فحّحت فلا تزيل عنها، وتفتح الروسوم التي رسمت لك، فلا تخجل بشيء منها» (2).

إذا فالصير على قوانيين النحاة في التعبير، هو السبيل الأسلم للتعبير عن المعاني التي يريد المتكلم إظهارها، وذلك لأن بين أساليب التعبير فروقاً، ففرق بين أن يكون الخبر اسمًا، أو فعلًا، أو محلًا بالألف واللام، أو مجدداً عنها، وأمر في الشرط والجزء مختلف باختلاف أدواته، وطريقة تعليق الجملة على فعل ماضي، أو مضارع، وكذلك الشأن في الحال...

وذلك ينظر في الحروف التي تمتلك في معنى، ثم ينفرد ككل واحد منها بخصوصيته في ذلك، فالنظر الدقيق يقتضي وضع كل واحد منها في خاص معناها...

ويؤكد الإمام «عبد القاهر الجرجاني» رحمه الله أن صحة النظم، أو فساده، وتميزه، وفضله يرجع إلى المعاني النحائية، أي: معاني النحو وأحكامه، ويدخل في أصل

(1) دلايل الإعجاز، للإمام عبد القاهر، تحقيق: محمود شاكر، طب/ بدون، مكتبة الخاتمي، القاهرة: 4. 
(2) المصدر السابق: 81.
من أصوله، ويتصل باب من أبوابه، ولا يتصور أن يتعلق الفكر معاني الكلام أفراداً، وحيدة عن معاني النحو، بل لابد من تنظيمها، وإجراء قانون النحو فيها؛ لتنظر المعاني المرادة من خلال ذلك.

وقد ربط "عبدالقاهر" الإعجاز بالنظم، فقيد أن النظم هذا المفهوم ميدان فسيح واسع، ودقيق غائر، والعقل يقبل بالرضا والارتياح أن يُعَظُّل بعض الكلام بعضًا في ميادين النظم، وأن يقدم منه الشيء الشيء، ثم يزداد من فضله ذلك، ويرتقي منزلة فوق منزلة، ويعبر مرقباً بعد مرقب، ويستأنف له غاية بعد غاية، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع، وتحرر الفضول، وتستوى الأقدام في العجز.

ثم أخذ ببحث الإمام "عبدالقاهر" لهذه القضية منحنى آخر، ألا وهو: تطبيق ما نادي به من أن "النظم" من أسرار الإعجاز القرآني، فطبق ذلك كم ثأولنا على عدد من الآيات القرآنية، حيث خلل وعلل وأبان وفصل.

وبعد هذه الرحلة مع الإمام "عبدالقاهر"، وقضية "النظم" التي هي مدار الحديث في هذا البحث يمكن القول: إن "عبدالقاهر" يرى أن إعجاز القرآن يعتمد اعتماداً كبيراً على النظم والتأليف، وهذا النظم ليس تأليف الحروف، والكلمات كل بحسب خارجها، وإنما النظم عدده هو ترتيب المعاني أولاً، ثم تأتي الألفاظ لتنصعد هذه المعاني، وهذا النظم لابد أن يكون محاضاً لقواعد النحو وأصوله.

(1) المصدر السابق: 82 - 83
(2) المصدر السابق: 410
(3) انظر: نظرية عبدالقاهر في النظم، مكتبة فضية مصر، القاهرة 1960 م: 111 - 112; النظم القرآني في آيات الجهاد، د/ناصر الحسين، مكتبة التوبة، الرياض، ط/الأولى، 1416 هـ: 14.
(4) انظر: دلالات الإعجاز: 110 - 112.
ولذا تقدمنا قليلاً وجدنا «جاه الله الزمخشري(1)»، قد تأثر بما قاله الإمام
عبد القاهر في هذه النظرية، فقام بتطبيقها عملياً على كتاب الله، فأخرج هذه
النظرية من حيز النظرية، والتقعيد إلى حيز التطبيق، وذلك في كتابه الشهير
الكشف». 

«فنظم الكلام كما يتصوره الزمخشري يعني بيان بعض الروابط
والعلاقات بين الجمل، وكيف يدعو الكلام بعضه ببعضًا، وكيف يأخذ بعضه بحجم
بعض»(2).

لكن هنا مسألة سؤال ملح يطرح نفسه، وهو: هل وجد بعد عصر الإمام
عبد القاهر من تابع طريقه، وسار على منهج أثره غير الزمخشري؟

بما تكون الإجابة بالنفي! ويمكن إرجاع ذلك لما يلي:

أولاً: كان العصر الذي تلا عصر «عبد القاهر» عصر حروب وفتين داخلية
وخارجية، والنزاعات العقلية، والتفاسير، الذي تتح ضياع كثير من السترات
العربية، فجاء عليهم جيل طويل، تراجعت فيه الثقافة العربية إلى حد لم يكن أحد
يتوقعه. وانتشرت الجماعات، واللحن بين أفراد المجتمع المسلم آنذاك.

ثانياً: انتشرت العلوم العقلية والفلسفية بين أفراد الأمة، ومال الناس إلى التبويض،
والتفسير، والتقعيد، والإختراع من المؤلفات السابقة، وكذلك قدموا بما اقناع معا
يمكن إنقاذه من التراث العربي العظيم الضخم، الذي خلف عليه من الضياع،

(1) هو: أبو القاسم، محمود بن عمر بن أحمد الخوارزمي، جاه الله: إمام عصره في اللغة، وال نحو،
والبلاغة، والنقد، ولد في «زمان» سنة 467، ورحل إلى عدة أماكن، منها: مكة، حيث
جاوره زمانًا اقلصهم متعدد، واجد عليه المعرفة، ودافع عنه بقوة، حتى عند خلالة شيوخ المترشلة.

مات بـ «الخرجي» سنة 538 هـ. من آثاره: «الكشف»، و«أساس البلاغة».
( نزهة الأئمة: 296; محمد الأباء: 2288/6; البديعة والإغاثة: 12/14/12; هيئة المعارف: 2/4).

(2) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د/ محمد أبو موسى، ط/ الثانية، القاهرة: مكتبة مهجة
1408 هـ: 247 بصرف.
فظهرت ظاهرة «الشروح»، و«التلخيصات».

ثالثًا: أن حكم بعض الولايات، انتقل من العرب الذين كانوا يشجعون الإبداع والتجديد، إلى أيدي الأعاجم، الذين لم يكونوا على جانب كبير من الثقافة العربية الأصلية، ولم يكونوا يشجعون حركة التعليم، والتأليف، والإبداع، فكلاً نتيجة هذه الأسباب أن نضبت قوافل المبدعين، فاكتفى علماء تلك الفترة باختصار تراث من سبقهم، وأكتفى بلاغيه تلك الحقبة باختصار كنسبة «عبدالقاهر»، وتقليل أقواله، واجتهازها، وتجريدها من رونقها وهمائها؛ لنصب في مجموعة مثنى القواعد والقواعد الجافة، توارى الأذواق خلفها.

وعلل من أبرز رجال هذه المرحلة: «أبا يعقوب السكاكي (1)  رحمه الله »، صاحب كتاب «مفتاح العلماء»، الذي قام في كتابه هذا برد إعجاز القرآن الكريم إلى «النظام»، والنظم عنده هو: أن توجه كلامك الوجهة التي يقتضيها علم «النحو»، ولكن السكاكي»، لم يكتف بهذا، بل قام بدراسة هذه النظرية، وأقام عليها جزءًا من أجزاء البلاغة، وهو «علم المعاني»، وقد صاغ «السكاكي» النظرية بروح عصره، الذي تشيع بروح الفلسفة والمنطق، ولهذا يجلي هذا الأمر تعريف السكاكي» لـ«علم المعاني»، حيث يقول: 

علام أن علم المعاني هو، تتبع خواتم تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بما من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطايا في تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره...(2).

فلو أحننا النظر في تعريفه هذا: لو جهدنا قريباً من تعريف «عبدالقاهر»

________________________

(1) هو: أبو يعقوب، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الحوارمي الخففي، سراج الدين: أحد علماء البلاغة، وله بـ«خواص» سنة 555 هـ، ولهما توفي سنة 626 هـ، من آثاره «مفتاح العلماء».

(2) مفتاح العلماء: 161.

25
لـ "النظم"، ولكن محاولة "السكيك" تقعيد البلاغة، وتوبيها، جعلتها مزجهاً من القواعد التي تمثل إلى الجماهير قليلاً، وشبيهة بعلمي: "النحو، والصرف".

على أن "السكيك"، وهو عالم ذو فكر ثاقب، لم يستطع أن يفهم ويستوعب أفكار "عبد القاهر"، حيث استوعب الجانب التقليدي عنده، ولم يستوعب الجانب الذوقي الجمالي التحليلي؛ وإن كانت توجد لديه بعض الوقائع التحليلية لبعض الآيات القرآنية.

فقد نجح في الجانب الأول، وأخفق في الجانب الثاني، وهذا يمكن أن أقول: إن البلاغة العربية، فقدت على يد "أي يعقوب السكيك" جانباً جمال التحليلي الذوقي، وتحولت إلى كل من القواعد الجامدة، التي تشبه الصم الصلاب، وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل "السكيك" مؤرخاً في أرتبة البلاغة، والمهتمين ببحوث الإعجاز، والدرس البلاغي، حتى عصرنا الحاضر.

---

(1) انظر: المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، د/ أحمد جمال العمري، مكتبة الخاتم، القاهرة 1410هـ - 224م.
المبحث الثاني
المبحث عن سورة آل عمران
تعرف بها، وبيان فضيلتها، ومنهج السورة في عرض آياتها
الحديث عن سورة آل عمران

القرآن الكريم، هو جَبَلُ الله المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزري به الأهواء، ولا تلبس به الألسنة، ولا تشعيه من العلماء، ولا تخلق من كرة الرد، ولا تنقضى عجابه(1).

أنزل الله سبحانه وتعالى هذا القرآن على محمد ﷺ بعد أن حرفت الكتب السماوية، التي أنزلت على الأنباء السابقين عليهم السلام، ليشردوا بها أقوامهم إلى أهدي السبل، وأبناها.

وهذا القرآن هو الصراط المستقيم، الذي أراد الله من الخلق أن يسبروا عليه، ويهدوا بهداه، ويفقو عن حدوده، حتى يلقوا رضوانه وتعالى سبحانه وتعالى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

وهذا الكتاب الكريم، أنزله الحق تبارك وتعالى سورة وآيات كرَّس الله في جملتها، والتأمل فيما اشتملت عليه من آيات الروعة والإعجاز.

(1) جزء من حديث علي ﺃ. ﺑ. الذي رواه الترمذي في سننه (2908)، في توات القرآن: باب ما حسِن في فضل القرآن: والذكر في سننه: 312 رقم (4324)، في فضل من قرأ القرآن: وأحمد في سنده رقم 97074، تقيق/ أحمد شاكر.

وسته ضعيف جداً؛ من أجل «الخُطَر الأعْوَر» فإن مدار الحديث عليه. قال عنه ابن حجر (2901- تقريب): «المُحَذَّر الأعْوَر الهَمَداني صاحب علي، كذبه الشيخ في رأيه، ورمى بالرخص، وهل حديثه ضعيف، وليس له عن النسايين سوى حديث، روى عنه الأربعة: أبو داود، والترمذي، والسناوي، ابن ماجه».

وبعد النظر في مطلع هذه السورة، وجدت أن الحديث عنها سيكون من خلال ثلاثة محاور، وتلخص في الآتي:
أولاً: فضلها:
جاءت النصوص تترى في فضل سورة «آل عمران»، ومكانتها، وترغب الناس في قراءتها، وحفظها، فمن ذلك ما جاء من أعلاها «أمان من الخيات»، و«كثر الصعلوك»، و«أنا نحاج عن قارئها يوم القيامة»، و«يكتب لمـن قرأ آخراً في ليلة، كقيام ليلة» إلى غير ذلك.

فمن بريدة قال: كنت جالساً عند النبي، فسمعته يقول: (تعلموا البقرة)؛ فإن أعجزوا بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعوا البطلة، قال: فقلت: ثم سكت ساعة، ثم قال: (تعلموا سورة البقرة)؛ و«آل عمران»؛ فإمام الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة، كأئمًا غماران أو غماران، أو فريقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين يشق عنه القبر، ككل جل الشاحب؛ فقول له: هل تعرفني؟ فقول: ما أعرفك!، فقول: أنا صاحبك، الذي أظلمتكم في الهواجر، وأشهرت ليلك، فإن كل تاجر مـن وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة؛ فعطيه الملك بيمينه، واخذت بشماله، ووضيع على رأسه تاج الوقار، ويكسي الدهد حلتان، لا يقوم هما أهل الدنيا، فيقولون: لما كسبت هذا؟!، فقول: أخذ ولدكما القرآن، ثم يقال: أقرأ، واصعد في درج الجنة، وغلفها، فهو في صعود مادام يقرأ هذا، أو ترتيبًا (1).

---
(1) انظر: الجمع لأحكام القرآن: 4 / 3؛ الدور المنثور: 2 / 140؛ الفتوحات الإقليدية: 1 / 241
(2) ROH: روح المعاني: 3 / 373؛ التحرير والتدوير: 3 / 143.
(3) البطلة: السحرة.
(4) هذا: قراءة بحلة دون تذكر.
(5) الحديث رواه أحمد في مسنده: رقم (224441)، ورقم (224446)؛ ورواه الدارمي في
وعن أبي أمة قال: «سمع رسول الله  يقول: (اقرأوا القرآن فإن شافع لأهله يوم القيامة، أقرأوا الزهراوين: «البقرة»، و«آل عمران»)؛ فإنما يأتي من يوم القيامة كأئمة عام يختارونه، أو كأئمة غامبان، أو كأئمة فرقة من طر صواف، يجاج من أهلها يوم القيامة، ثم قال: أقرأوا «البقرة»، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطة). (1)

وعن النواس بن سمعان  يقول: (يؤتي بالقرآن يوم القيامة، وأهل اللذين كانوا يعملون به، تقدمهم سورة «البقرة»، و«آل عمران»)؛ وضرب لهما رسول الله  ثلاثة أمثال ما نسيتهما بعد، قال: (كأئمة غامبان، أو ظلماً سوداواً بينهما شرق، أو كأئمة فرقة من طر صواف، تجاج عن صحابهما). (2)

فهذه الأحاديث وغيرها، جاءت صريحة في الدلالة على فضل هذه السورة، ووعظت مكانها.

والله نسأل أن يجعلنا من أهل القرآن، الذين هم أهله وخاصته.

النافع: سبب تسميته بذلك.

سميت هذه السورة «سورة آل عمران»; وذلك في كلام النبي  كما في حديث أبي أمامة الباهلي، والواسع بن سمعان رضي الله عنهما المتقدمين.

وسميت بهذا الاسم كذلك في كلام الصحابة، رضوان الله عليهم.

سنن: رقم (268); والباهلي في شعب الإيمان: رقم (189).

(1) الحديث رواه مسلم صحيحه: رقم (870); والباهلي في سنه: رقم (6159); وابن حبان في صحيحه: رقم (117); وأحمد في مسده: رقم (21653) رقم (16839) (1214); رقم (343) رقم (1701); والباهلي في شعب الإيمان: رقم (180) ورق (372) رقم (2071).

(2) عبد الزكاة في مصنفه: رقم (6991); والباهلي في مسده: رقم (2793)؛ والباهلي في شعب الإيمان: رقم (1701); والباهلي في سنه: رقم (870).

30.
فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: (من قرأ آخر آل عمران) في ليلة، كتب له قياس ليلة (١).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (بت ليلة في بيته رسول الله ﷺ، بل حتى إذا كان نصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، استيقظ رسول الله ﷺ، فقرأ الآيات من آخر سورة آل عمران) (٢).

ووجه النسخة - والله أعلم - لأنا ذكرت فيها فضائل آل عمران، وهو: عمران بن مانان، والله مرم عليه السلام.

وذكر بعض المفسرين أسماء أخرى لهذه السورة، كالأمان، والكلق، المجادلة، وسورة الاستغفار (٣).

الثالث: منهج السورة في عرض موضوعاً، وأهم السمات المميزة لهذا المنهج.

سورة آل عمران نزلت بالمدينة بإتفاق علماء التفسير، بعد سورة البقرة، وهي السورة الثامنة والأربعون في ترتيب عدد نزل سور القرآن، وعند آياها مائتا آية (٤).

(١) الحديث رواه الدارمي في سنة: ٩٠٩، رقم (٣٢٧٣).
(٢) الحديث رواه البخاري في صحيحه: رقم (٨٧٦٩)، ومسلم: رقم (٧٦٣)، وأبو داود في سنة: رقم (١٩٠٧)، والساحي: رقم (١٣٦٢)، وابن ماجه: رقم (١٦٢٣)، وأحمد في مسلم: رقم (١٦٢٥)، وابن حبان في صحيحه: رقم (٢٧١٩)، وابن حصبة في صحيحه: رقم (١٩٤٥).
(٣) عبد الزياق في مصحفه: رقم (٢٨٦٦)، ورقام (٧٦٨٨)، والإمام مالك في موطأة: رقم (٢٧٥).
من الأغراض التي اشتملت عليها السور الكريمة: الابتداء بالتاعية بالقرآن الكريم، ونبينا محمد ﷺ، وتقسيم القرآن الكريم، ومراتب الأفهم في تفنيدها، والتدوين بفضيلة الإسلام، وأنه لا يعادل دين، وأنه لا يقبل من أحد دين سواء بعد ظهوره، والتدوين كذلك بالدورة والإنجيل، وإيضاح أنتما قد أزنالا قبل القرآن، تمهدًا هذا الدين، فلا يفي للناس أن يكفرها به، وعلى التعرف بالدليل الإلهية الله تعالى، والفرز، وإبطال ضلال الدين، أخذنا آلهة مين دون الله، من جعلوا له شركاء، أو اخذوا له أبناء، ومهدى المشركين أن أمرهم إلى زوال، ولا يغرهم ماهم في البذخ، وأن أعد للمؤمنين خير من ذلك، ومهدىهم بزوال سلطانهم، ثم البناء على عيسى وألي بيه، وذكر معجزة ظهوره، وأنه مخلوق لله، وذكر الذين آمنوا به حقًا، وإبطال ألوهية عيسى، ثم ذكر بعد ذلك قضية وفقه يجرا وحماحاته، ثم بحماية أهل الكتابين في حقية الخفية، وأهمهم من أبعد الناس عنها، وما أخذ الله من العهد على الرسول كلهم أن يؤمنوا بالرسول أخاهم محمد ﷺ، وأن الله جعل الكعبة أول بيت ووضع الناس، وأوجب حجهم على المؤمنين، وأظهر ضلالات اليهود، وسوء مقالتهم، وافتراعهم في دينهم، وكماهم ما أنزل الله إليهم، وذكر المسلمون بنعمتهم عليه بدين الإسلام، وأمرهم بالاختلاص والوفاق، وذكرهم سابق سوء حالفهم، وما هو عليه في عائلتهم، وهو من عليهم تظاهر معانديهم من أهل الكتاب والمشركين، وذكرهم بالخطر من كيدهم، وكيد الذين أظهروا الإسلام، ثم عادوا إلى الكفرة أخرى، وأمرهم بالاعتزاز بأنفسهم، والنصر على الشدائد والبلاء، ورحب على ذلك النصر والتأليف، وإلقاء الرعب من نفس أعدائهم، ثم ذكرهم يوم بدر، وضرب لهم الأمثال مما حصل فيه، ونوه بشأن الشهداء من المسلمين، ثم أمر المسلمين بفضائل الأعمال: من بذل المال في مساحة الأمة، والإحسان، وفضائل الأعمال، وترك البخل، ومذمة الربا، ثم ختمت السورة بآيات عظيمة في الحديث على
التفكير في ملكوت الله سبحانه وتعالى (1).

هذا موجز لما اشتملت عليه هذه السورة العظيمة، وإذا تأملناها جيدًا، وجدناها تسعى لتحقيق الهدف العام الذي يسعى له القرآن، وهو غرس عقيدة التوحيد في نفس الإنسان، وانتزاع ما خالف هذه العقيدة من الصغر، ثم الدعوة إلى العمل الصالح، وقد سلكت في ذلك مناهج عدة، يمكن إجمال أبرزها فيمايلي، مما ستطتح مظهره وصوره وتفصيلاته في أثناء تناولنا مسائل التحليل والدرس البلاغي:

1. المنهج الوصفي:

والذي في عرض صفات المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، وفي عرض التوجيهات العامة، والتشريعات الخاصة.

2. استعمال أساليب الترغيب والترهيب:

هذا المنهج يلاحظ في مواضع متفرقة من السورة، فلا يكاد يأتي ترهيب إلا ويعقبه ترغيب، أو العكس، وهو منهج عام في كثير من السور القرآنية.

3. المنهج القصصي:

وهذا يلاحظ في مواضع عديدة من السورة، وقد جاءت هذه القصص ملائمة مع هدف السورة العام.

هذا هو منهج السورة بكل خصائصه؛ منهج متكامل مترابط، كأنه الغصن الواحد من الشجرة، يحمل أوراقًا، وأزهارًا، وثمارًا يانعة معاً، وصدق الله العظيم، إذ يقول: «إِنَّا نَتَبَيِّنُونَ الْقُرْآنَ لَوْ كَانُ مِنْ عِبَادِ ٍ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِبَافًا كَبِيرًا» (2).


(2) النساء: آية 42.
الباب الأول

خُصائِصِ اللُّفْظِ القُرَآنيِّ

الفصل الأول: تمييز اللُّفْظِ القُرَآنيِّ
الفصل الثاني: تَنْوَعُ التَّعْبِيرِ بِاللُّفْظِ مِنْ المَعْنَىِ المَرْتَدِ
الفصل الأول
تميز اللَّغة القرآنية

اصطفاء الْحَقِّ
صفاً للَّغَة
رسَمًا وِإيقاعًا
إِيِّاَهُهَا وَطَلََّلَهُ.
اصطفاء الكلم

توطئة:

الكلمة، أو اللفظة المفردة: هي صوت أو مجموعة من الأصوات متصلة؛ من خصائصها الدلالة على معنى ١.

وقد جعل أهل اللغة ضابطاً للكلمة المفردة يفصل عن معناها، وبينها بياناً دقيقة، ويوضح حدوتها، وهو: أن الكلمة المفردة يمكن إفرادها بالنظر، أو حذفها من الكلام، أو استبدالها بغيرها.

وأما البلاغيون؛ فقد أثروا النظر في الكلمات المفردة، فهي إلى جانب دلالاتها على المعنى، أو الصوت، فهي ذات قيمة جمالية وتعبيرية; إذا سلبت من العيوب التي تورثها ضعفاً، كنماذج المعانى، والبريق، وغزارة، ونحو ذلك، وهي تحدث في الأذان لذا ومعناها، وتجد طريقها إلى القلب، يسيراً سهلاً. أضاف إلى ذلك قدرهما التعبيرية الخاصة؛ إذا اتفق الإيقاع الموسيقي لها، والتجنيد، والضفة، بالإضافة إلى سهولة النطق، وعذوبة اللفظ.

والبلاغيون ينظرون إلى الكلمة المفردة في محورهم البلاغية من جهتين: الأولى: حروف الكلمات، وعلاقة هذه الحروف بعضها بعض؛ من حيث التنافر، والتجانس.

التانية: دلالة الكلمة، وقيمتها من الناحية الجمالية، والتعبيرية في حالة التراكيب، وعلى الرغم من تبائن آراء البلاغيين، وموقفهم من اللفظة، أو الكلمة المفردة، في البحث البلاغي، لكن هذين المسلكين، يلحظان في محورهم البلاغي، انظر إلى كلامهم عن الفضاحة، وتعريفهم لها في كتب البلاغة، تجد احتفالهم.

(1) المراجع: اللغة: ٢٣٤; النقد المحيط: ١٤٩١; التعريفات: ٢٣٦; المعجم الوسيط: ٧٩٦; معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: ٣٠٩.
بالكلمة المفردة واضحاً لا لبس فيه(1).

فـ«أبو عثمان الجاحظ»؛ جعل للفظ في حال إفراد صفات، ومعنا تؤكد
بما جودته، وبوساطتها يرتفع عن غيره من سائر الألفاظ، وقد غالي في ذلك؛ حتى
ذهب إلى أن «المعاني المطروحة في الطريق يعرفها: العجمي والعبري، والبديوي
والقروي، وإنما الشأن في إقامة وزن الكلمة، وتميز الفظ، وهيئة المخرج، وفي
صحة الطبع، وجودة السبك»(2).

وقد سار في ركاب «الجاحظ»، ونادى بما نادي به كثير من البلاغيين؛
منهم «أبو هلال العسكري»_ رحمه الله _؛ إذ قال: «ليس الشـأن في إبراد
المعاني؛ لأن المعاني يعرفها: العربي والعجمي، والقروي والبديوي، وإنما الشـان في
جودة الفظ، وصفاته، وحسنها _ وهائه»(3).

وعباره «أبي هلال»، تقرب من عبارة «الجاحظ»، وثبتت أنه أحد عنه.

ومن أشعار بالفظحة المفردة «ابن سنان الخفاجي»(4)، الذي أولى في كتابه «سو
القصافة» الجانب الصوفي، والمعنوي للكلمة عناية كبيرة، حيث جعل هذه الفظحـة
المفردة مثناها أوصاف هي:

1. أن يكون تأليف الفظحة من حروف متعدد الأحرف.

2. أن يكون تأليفها في السمع حسن، ومزية على غيرها.

(1) انظر : بلاغة الكلمة والجملة و الحلم : 16 _ 17 .
(2) الحيوان : 5 / 3 _ 131 .
(3) الصفعات : 57 _ 58 .
(4) هو : أبو أحمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحنفي، ولد سنة 423 هـ: شاعر أخذ الأدب عنـ
«أبي العلاء العري»، وغيره، وكانت له ولاية بطقة «عراز» من أعمال «حلب»، مات بها مسماً سنة
462 هـ، ورحل إلى حلب، ومن آثاره : «سر الفصاحة»، و«يوسف شعر».

٣٧

3. أن تكون الكلمة، كما قال «أبو عثمان»: غير متروعة وحشية.
4. أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية.
5. أن تكون الكلمة حارية على العرف العربي الصحيح.
6. أن تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره.
7. أن تكون الكلمة كثيرة الحروف.
8. أن تكون الكلمة مصغرة في موضع، عبر بما ينفع عن شيء، أو فين فين، أو ما يجري بجرى ذلك.
وأتأبى بعد «ابن سنا»، «ابن الأثير»، رحمه الله، الذي أخى باللائمة على «الخفاجي»، وقليل من أهمية كتابه، «سر الفضاحة»، بحثه عن الأصنوات، والحروف، والكلام عليها، والكلام على اللغة المفردة، وصفاتها مما لاتحاجة لذكره...

ومع هذا شغل كلام «ابن الأثير» عن اللغة المفردة، وصفاتها حسنة، وأسباب فقها جزءًا كبيرًا من كتابه، «المثل السائر»، فقد وصف اللغة المفردة، حيث جعل إلف الكلمة، وجريها في اللغة الأدبية من الأسس التي تقوم بها الألفاظ، و تستحق المرزية والتقدير، واعترف بالتفاوت بين الألفاظ التي يظن أنها من قبل المترادف، وقرر بعد ذلك أن أرباب النظم والنشر، من صناع الكلام، غريلوا اللغة....

(1) يزيد هنا «الجاحظ».
(2) سر الفضاحة: 60-82.
(3) عبد الفتاح، نصر بن أبي الكرم محمد بن عبد الكرم بن عبد الواحد الشيباني، الشهر ساين الأثير الجزيري، ولد بجزيرة «ابن عمر» سنة 558 هـ، وله نشأ، انقل مع والده إلى الموصل، وهو مشغول، وتعلم، ثم اتصل بصرح الدين، ثم توجه إلى الأفضل. توفي بغداد سنة 672 هـ.
(4) من أثاره: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.
باعتبار ألفاظها، فاختاروا الجسان من الألفاظ، واستعملوها، ونفوا القبيح، فلم يستعملوها. فحُسنُ اللفظة سبب في استعمالها دون غيرها، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها، وبئارا، وذلَك سبب يدعو إلى وصف اللفظة المفردة بالفصاحة.(1)

ومثل هذا التصور لكلمة، أو اللفظة المفردة، يعده عند الإمام «عبد القاهر»، وإن كنا نلحن أن الإمام عبد القاهر يولي عناية باللفظ المفرد من حيث خلوه مما يغلل بصاحته، ومن النقل، ومدخوليته في قضية الإعجاز، ولكنه ميع ذلك لا يرد الفصاحة إلى الكلمة المفردة، بل الفصاحة والبلاغة عنده، ترجع إلى النظم، أو الأسلوب، فاللفظة المفردة لا وزن لها، ولا قيمة في الحسن البلاغي عند «عبد القاهر»، إلا في جهة كوها موصولة بغيرها...

يقول: «وحملة الأمر، أنا لا نوجب للفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكن نوجبها لها موصولة بغيرها، وملعدا معناها مبين ما يليها».(2)

لفصاحة، والبلاغة عند «عبد القاهر»، مترادفان، ولا يمكن الفصل بينهما بحال من الأحوال، فلا يمكن عده أن نطلق على اللفظة أها فصيحة قبل أن تدخل في سياق، وتنضم إلى غيرها من الكلمات، فإذا أصبحت وصفًا للأسلوب ومن هنا جاء الترائد.

ولعمل السبب في هذه الثورة عند الإمام البلاغيين، أنه في كتابه «الأسرار، والدلائل»، يقوم بالتنوير لقضية النظم، فلا فعله قبل ذلك هدم ما قبله من أن للفظة المفردة تصيبه من الحسن منفرد من مثيلاها من الكلمات، حتى يستقيم له ما أراد، وإن في مواضع عديدة في كتابه ما يشير إلى ثنائه على الكلمة المفردة، وإرجاع المرية لها، كما في بعض تحليلاته، لبعض الآيات.

(1) انظر: المثل السائر: ١٤٢، وما بعدها.
(2) دلائل الإعجاز: ٤٢٠.
أما «جار الله الرحمنى» ؛ فلما يكن ينظر إلى النظم القرآني وحده ، بل نظر إليه ، و إلى المفردات القرآنية ، ووقف معها وقفات متأينة ؛ يسير أغوارها ؛ من حيث اصطفاؤها ، وصفاؤها ، وجرسها ، وإيجاؤها وظلاها ، وقد فعل هذا ؛ لأنه يدرك أن الكلمة المفردة ماهي إلا مفتاح الجملة والسياق ، الذي هي فيه(1) ، فمأن أحسن استعمال هذا المفتاح فتح له على كوامن الدرر ؛ وهذا ما نلحظه عنه ، وعدد منه سلك سبيله من المفسرين ؛ فنجد لهم وقفات عند بعض الكلمات القرآنية ، التي تجعلهم يخلقون في سماء هذا الإبداع الإلهي .

(1) انظر : البلاغة القرآنية في تفسير الرحمنى : ۲۶۱ ، وما بعدها .
اصطفاء الكلم

استناداً إلى الفهم، هو: اختيار (1) الألفاظ؛ للتعبير عن المعاني القائمة بالنفس، سواء كان النفط: اسمًا، أم فعلًا، أمحرفًا.

وهذا الأمر وهو اختيار الكلمة، ووضعها موضعها اللائق بها؛ ليس أمراً يسيرًا، ولا يدرك ذلك، إلا أن أيّ حُقداً وافراً من البلاغة، وممارس في القول، ودفع إلى مضايقةه.

فاختيار واحد فقط من بين المفردات المتعددة، التي تُقارب معانيها على ما بينها من فروق دقيقة. ترعي عند الاختيار، كفيل بإبرازها.

وهذا التوفيق في الاختيار، أو الإخفاق، يعد أحد الأسباب التي ينشأ تفضؤت مراتب الكلام قوة وضعفًا، وليس كل من ضم كلمة إلى أختها وفق قوانين النحو صار بليغًا.

فالبلاغة مرحلة فوق الصحة اللغوية وال نحوية، يراعى فيها سلامة الكلمة ممّن العيوب التي تورثها ضعفًا، ثم اختيار الموقع المناسب لها، وفق الغرض الذي سيقت له (2).

ومن نظر في هذا الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يلاحظ أنّه يختبر الكلمة، حروفها، وأصواتها صافية الذوق، لذة في السمسم، خفيفة في الدم، قوية الإخاء، شديدة البعث، لما تضمنته من المعاني المرة، التي توصل إلى الأهداف المقصودة من الآيات في تأليفه، وانسجام مع جارتها.

وقد أوضّح هذا وآثر إليه أساطين البلاغة، وأفاذها. فهاهو ذا «أبو عنوان الجاحظ» بين أن الله سبحانه وتعالى في كتبه، قد وضع الألفاظ في مواضعها


(2) انظر: من بذائع النظم القرآنى: 23.
اللاطئة بما، مع أن الناس في كلامهم قد يسلكون مسلكاً مختلفاً لذلك، فيقول:

«وقد يستخف الناس ألفاظاً، ويعملوها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله  تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن «الجوع» إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون «السُـغب»، ويذكرون «الجوع» في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر «المطر»؛ لأنك لاجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصية، لا يفصلون بين ذكر المطر، وذكر الغيث... ولا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بـالذكر، وأولى بالاستعمال»(1).

وقد أشار و«الراوي»(2)، و«الخطابي»(3) «الإقليمي»(4) إلى أن من أسباب إعجاز القرآن الكريم دقة ألفاظه، وحسن أصطفائها، وأن وضع كل نوع من الألفاظ في موضعه الأخص هو من صميم عمود البلاغة، ويسقط هذا العمود بوضع لفظة مكان آخر، وينتج عن هذا الأمر فساد الكلام، وذهاب رونقه وحائه، وكلام الله  تعالى يعزل عن هذا الأمر ...

وألح الإمام «عبدالقاهر» إلى أن من جملة أسباب إعجاز القرآن الكريم»مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصوصه صادفواه في سياق لفظه، وبدائع راعتههم من مبادئ آيه ومقاطعها، وجذاري ألفاظها ومواقفها، ومضرب كل مثل، وسياق كل خبر، وصورة كل عظة وتبنيه، وإعلام وتذكره، ورغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبنيان، وفرهم أهم تأملوه؛ سورة سورة، ونشأة عشرًا، وآية آية؛ فلم يجدوا في الجمع كلمة ينبو بها مكافأ، ولفظة ينكر شلها، أو

(1) البيان والنبيين : 20 / 2.
(2) الناظر : النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : 94.
(3) بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : 24.
(4) الناظر : إعجاز القرآن : 37.
يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أخرى وأحلاق، بل وجدوا اتساقاً بـ
العقل، وأعجاز الجمهور، ونظاماً وتائماً، وتكاملًا وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ
منهم، ولو حك يبافوه السماء موضوع طمع؛ كن خرست الألسن عن أن تدعي
وتقول، وحذرت القروٍ (1)، فلم تملك أن تصول...» (2).

ومن الباحثين المحدثين، الذين عالجوا هذه القضية: محمد بن عبد الله دراز (3)
في كتابه «النبا العظيم»، حيث قال: «الجديد في لغة القرآن: أنه في كل شـأن
يتناوله من شنف القول، يتحرر له أشرف المواد، وآمسها رحمةـا بالمعين المـراد،
وأجمها للشوارد، وأقبلها للامتراح، ويهب كل منقال ذرة في موضعها، الذي هوـ
أحق بها، وهي أحق به» (4).

وقصري القول: إنها مهما قلنا في وصف القرآن، وكلماته؛ فإن نوفي حقه؛
لأنه كلام الباجي سبحانه وتعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا خلفه
缝隙 تستلزم من حكيم حميد.

(1) القرو : هو فحيل الإبل الذي يترك من الركوب والعمل، فلا يمسه حبل، بل يودع للفحالة.
(2) دلائل الإعجاز : 3.9.
(3) هو الأستاذ محمد بن عبد الله دراز، ولد في قرية «مملة دابي»، بمحافظة كفر الشيخ، ونشأ في بيت علم
وصلاح، وحفظ القرآن صيراً، وعرف في صغره بالفطنة والذكاء؛ وتوفي في دراسته حتى حصل على
الشهادة العالمية، ثم عين عضواً في جمعية كبار العلماء، توفي في باكستان سنة 1958، عند حضوره المؤتمر
الإسلامي. من مؤلفاته: «النبا العظيم»، و«الخمار».
(4) مقدمة كتاب النبا العظيم للدحلي: ن. ز. ح. أ. (5. النبا العظيم، محمد بن عبد الله دراز، تحقيق: عبد الحميد الدحلي، ط / 1، الرياض/دار طبـبة:
1417 هـ - 1121، ويُنظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للراقي، دار الكتاب العربي، بيروت،
ط / بدون، 1410 هـ: 226).
صفاء الكلمة

الصفاء: هو النقاء والخلو (1).

وصفاء الكلمة: هو نقاوتها، وخلوتها من كل شائبة تكبر صفوها، وتميل بفصاحتها، وتقلل من دلالتها على المعنى المراد، مع عذوبتها.

ومن نظر في كلمات القرآن الكريم، وترابيكيه، وجد بياناً على قدر حاجة النفس فلا تصرف على النفس، ولا تستفرغ مجدوها، بل هي متصسدية في كل أنواع التأثير عليها، مما يؤدي ذلك من كل معنى صورة نقيه، لا يضيعها كدر الغرابق، وافية لا يشع عنها شئ من عناصرها الأصيلة، ولواحقها الكمالية، كله ذلك في أوجر لفظ، واتفقه (2).

جرسها وإيقاعها

جرس الكلمات: هو نغمتها، وصوتها، وإيقاعها، الذي يحصل نتيجة السلاهم بين حروفها، والتالف هذه الحروف، وتوافق أصواتها، وخلاوة جرسها (3).

والإيقاع: كلمة مشتقة من اليونانية، وهي مماثلة الجريان والتدفق، والمقصود به عامه: هو التوازي المتتابع بين حالي الصوت والصمت، أو الحركة والسكن، أو القوة والضعف، أو الضغط واللين، أو القصر الطول، أو الإسراع والإبطاء، أو التوتر والاستراحة إلخ (4).

(1) انظر: اللسان: ۱۴/ ١۴۲/ ۴۶۲، "صفاء" ؛ والقاموس المحيط: ۱۶۸۰ "صفاء" ؛ ومعجم الوسيط: ۱۵۱۸ "صفاء".
(2) انظر: اليابي العظيم: ۱۴۱.
(3) نظرية التصوير الفني عند سيد قطب: "د/ صلاح عبد الفتاح الخاندي"، ط/ الثانية، جدة: دار المدارح جدة ۱۴۰۹ هـ.
(4) انظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، جمدي وهبه، و كامل المهندس، ط/ الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، ۱۴۰۴ هـ، ۷۱.
الإيقاع : صفة مشتركة بين الفنون القولية غالباً جميعاً في الشاعر، والنثر الفني وغيرهما. فعندما يتكلم الإنسان؛ فإنه يطلق أفكاراً؛ فتبث من فمه إيقاعاته على أوتار صوته، وهي تتبان شدة وضعفًا، وسرعة وبطأً على حسب صفات مخرج حروفها. (1)

فالإيقاع أثر للجرس، وهو نتيجة له، وأثر المسموع؛ ولذا كان يجدهما في موطنه واحد.

والقرآن الكريم غني بصورة إيقاعاته، ويتجلى ذلك في نظامه الصوتي، حيث اتساق القرآن، وانطلاق حركاته وسكتاته، ومداه وعنايته، واتصالاته وسكتاته.

يقول الإمام «الزرقاني» : «للقرآن مسحة حلابة عجيبة تتجلى في نظامه الصوتي... ونرى أن نظام القرآن الصوتي، اتساق القرآن، وانطلاقه في حركاته وسكتاته اتساقاً عجيباً، وانطلاقاً رائعاً، يستمتع الأسماع، ويستهوي النفوس بطريقة لايمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور...». (2)

(1) انظر : نظرية التصور الفني عند سيد قطب : ١٠٦.
(2) مناهج القرآن، محمد الزرقاني، ط / مصر، ١٩٧٠ م: ٢ / ٢٠٨.
إحياء الكلمة وظلالها

إحياء الكلمة: هو ذلك المعنى الذي يشير إليه مدلول لفظها إشارةً خصاً وإجمالاً.

وإحياء الكلمة هو الناهض إلى النفس البشرية، والأدح مجتمعها، لتكون قائمة على نفسها بكامل ما يجمل السعادة لها، وهو في اختيار لمادة الكلمة، يهدف إلى التأثير في النفس المستمع والقارئ، حتى يكاد القلب يبتسم طرفاً من هذا النظم، وهذا الإعجاز.

ومن السبب التي سلكها القرآن في ذلك، اختيار الألفاظ المروية، بما لا يخف تحت حصر من المشاعر والآحساسات الإنسانية.

وهذه صفة ملازمة للقرآن، وألفاظه: التي هيالبيان الأولي لرسوم الصورة القرآنية، التي لا يملك الإنسان حياها إلا السباحة في تضاعفها، والغوص على كنوزها، وبذلك يحصل على أسرار عجيبة، وآليات دقيقة.

وأما الظلال: فهو التصور بالظل الموحي المبعث من النظف المعبر، وهذا التصور من أنوع أنواع التصور.

وعند إطلاق كلمة ظلال، ينادي إلى الذهن سيد قطـب رحمة الله الذي أنعم نظره في أي القرآن، وأبدل جهده في تفيه ظلالها، وذلك في كتابه القيم المسوم في ظلال القرآن، حتى صار ريماً من رموزه، وعلماً من أعلامه الشواخص، وهو في هذا الكتاب، بين أن في القرآن نوعاً من الألفاظ يرسم صورة.

التعريفات: ٥٤

(١) أُنَظَرُ: النظم القرآني في آيات الجهاد، د/ ناصر الخانين، ط/ الأولى، الرياض: مكتبة الشرفاء.

(٢) الهـ ١٤١٦ مـ: ٣٩

(٣) أُنَظَرُ: نظرة التصوير الفني عند م. سيد قطب: ١٩٦٢.
الموضوع، لا يجبره الذي يقع في الأذان، بل يرزقه الذي يستقر في الأذهان، و każde
الخاصية يلاحظها الحاس البصير(1) حينما يوجه إليها انتباهه، حینما يستدعى الصورة
الحساسة لذُلُولها.

ويتامَل لما تقام، والناذر فيه، يلاحظ تقاسيبًا بين معنى «الإبهاء»، «الظلال»،
وعندما ندعم النظر في النُظم القَرآني، وتتأمل ألفاظه وتركيزه، يبدو لنا تباينًا،
واختلافًا في استخدام الألفاظ والتركيب، وهذا الاختلاف وراءه أعراض قد افتكسته،
وأسرار دعت إليه، إنّه - أي: الاختلاف - يرجع إلى القاعدة الكبيرة التي قَمَت
عليها البلاغة، وركنها الأعظم، وهي أن لكل مقام مقالًا، والشواهد التالية مسن
«سورة آل عمران»، توضح ما سبق تنظيره؛ حيث نلاحظ صفاء الفضّة،
واصطنامًا، وجمال حرسه وسائره، ومن ذلك قوله تعالى: 「...قَزَّل...」،
وأءلَزَّل. في قوله تعالى: 「إِنَّ اللَّهَ لَأُلَهُ إِنَّهُ الْحَيُّ الْقَيُومُ تُولِّيَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
بِأَحَقِّ مَسْقَدِهِ لَمَّا بَيْنَ يَدِيْهِ وَأَئِلَزَلَ الْفَتْوَاةَ وَالْبَلاَغَةَ مِنْ قَبْلُ هَذِهِ لِلْمَسَاسِ وَأَئِلَزَلَ
الْفَرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَّارُوا بِأَعْبَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو
الْقَبْرَاءِ」 (1).

وقبل الخوض في معلم هذا النَّزاع الرباني، يجدر بنا، أن نعرض لفاحصة هذه
السورة العظيمة، وهي قوله تعالى: 「لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُومُ」.
فمطلع هذه السورة له نظم عجيب، وذلك لأن المحققين بهذا الخطاب الرباني
هم النصارى، الذين نازعوا رسول الله ﷺ، كأنهم قبل لهم: إِمَّا أن تَنازَعُوا في
معرفة الإله، أو في النبوة، فإن كان النَّزاع في معرفة الإله، وهو أنكم تتمنون لـه
ولدًا، وأن محمدًا لا يثبت له ولدًا، فالحق معه بالدلائل العقلية القطعية؛ فإنه قد تثبت بالبرهان أن حي قيوم، ومن كان كذلك؛ يستحلل عقلاً أن يولد له ولد.

وإن كان التزام في النبوة؛ فهو أيضاً باطل واضح البطلان؛ لأن بالطريق الذي عركن أن الله أنزل النوراة والإنجيل على «عيسى»، و«عيسى» علَّهما السلام، فهو بعينه في محمد، وما ذاك إلا بالمعجزة، وهو حاصل هنا، فكيف يمكن منازعته في صحة النبوة؟(1).

وأول ما يطالعنا من هذا النظم العجيب: مقدمة هذه السورة الكريمة، حيث افتتحت بالحروف المقطعة في الم، التي أحكم كثير من العلماء عن تفسيرها، وردوها علمها إلى الله سبحانه وتعالى، وقالوا: إما سر من أسرار هذا الكتاب العزيز...

والاستفادة بالحروف المقطعة، هو أحد استفادات القرآن الكريم العشر، بحيث ذكرها علماء علوم القرآن، وأطبوا في الحديث عنها، وهوي بإجمال: الاستفادة بالنهاية على الله جلالاً والاسماء، كما في سورة الفاتحة، و«الكهف»، وغيرهما، والاستفادة بالنهاية، كما في سورة المدثر، والاستفادة بالجمل الختامية، كما في سورة الأنفال، و«براءة»، والاستفادة بالقسم، كما في الصافات، والاستفادة بالشرط، كما في الواقع، والاستفادة بالمعنى، كما في سورة قريش، وأخيراً الاستفادة بالحروف المقطعة، كما في سورة البقرة، وهذه السورة(2).

والحقات أن إيراد مثل هذا الاستفادة، يعد لفها للنظر، ومثيراً للانتباه؛ وذلك لأن


48
العرب لم يعهد في كلامهم مثل هذه المقدمات، فلذلك بمجرد الكلام عليهم أحيانًا كثيرة دون أن يحرك ساقاً، أو يوقف نائماً، أو يبني غافلاً، ولأهمية هذا الخطاب، أورد الله عليهم في بدايات السورة هذه المقدمات غير المألوفة، لتحركا كمًا أسفلنا الساكن، وتبني العاقل للإسهام في هذا الخطاب الرباني (1).

فالحكم إذا ألقى كلامه لم كان غافلا، أو مشغولاً، فإنه يقدم عليه شُمِيتا؛ ليلفت المخاطب إليه بسبب ذلك المقدم كلامًا مثل: الإنداء، وحروف الاستفادة، وقد يكون صوتاً، كم يصفق؛ ليقبل على السامع، فاختار الحكم الخبير سباحته وتعله للنبيه حروفاً من حروف النهجي، لتكون دلالاتها على قصد النبيه متعينة؛ إذ ليس لها مفهوم؛ فتمحصت للنبيه على غرض مهم (2).

وبعد هذه الحروف التي افتحت بها السورة، يأتي قول الحق تبارك وتعالى: "للهُ لا أِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَكِيمُ الْقَبِيلُ"، وما يلاحظ على فتحة هذه السورة، أنها بدأت بحروف من جنس ما ورد فيها، وهذا البدء آية في التناسب، بل لقد ختمت حروف فتحتها بحرف الميم، وفي هذا تحقيق للتناسبان العام في جو السورة العام، الذي كثيراً ما يضعُه هذا الحرف.

وبوسعتنا أن نقف الآن عند فتحة سورة "آل عمران"، وتمييز قدماً مع أياً من متفحصين المفردة القرآنية في كل آية؛ لنتنظر إلى مدى ما تميزت به من جمال وعفّتها في السمع، وصفاتها، وكذلک إنجاتها، وظلالها، وسماح في اصطفاها، بل تحن بحاجة ماسة إلى التزيد والتدبر، فعلينا ندرك شيئاً من أسرار ألفاظ الذكر الحكيم.

فهذى الآية - أعني الآية الثانية - صدرت بلفظ الجملة "اللهُ ", ووصفت بالألوهة، والحياة، والقيومية، ثم الإخبار عنه بالفعل "نُزُول"، وذلك لقوى الخبر؛ اهتماماً به؛ وذلك لتربيته النهابة في النفوس عند سماع هذا النظم؛ ولذا نرى

(1) انظر: التحرير والتدوير : 1/ 214

(2) انظر: التفسير الكبير : 25/ 26، وما بعدها.
الحق تبارك وتعالى، أتبع هذا الاسم جملة من النعوت: لتحقيق هذا الهدف، فأ底蕴ه بكلمة "...لَأَبَوَّالَ إِنَّ أَهْلُهُ..."; رداً على المشركين، وعلى النصارى خصوصاً، الذين نزل فيهم صدر هذه السورة الكريم، ثم أعقب ذلك بالوصفين: "...الْحَقّ..."، و"...الَّذِينَ آمَنُوا"; وذلك لنفي الليس عن مسمى هذا الاسم الكريم، والإشارة إلى وجه انتقاده بالألوهة، وأن غيرها لا يستحقها; لأنه غير حي ولا قادر. فالأسامح لا حيّا لها ولا قدرة، وكذلك عيسى - عليه السلام - فهو في اعتقاد النصارى ميت، فلا قومية له، وكذلك وهو حي، كيف وقد كذب وأوذى...).

والآن وبعد هذه الوقفات مع الآتيين الذين افتتحت بها هذه السورة المبارك، أعود إلى ما كنت أنوي الحديث عنه في بداية هذا الفصل، وهو قول الحق تبارك وتعالى: "نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا يُؤْتَىَ بِالْوَلِيدِ الْكَبْرَىَّ..."(4)، فيعد أن قرر الله سبحانه وتعالى في فاتحة هذه السورة وحدانيه، وأنه الحي كاملي الحياة، والقيم بنفسه، والقيم لآحوال خلقه، حيث أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية... أعتقد ذلك بيان أنه نزل على رسوله محمد - ﷺ - الكتاب بالحق، الذي لا غيب فيه، وهو مستنسل على الحق... مصدقًا لما يُؤْتَىَ يَدِيَّهُ..."(5) من الكتب، فشهد بما شهدته به، ووافقه، وصدق من جاءحا من المرسلين، وكذلك أنزل السورة والإنجيل من قبل هذا الكتاب، هدى للناس، وأكمل هذه الرسائلات، وحكمها محمد ﷺ وكتابه العظيم، الذي هدى الله به الخلق من الضلالات، واستنقذهم به من الجهلات، وفرق بين الحق والباطل، والسعادة والشقاء، والصراف المستقيم، وطريق أهل الجحيم...

وقد اشتمل نظام هذه الآية على جملة من اللطائف:

(1) انظر: نظام الدرر: ٢٠٤ _ ٢٠٥ و التحرير والتنوير: ٣ / ١٤٧
(2) آل عمران آيتا: ٣، ٤
1 - أول هذه اللطائف هو: السر في اصطفاء صيغة «نزل...»، بالتضعضيف.
في حق القرآن الكريم، بينما ورد مع النزوة والنزول، بلا تضعضيف «نزل...».
وقبل تقليل السر في ذلك، لأبد من الإشارة إلى أن جهود علماء التفسير، وعلماء
المتشابه، قد تضافرت لتقليل مثل هذه الاختلافات، التي تـُــُــُـد كثيراً في السياق
القرآني، وخبير شاهد على ذلك هذه الآية؛ حيث نراهم جاءوا زراعات ووحدانـًا،
كل منهم يرجع أن يكون صاحب هذا الفتح... ولعلي لا أــبــالغ إذا قلت: إنه
لا يكاد يخلو كتاب من كتب المتشابه، أو تفسير من التفسير من الإشارة إلى هذه
الآية، أو مثيلها، والفرقــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ&
و «الرازي» (1)؛ و «ابن جمعة» (2)؛ و «البيضاوي» (3)؛ و «الرازي الأصفهاني» (4)؛ و «ابن الميني» (5)

1 | 2 | 3 | 4 | 5

52

(1) انظر: التفسير الكبير 157/4.

(2) انظر: كشف المعاني 122-124.

(3) انظر: آثار البيضوي 5/2.

(4) انظر: مفردات القرآن 579.

(5) انظر: الالتفات 336.

و»الباقعي» (1). وقد قام «ابوبقية» (2) بإبراد كلام «الباقعي» السابق، وقام برد بقوله:

تعال : «وقال الذين كفرو، لو أن نزل على القرآن جملة واحدة...» (3)، فجميع بين التضييف في «...نزل...»، وقوله : «...جملة واحدة...» (4).


ورأى ابن عاشور »، وإن كان فيه نوع وجة، ولكنه لا يستقل بالتعليل.

والرأي و»الله أعلم أن كلا الفعلين معيين واحد ؛ لكلاهما من أصل واحد،


(2) الباقعي هو : أبو الحسن، إبراهيم بن عمر بن حسن اليزاب بن علي الخزاعي الباقعي : مؤرخ، مفسر، محدث، أديب. ولد بقرية فرحانة من عمل الباقعي سنة 809 هـ، ونشأ، وتعلم،سكن دمشق، وله في النسخ 885 هـ، من آثاره : «نظام الدور في تنازل الآيات والسور».

(3) هيئة العفارين : 121 / 1 / 56 / 1 / مجموع المسجدين : 1 / 17.

(4) أبو حيان هو : حسن بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغزولي الجهان، أثير الدين : في صعوده، ولد في سنة 54 هـ. وتوفي في القاهرة سنة 745 هـ. من آثاره : «البحر الغد»، و«النهر الماء».


(6) الفرقان آية : 32.

(7) أنظر : البحر الغد 3 / 16.

(8) ابن عاشور هو : محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المؤذنين المالكيين، ببسة، وأحمد كبار علمائها : مفسر، لغوي، نحوي، أديب، من دائرة الإصلاح الاجتماعي والديني. ولد سنة 1362 هـ في تونس، وله في النسخ 1193 هـ. من آثاره : «البحرين والتفنير».

(9) مجموع المسجدين : 2 / 346.

(10) أنظر : البحر الغد 3 / 147 / 53.
ولكن القرآن الكريم كره تكرار اللفظين في سياق واحد، فجمهء بأحدهما مضغفًا، وبالآخر معدية بالمحززة. وهذا الأسلوب أيضً أسلوب المغالبة بين الكلمات، أو النصفي في التعبير، وهذا الأسلوب لم يزل داب البلاغاء، وفيه من الدلالة على توفر شكل النصفي مالا يخفى، والقرآن الكريم مملوء من ذلك، ومن رام بيان سر لكل ما وقع فيه منه فقد رام ما لا سبيل إليه إلا بالكشف الصحيح والعلم اللفظي، والله يؤدي فضله من يشاء، وسبحان من لا يحيط بأسرار كتابه إلا هو»(1).

2_ اللطيفة الثانية من اللطائف التي اشتمل عليها نظام القرآن الكريم في هذه الآية، الكريمة الإثيان بالنظر في... عليل... وهو من الفاعل به... الكتاب...)، للحصر، أي أنزل عليك الكتاب خاصة؛ وكان موجب هذا الاختصاص إدعو بعضهم أنه يوحي إليه وأنه يقدر على الإثيان مثل هذا الوحي(1)، واصطفاء ضمير الخطاب دون الغيبة ويشار حرف الجر علٍ على... إلى يهدف إلى تعظيم النبي ومؤنسه، والتنويع وهبة شأنه تعالى.

إضافة إلى ما يفيده للفظ علٍ من الاستعلاع؛ فكان هذا القرآن قد تغشاه، يأتي هو وأمي(3).

3_ اللطيفة الثالثة في هذا السياق القرآني، التعبير عن القرآن الكريم باسم الجنس... الكتاب...، وفي هذا التعبير إشارة بأننا في سياق هذا الكتاب، وهو القرآن على بيئة الكتاب السماوية التي أشرت قبله، وما انطوى عليه من مقالات الجنس؛ لأنه هو الحقائق وأن يطلق عليه اسم الكتاب، كما سبق دون ماعد، كما يلوح إليه التصريح باسم التوراة والإخيلة ...(4).

4_ والباء في قوله تعالى: È بالتحقيق È؛ للملابسة، ومعين ملابسة.

---

(1) روح الماني: ٢٦٩.
(2) انظر: نظام الدور: ٤٠٦.
(3) انظر: البحر الأخضر: ١٤٠، روح الماني: ٧٦.
(4) انظر: نظام الدور: ٤٠٦ - ٢٠٧، روح الماني: ٧٥ - ٧٦.
القرآن للحق: اشتماله عليه في جميع ما يشتمل عليه من المعاني (1).

ويحتمل أن تكون الباء للمسبيبة، أي: بسبب إثبات الحق، كما قال أبو حيان
في «البحر» (2)، والأول أرجح.
قوله: «...مصدقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِهِ...».
أي: مصدقًا للكتب السابقة له، وتصديقه إياها: أما أخبرت بمجيئه، ووقوع
المخبر به، يجعل المخبر صادقًا، وجعل السابق بين يديه؛ لأنه يجيء قبله؛ فكأنه
يشي إمامه (3)؛ فكأنه لما كان جامعًا ومحيطًا؛ كان كل كتاب بين يديه، ولم يكُن
من وراءه كتاب... (4).
ولكن ما الحكمة في اصفاء هذا التعبير (5)مصدقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِهِ...»، مع
أنه جاء ناسخًا لأكثر أحكامها؟
ذكر لذلك الإمام «الوازي» تعليًا، فقال: «إذا كانت الكتب مبشرة
بالقرآن، وبالرسل، ودالع على أن أحكامها تثبت إلى حين بعه، وأنا تصغير
مسخوحة عند نزول القرآن؛ كانت موافقة للقرآن؛ فكان القرآن مصدرها، وأما
فما عدا الأحكام، فلاشيبة في أن القرآن مصدر لها؛ لأن دلائل المباحث الإلهية لا
يختلف في ذلك، فهو مصدر لها في الأخبار الورادة في التوراة والإنجيل» (6).
قوله تعالى: «...وأنزل التوراة والإنجيل من قبّل هذى للناس...».
موقع هذه الجملة مما قبلها، معروفة عليها؛ تنميمًا للغرض الأول، وبيانًا
لمقاصده. فبعد أن ذكر الكتب الذي هو القرآن الكريم، وبين أنه تسليمه منه

(2) انظر: البحر المحيط: ۱۵ / ۷۶.
(3) انظر: أنوار النور: ۲ / ۳۵۱; البحر المحيط: ۱ / ۱۴۸; الفتوحات الإلهية: ۱ / ۲۴۱;
روح المعاني: ۳ / ۱۵۸.
(4) انظر: تفسير الكبير: ۱۵۸ / ۷ ع ⁴.
(5) انظر: تفسير النور: ۴ / ۲۰۶.
سماحة: ذكر بعدم الثورة والإنجيل؛ تعبيناً ما بين يديه، وتبناً لرفعة محله بذل... تأكيده لما قبله، وعميمًا لما بعده؛ إذ بذلك يترقب شأن ما صدقته رفعه ونباهة، ويراد في القلوب قبولاً ومياماً، ويتفاوح حال من كفر بما في الشاعة، واستنباً ما سيذكر من العذاب الشديد والانتقام ...

وقد انطوى نظم هذه الجملة على عدد من اللطائف، منها:

١ ٠ أول هذه اللطائف في قوله تعالى: «... وأزل الثورة والإنجيل»، حيث لم يذكر المنزل عليه هنا، بينما ذكره في صدر الآية في قوله: «... أزل علية الكتاب...»، وفي هذا تخصيص للنبي صلى الله عليه وسلم، وتشريف له بالذكر؛ إضافة إلى أن الكلام في الكتابين، لا فيما أذن عليه...

يقول «أبو السعود»: «... وإنما لم يذكر أي من أنزل عليه...».

٢ ٠ ولكن ما السر في ذكر قوله تعالى: «أين قبيل...»، وتقديمه على قوله: «... هدى للناس...»، وما إجابة؟

والجواب: أن ذكر قوله: «أين قبيل...»، وتقديمه على قوله: «... هدى للناس...» للاهتمام بالنظر، والإجابة، والرمز، لكني لا يتعم أن هدي التسوية والإنجيل مستمر بعد نزول القرآن، وفيه إشارة كذلك إلى أن تلك الكتب

(1) انظر: إرشاد العقل السليم: 2 / ٤٤; روح المعمار: 3 / ٧٦.
(2) انظر: إرشاد العقل السليم: 2 / ٤٤; روح المعمار: 3 / ٧٦.
(3) أبو السعود هو: محمد بن عبد بن مصطفى العماري المولى: مفسر، أصولي، شاعر، من فقهاء الحنفية، وعلماء الترك المستعينين، ولد بقرية بالقرب من «القسطنطية» سنة ٩٨٨ هـ، ولازم سعيد حسني، ودرس في بلاد متعددة، ونُجِّل الفضاء في «بروسيا»، فـ«القسطنطية»، وما توفي سنة ٩٢٨ هـ.
من أثاره: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم».
(هيئة المعارف: ٣٥٣/٣; كشف المظاهر: ١/٥; الأعلام: ٥/٧; معجم المرسلين: ٢ / ٢٥٠).
3. واللطيفة الثالثة، التي أشتمل عليها هذا الجزء من الآية الكرمة، في التعرف في (قلما للناسين) في قوله: (قلما للناسين) فقد يكون مراداً به العهد، وهم الناس الذين حوطبا بالكتابين.

إذا ما اشتمل عليه يهودي بك كل من أراد أن يهودي، وقد نجوى وتنصر كثيرة ممّن لم تشملهم دعوة موسى وعيسى - عليهما السلام -، ولا يدخل في هذا العموم الناس الذين دعاهم النبي ﷺ؛ لأن القرآن الكريم، أبطل أحكام الكتابين.

وأما كون شرع من قبلنا شرعاً لنا عند معظم علماء الأصول ففلّك فيما حكاه عنهم القرآن الكريم، ولم ينه عنه أو يحذر، لا فيما يوجد في الكتابين، وعلى هذا فلا يسمى اعتبار الاستغراق بهذا الاعبارة.

4. وأختم الحديث عن هذه الآية بهذه اللطيفة، وهي تعلق بنهاية الآية الثالثة، التي تحق بصدد الحديث عنها، حيث ختمت الآية بكلمة (مّ والأنجِيل)، وكان حقها أن تنتهي بقوله تعالى: (إِنَّ قُلُوْبَ هُذَا لِلنَّاسِ...)؛ لأنها متعلقة بما، مثولًا بالمعنى، محتاجة إلى ذلك، غير أن هذه التكملة الضرورية، كانت من الآية التي تليها، وهي الآية الرابعة، في حين كان حق الآية الرابعة أن تبدأ بقوله تعالى: (وَأُزِّلَتْ الفَرْقَانُ...)، ولكن بسبب من الخلف على أن تكون الآيات متناصقة في طولها، صار إلى ما هو حاصل وثابت في المصحف.

فقال تعالى: (وَأُزِّلَتْ الفَرْقَانُ ...).

الفرقان في الأصل مصدر «فرق»، كالشفران، والكفران، والبهتان، أطلق على الفاعل مبالغة، ثم أطلق على ما يفرق به بين الحق والباطل، قال الحق تبارك...
وعنال: {"...وَمَا أَنْزَلْتَا عَلَى عَبْدِكَ يُومَ الْقِفَايَةَ..."}(1)، وهو يوم بدر.
والمراد بهما:
قيل: إما جنس الكتب الإلهية، عبر عنها بوصف شاملاً لما ذكر منها أول السورة وهو القرآن والتوراة والإنجيل، وما لم يذكر على طريقته التنميم بالتعيم، إثر تصريح بعض مشاهيرها بالذكر، كما في قوله تعالى: {فَأَقْبَلْتَ فِيهَا حَبًّا وَعَبْنًا وَقَضَى وَرَزَّيْتُكَ وَخَلَأَ وَحَدَّيْتَ عَلَيْهِ وَفَأَكِهْتَ وَآيَا} (1).
وقيل: المراد به الكتب السابقة المذكورة نفسها: القرآن، والتوراة، والإنجيل.
أعيد ذكرها بوصف خاص، لم يذكر فيما بسب على طريقته العطاف بتكير لفظ الإزالة تزولاً للغاي للوصفي منزلة التغيير الذاتي، كما في قول الحق تبارك وتعالى: {وَلَمْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ حَيَاً فَأَمَرُّنَا بِنَجْعَةٍ مَّعَ وَجَدَنَّاهُ مَنْ عَذَّبَ} (2).
وقيل: الزبور، فإنه مشتمل على المواضع الفارقة بين الحق والباطل، الداعية إلى الحق والرشاد، الزاهرة عن الشر والفساد وتقدم الإنجيل عليه من أنه نزل متأخراً عنه نزولاً للفيوه مناسبته للسورة في الاستعمال على الأحكام وشرائع، وشيوع اقتراها في الذكر(4).
وقيل: القرآن الكريم نفسه، ذكر بنعت مادح له بعدما ذكر باسم الجنس{...الكتاب...}؛ تعظيماً لنشأته، ورفعاً لمكانه(5).

(1) الأنفال آية: 41.
(2) عيسى الآيات: 27، 28، 29، 30، 31.
(3) هود آية: 68.
(4) انظر: أحوال التنويل: 2 -3؛ إرشاد العقل السليم: 2 / 5 روح المعاني: 33 / 77.
والرأي - والله أعلم - أن الأقوال الثلاثة الأولى فإن كُلُّها فيها نوع وفُجاعة؛ وذلك لدقة تعليلها، وحداثة استنباطها، ولكنها مرجعية، والرحيم هو القول الرابع، الذي يضافدوه إلى جانب التعليل الحسن، الدليل القاطع لكل حجة.

فقال الله سبحانه وتعالى سميته به القرآن في كتابه الكريم فقال: "تبارك الذي تولى القرآن على عبده ليكون لِلَّعَالَمِينَ دِيارًا" (1)؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، وفي وصفه بذلك تفضيله على هدي التوراة والإنجيل؛ لأن التفرقة بين الحق والباطل من أعظم أحوال الهدى؛ ما فيها من البرهان، وإزالة الشبهة؛ إعادة ذكره بعثت مادح له في قوله: "أوَلَّ الْقُرْآنَ..."، بعد قوله: "تولى على الكِتَابِ الَّذِي بِالْحَقِّ..."؛ اهتماماً به، وتعظيمًا لنشأته، ورفعة لمكانه؛ وصول الكلام به في قوله تعالى: "إِنَّ الَّذينِ كَفَّرَوا بِآياتِ اللَّهِ..."، أي بآياته.

وهنا لطيفة انطوي عليها التنظيم القرآني الكريم، تدل على عظمة منزلة كتابنا الكريم، وهي ماتوحي به للفظة «وَأَلْزَلَّ...» في قوله: "وَأَلْزَلَّ الْقُرْآنَ..."، حيث جمع الحق تبارك وتعالى الكتابين: التوراة، والإنجيل في إنزال واحد، واستجد لكتابنا إنزالاً؛ تنبهها على علو رتبته عنهما، بمقدار علو رتبة المتين، الذين هـا هُم...، وبقواهم يكون لهم فرقتان على رتبة الناس، الذين هـا هـا... أي: التوراة والإنجيل - هـدف لهم... (2).

فقال تعالى: "إِنَّ الَّذينِ كَفَّرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ غَنَّاتُ شَيْبَةٌ وَاللَّهُ غَرِيبُ الْيَمِينِ ۔".

لما ختمت الله سبحانه وتعالى أوصاف القرآن الكريم بأنه فرقتان، لا يبدع ليست ولاشتهية إلا أتى عليها، وقام بكشفها وتحليتها؛ ولأن نفس السامع تنطبع إلى معرفة

(1) القرآن آية 1
(2) انظر: نظم الدرر 401 / 120.
عاقبة الذين أنكروا هذا، وكفروا به، استأنف الحق؛ فأخير بما أعد لهم من العذاب فقال: "إِنَّ الْذَّكَرَىَّينَ كَفَّارَوا بَيًااتِ اللَّهِ لَهُمْ عُذَابٌ شَدِيدٌ وَلَوْ غَزِيَّتْ ذَوْ الْيَقَامَ". وقد هدف القرآن الكريم هذا الاستفادة بقوله: "نَزُّلْ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...".

وقد استنعمل هذا النظم البديع جملة من اللطائف منها:

١- اللطيفة الأولى في هذا النظم التأكيد بـ "إِنَّهُ..."، والإظهار في قوله:

«...آيات الله...» موضوع الضمير العائد إلى ما فصل من الكتب المنزلة، أو منها ومن المعجزات، وإنما عدل إلى هذا الأسلوب، لأن الله سبحانه وتعالى أراد تعلق الحكم وهو العذاب الشديد بالوصف وهو الكفر، أي: الستر لما تفضل عليهم به من الآيات (١).

٢- "...آيات الله..."، المراد هم: المشركون، اليهود، والنصارى (٢)؛ لأن جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن، وهو المراد: "آيات الله". هنا؛ لأنه الكتاب الوحيد الذي يصح أن يوصف بأنه آية من آيات الله لأنه معجزة، وعبر في هذا النظم بالموصول "...الذَّكَرَىَّين..."؛ إيجازًا لأن الصلبة وهو الكفر تجمعهم، وكذلك للإيضاء إلى وجه بناء الخبر (٣)، وهذه هي اللطيفة الثانية.

٣- اللطيفة الثالثة من لطائف النظم في هذه الآية الإضافية في قوله:

«...آيات الله...»، واختيار النظم للفظة "...آيات..." دون غيرها من الكلمات، مما يجعلنا نتتبع أن لهذا الاختيار والاصطفاء إجماعًا، يريد أن يقررنا في نفوسنا ونفسه في روعنا، فإذا ما أعلمنا النظر تبين لنا أنه يهدف من وراء ذلك تعيين


٢ قبل المراد هم: اليهود، والنصارى، ولكنه يخص الصلاة بمخصوص؛ وهذا عدل عنه...

٣ انظر: التحرير والمنبر: ٣/١٥٠.
حيثة كفرهم ، وتحويل أمرهم ، وتأكيد استحاقتهم العذاب الشديد ؛ وللإيذان بـ أن ذلك الاستحاق هذا العذاب الشديد ، لا يشترط فيه الكفر بالكل ، بل يكفي فيه الكفر بعض منها ، والإضافة في الآيات للتعظيم ، أي : لتعظيم الآيات(1)

وأحسن إراد العذاب بعد ذكر الفرقان ، وذكر من كذب به ؛ ليشمل الكون في الدنيا نصرة للمؤمنين ؛ استجابة لدعائهم ، وفي الآخيرة تصديقا لقوهم ، وزيادة في سروهم ونعمهم ، وحذراً من نزل حق هذه السورة بسبيهم ، وهم وفد نصارى فخران ، الذين جاؤا النبي صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام.

وقد أردف هذا الجملة حسن آخر جاء من قبّل التفكر في كلمة «مُعَلِّبٌ» الذي أريد به التفخيص ، أي : أي عذاب ، لا يقدر قدره ، ولا يكثب كتهبه ، وهو مناط الخصر المستفيد من تقدم الظروف «..لمَّـهُ..» ، والتعليم بالوصول الذي هو في حكم المشتق يشعر بالсуهلا ، وهو معنى تضمه الشرط ، وترك فيه الفاء لظهوره ، الذي هو بلا شك أبلغ إلا إذا اقتضاه المقام.

قوله تعالى : «..وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو الْقِيَامَ».

هذه الجملة معطوفة على قوله تعالى : «إِنَّ الْذِينَ كَفَّاراً بَيَانِ اللَّهِ» ، وعطفت عليه ؛ لأنها من تكملة الاستنفاذ ، الذي أشارت إليه سابقاً ; يقيس به جميع التبليغ ؛ لشدة عذابهم ؛ إذ هو عذاب عزيز منتقم ...

وإن الإنسان العليم بمواقع الكلم ، والبرصير بقده ، ليقف مشدوهاً مـن تشابه النكات والطائف في هذا النظم ، بل في الكلمة الواحدة منه .

1_ انظر إلى قوله : «..ذَو الْقِيَامَ» ، كيف عبر بكلمة فدود ، الدالة على الملك دون كلمة منتظمة مع اختصارها للإشارة إلى أنه انتقام عن اختياره ؛ لإقامة مصالح العباد ، وليس هو تعالى منظعاً للانتقام بدفاع الطعام والحقق ، تعالى الله.

(1) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢٣ / ٥ ؛ روح المعانى : ٣٨ / ٧٨.
عن ذلك علواً كبيرًا (1).

والعاقبة: العقاب على الاعتداء بغضب؛ ولذلك قيل للكاره: «ناقش». 

وأظهر لنفس الجلالة، بدلاً من الإضرار الذي يقضيه ظاهر النظام، ووصف بالذرة موصولاً بما أفاد من انتقامه الذي أفضلاه عن كماله كثر دو(2)...

التي معمت صحة ودؤام؛ فكان في إشعاره دوام هذا الانتقام، بدوام أمر الكتاب الجامع المقابل علوه لدنو هذا الكفر، وكان في طي إشعار الانتقام أحد قسم إقامة القيويمية في طرف التقدم والرحلة، فقابل هذان الخطابان إنساناً وإلهامًا؛ فإنه ك-cultural
أنزل الكتاب هدى، أنزل متشابًا فئة، فتعادل الإفصاحان والإحاثان، وتم بذلك أمر الدين في هذه السورة بأقرب لفظ وأيسر (3).

وأما أضفى على اللفظ فخامة وحسنًا، التنكر في لفظ (4) دو البِهْجَٰم)،

والجملة (5)... والله غزير ذو البِهْجَٰم) اعتراض تذليلي مقرر للوعيد، ومؤكد له وما يدخل تحت هذا الفصل قوله تعالى: (إن الذين يكُفُّرونَ بِآيات الله ويتَقْتُلونَ النَّاسَ بِأَمْرِهِم فِي السَّيِّةِ فَبِذَٰلِكَ بَعْضًا
أَلََّمُ َوَأَلَْكُمْ َذِئِبًا أَتَعْنَبُونَهُمْ فِي الدَّنَّاَيْهِمْ وَالْأَخْتَرَءَةِ وَمَا لَهُمْ مِن نَاصِرٍينَ) (4).

هاتان الآيتين الكريمتين، استناداً لبيان بعض أحوال اليهود عليهم لنعمة الله، المناقية لإسلام الوَجْه الله سبحانه وتعالى، فالمراد بهذه الصلاة اليهود خاصة؛ لأنهم قد عرفوا بمضمون هذه الصلاة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

والناشئة حريات الجدل مع النصارى، وبعبارة أكثر تفصيلاً وإيضاحاً أنه لما كانت هذه السورة الكريمة منزلة لتبيين ما اشتهى على أهل الإنجيل، حَرَى ذكر أهل...

(1) انظر: التحرير والتنوير: 3/151.
(2) انظر: نظام الدرب: 4/216.
(4) آل عمران آية: 22.
التوراة فيها جمالًا جمعاءً من ذكرهم، لأن تفصيل ذكرهم قد استقره سورة البقرة، فكان أمر أهل التوراة في سورة البقرة بيانًا، وأهل الإنجيل إجمالًا؟ ولما كان ليس أهل التوراة في الكتاب فوقع تفصيل ذكرهم في سورة البقرة، ولما كان اشتباه أمر أهل الإنجيل في شأن الإلهية، كان بيانًا ما تشاهم عليه في هذه السورة، فناء هذا الذكر لأهل التوراة معادلة بينهم وبين أهل الإنجيل، أما كفروا بالآيات من المعنى الذي اشتراكوا فيه، في أمر الإلهية في عزيم، واحتدموا بقتل الأنبياء وقتل أهل الخير الأمين بالفسطاط.

وقبل أن أعرض للطائفين الترتيب في هذين الآتينين سأقف مع قوله تعالى في هـ هذه السورة: (٦٠٠) وَيَقْصُدُونَ الْإِبْنِيَّاتِ يَقْتُلُونَ حَقًّا، لأطرح سؤالًا مفهود: ما الفائدة من التقيد بقوله: (٦٠٠) يُبِيرُ حَقًّا، وما ييحؤ م، مع أن قبائل الأنبياء لا يكون إلا كذلك؟!

والجواب: أنهما كانا قتلهم إياهم بدون شبهة أصلاً، بل خص الكفر والعنداد؛ لأن الأنبياء مب행위ون من أن يكون لأحد قبطهم حق دنيوي، أو آخر، قال تعالى سبحة: (٦٠٠) يَبِيرُ حَقًّا، أي لا صغير، ولا كبير في نفس الأمر، ولا في اعتقادهم.

ففي التعبير هذا القيس إطلاق بيان عظم ذنبهم، وزيادة تشويه فعلهم، من حيث إجم إنا باشروا قتل هؤلاء القدوات؛ ميلاً منهم إلى النظام المحض، لا لأجل حق ثابت في نفس الأمر، ولا في زعمهم الباطل ما يدعوهم إلى القتل(١). وما قبل عن هذه الآية الكريمة يقال عن مثيلاتها من الآيات، كقوله تعالى في السورة نفسها: (٦٠٠) يَقْصُدُونَ الْأَنْبِيَاءِ يَقْتُلُونَ حَقًّا، وقوله في سورة البقرة:

---

"وَيَقْلُونَ الْمُجَّالِبِينَ َبِغْيِّ الْحَقِّ" (١) وقوله في سورة النساء: "وَقَالُواُ الْأَلْبَيْاءُ بِغَيْرِ َحَقِّ" (٢).

ولكن من ينعم النظر في سياق هذه الآيات يرى تباينًا بينها، واختلافًا، ففي الآية التي نحن بصدد الحديث عنها نُكِّرَت لفظة "َحَقَّ..."، وكذلك في الآية الأخرى من السورة نفسها، بينما في سورة البقرة عُرفَت كلمة "َالْحَقَّ..."، واختصاص الآية الثانية التي في آل عمران جمع التكسير في الألفية، بينما أُنتَ في سورة البقرة، والآية الأولى من سورة "آل عمران" جمع مذكر سالم "...الثَّيِّبِينَ..." فما السر في ذلك؟

والجواب: عرف فاغ في سورة "البقرة" ؛ لأن المقصود به الإشارة إلى الحق، الذي أذن الله أن تقتل النفس به، وهو قوله تعالى: "وَلَا تُقْتِلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَوَّلَتْ الْحَقَّ إِلَى الْخَيْرِ..." (٣) ؛ فكان الأول أن يذكر معرفًا؛ لأنه من الله تعالى، ومما في سورة "آل عمران"، و"سورة النساء" نكرة، أي: بغير حق في معتقدهم، وذينهم، فكان التنكر أولى.

وجمع النبيين جميع سلامة في "البقرة" لموافقة ما بعده ممكن جميع السلامة في "...الصَّلِيبَيْنَ..." في قوله: "إِنَّ اللَّهَ أَفْتَنُواَ وَاللَّهُ يَسْتَغْلِبُ الْغَيْبَ وَالْصَّالِبِينَ..." (٤) ؛ وكذلك في هذا الموضع من سورة "آل عمران"؛ لموافقة جميع السلامة في قوله تعالى: "وَلَكَ اللَّهُ خَيْلَ أَعْمَالَهُمْ فِي الْذَّيْنَ الْآخَرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصَرِينَ" (٥) ؛ تخلف الأنباء في السورتين: "آل عمران"،

(١) البقرة آية : ١٠١
(٢) النساء آية : ١٥٥
(٣) الإسراء آية : ٣٣
(٤) البقرة آية : ٦٢
(٥) آل عمران آية : ٢٢
وبعد هذا الذي قلناه في قوله تعالى: ﴿...بغير حقي...﴾، في هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها، وعرفنا سراً اصطفاء هذا النطق وإياعه، والفروع الطيفية التي اشتمل عليها النظام الرباني الكريم، أعود لأقوف مع لطائف هذه الآية الكريمّة، وألذي منها:

1- اللطيفة الأولى في هذه النظم: في إبراز الاسم الأعظم ﴿...الله...﴾، في قوله: ﴿إن الذين يُكفرون بآيات الله ...﴾، إشارة إلى عظيم كفرهم مما أضيف إليه سببًا وتعلًا، وفي ذكره بصيغة التحدّد والحدث ﴿...يُكمرون...﴾ لبيان استمرارهم على الكفر حتى يكونون أنصارًا للدجال في آخر الزمان.

2- وحِي في هذه الصلات بالأفعال المضارة ﴿إن الذين يُكمرون بآيات الله﴾، وُعَطِّلَتْ للَّهِ بِغِيرٍ حقٍ، وُعِطِّلَتْ هُمْ يُؤمرون بِالقَطْسِ مِنَ النَّاسِ...﴾؛ للدلالة على الاستمرار والتمديد بالاعتبار، أن هذه طبيعة في اليهود، فهم قتلوا الكثير من أنبياء الله، ولم يكتفوا بذلك، بل حاولوا قتل الرسول ﷺ، وأمر الشاه المسمومه خير دليل على ذلك، وكذلك للدلالة على استحضار تلك الصورة العجيبة، والخالبة الطيبة...

3- ومن ينعم النظر في قوله تعالى: ﴿...وُعِطِّلَتْ النَّبِيّينَ بِغِيرٍ حقٍّ وُعِطِّلَتْ هُمْ يُؤمرون بِالقَطْسِ مِنَ النَّاسِ...﴾، يرى أن العامل، وهو الفعل ﴿...وُعِطِّلَتْ...﴾. قد تكون، والسبيف في ذلك، للإشارة مما بين القتلّيين من النفاوت، فقتل الأنبياء أعظم من قتل غيرهم من الأولياء والصالحين، وإن كان الجميع عند الله عظيماً، وربما يكون ذلك لاختلافهما في الوقت، أو لتأكيد قبـح.

(1) انظر: أمـراء التكرار في القرآن: 300 - 31 
(2) انظر: التحرير والتدوير: 8/267
ذلك الفعل منهم، وزيادة في لومهم، ولولا ذلك لكان السركيب "...وياَقِتُونَ التَّيَّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ. وَاللَّذينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ"، فالقرآن عندما يورد لفظًا ملأه يورد عبده، وإنما يورد ليفيد فائدة لا تتحقق إلا وهو ما نراه هنالك 1.

2- والإيماء إلى وجه بناء الخبر من صلة الموصول، في قوله: "إِنَّ الْذِّينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقِتَلُونَ التَّيَّينَ بِغَيْرِ حَقِّ وَيَقِتَلُونَ اللَّذينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ..."، هو الإشارة إلى طبيعة العقاب، والانتقام منهم، وذلك في قوله: "...قَبِرُوهُمْ بِغَيْرِ أَيْمٍ".

3- ومن نظر في التعريف في "...اللَّهِ..." من قوله: "...وياَقِتُونَ التَّيَّينَ بِغَيْرِ حَقِّ. وَاللَّذينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ..."، يخيل إليه أن اليهود عليهم لعنًا لله قد قتلوا جميع الأنباء عليهم السلام، ومعلوم أنهم ما قتلوا الكل، ولا النصف، وعلى هذا يحمل التعريف في "...اللَّهِ..." على العهد، لا على الاستغراق.

4- قوله تعالى: "...قَبِرُوهُمْ بِغَيْرِ أَيْمٍ" ألغاه في "...قَبِرُوهُمْ..." واقعة في جوهر الشرط، ودخلت هنا على خبر "إِنَّ" ؛ لأن اسم "إِنَّ"، وهو قوله: "إِنَّ الْذِّينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ..."، وهو موصول تضمن معنى الشرط، إشارة إلى أنه ليس المصصود أساسًا معنيين، بل كل من يتصف بالصحة فجزاؤه أن يعلم أن له عذابًا أليمًا.

والإبّانه هذا الأسلوب أعني استخدام بشرهم بمعن أنذرهم فيه مكفوم ؛ لأن حقية التبشير: الإيحار بما يظهر سرور المخبر، وهو هنا مستعمل في ضد حقيقةُه، إذا أريد به الإيحار يحصوب الاذب، وهو موجب لجزء المخبرين، فهذا الاستعمال في الضد معدود عند علماء البيان من الاستعارة، وتسمى مكفومة؛ لأن تشبيه الضد.

---

2) انظر: التحرير والتنوير: 2 / 206.
بضده休闲 Prev. 1

قال الخطب: «ولعله في التهكمة قوله تعالى: 

...فَبِشَرْهُم مَّعَذَّبٌ أَلِيمٌ»

أي: بدل فأذنرهم (1).

وهذا بواسطة انتزاع شبه التضاد، وإلحظه بشبه التناسب (2).

قوله تعالى: أَوَلَكِ الْذِّينَ حَبَتَ أَعْمَالُهُمْ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ.

(3)

ومناسبة هذه الآية مما قبلها: أنه لما كان الحال رمياً قتضاً أن يقال من بعض المعاني من أهل الضلال: إن هؤلاء القوم أعماله حسنة، واجتهادات في الطاعة بين الله تعالى: أن تلك الأعمال مجرد صور لا معاني لها، مفقودة الأسس الذي تقوم عليه، كما أنهم أيضاً دوايت بغير قلوب، لكي تقع المناسبة بين الأعمال والعاملين (4).

1 - وحسيء باسم الإشارة في قوله: أَوَلَكِ الْذِّينَ حَبَتَ أَعْمَالُهُمْ؟ لآ يؤمن

ثمروا هذه الأفعال التي دلت عليها صلاة النعمة وهو الكفر بآيات الله، وقلت الأثواباً يغبر الحق، وقلت الذين يأمرون بالقسط من الناس، أكمل تميز: ولتنبئه على أهم أحكامها مسيح به عنهم بعد اسم الإشارة، وما فيه من معنى الابتدال، وعلى تراقي أمرهم في الضلال، وبعد مرتين في فطاعة الحال، (5).

2 - وأخير عن اسم الإشارة (أَوَلَكِ...) باسم النوصول (أَوَلَكِ...) بالتأويل، معلومة

بدلاً من الفعل؛ لإفساد الخبر؛ ولأن فعل الفعل صلة بدل على كونها معلومة

للسامع، معروفة عليه. فإذا أخبارهم بالموصول عن اسم، استفاد المحجوب أن ذلك

(1) الإيضاح: 430.
(2) انظر: المفتاح: 375.
(3) انظر: نظم الدور: 301.
(4) نظم الدور: 201، إرشاد العقل السليم: 210، روح المعرفة: 119، التحرير.
(5) والتنوير: 237.
الفعل المعهود المعوب عليه، المعوه، هو منسوب للمخبر عنه بالموضوع، بخلاف الإيحار بالفعل، فإنك تختر المخاطب بصدده عن من أخبرته عنه، ولا يكون ذلك الفعل معوبًا عليه، فإن كان معلومًا عنه جعلته صلة، وأخبرته بالموضوع عن الاسم.

يقول الإمام عبد القاهر عند حدوثه عن الموصول «الذي» وما يمتاز به: «والقول البين في ذلك أن يقال: إنه إذا اجتبت حتى إذا كان قد عرف لجعقصة وأمر جرى له، فنخصص بتلك القصة وبذلك الأمر عند السامع، ثم أريد القصد إليه، ذكر الذي.

تفسير هذا أنك لاتتصل «الذي» الذي إلا لمجلبة من الكلام قد سبق من السمع العلم بما، وأمر قد عرفه له، نحو أن ترى عليه رجالة ينشد شعراً فقول من غد: «ما فعل الرجل الذي كان عندك بالأخس ينشد الشعر؟» (1).

3- «...حَبَّطَ أَعْمَالَهُمْ» الحبو هو الانتفاخ في بطون الإبل من كثرة الأكل فتموت من جراء ذلك، فإطلاقه على إبطال الأعمال تمثل لأن الإبل تأكل الخضر شهوة للشبع، يقول عليها الموت، فشبه حال من عمل الصالحات لدفعها في الآخرة؛ فلم يجد لها أثرًا بالمادية، التي أكلت حتى أحصاها الحبو، ولم تفيد الأعمال بالصالحات؛ لظهور التمثيل، وأسقط ذكر الحياة؛ إشارة إلى أنه لاحياء لها في واحدة من الدارين، وأشار تأثيث الفعل «...حَبَّطَ...» إلى ضعف هذه الأعمال من أصلها (2).

4- ولكن لم جمع الناس في قوله: «...وَمَا أَلَهُمْ مِنَ النَّاصِرِين» وما إيجابوه. جمع الناس لرعاية ما وقع في مقابلته، لا لنفي تعدد الأنصار لكل واحد منهم، والمراد من انتفاء الناصرين، انتفاء ما يرتبط على النصر من المنافق والفوائد، وإذا

(1) دلائل الإعجاز: 200.
انتفت من الجمع، فاتناًبهما مسْنُ الواحد الأولى؛ إضافة إلى ذلك أن لَفسَظْ:
(1.1) تَقَرِّرٍ ومع فاصلة، ولا يد وفق مقابل ما للمؤمنين من الشفعاء الذين هم: الملائكة، والنبين، والشهداء، أي: ليس لهم مثل هؤلاء.
وَجِيِّهٍ بِهِ فَمِنْ ... الدالة على تنسيق العموم، فلا يترك لهم مدحلاً إلى التأويل.
(1.1.1) وَمَا يَدْخِل كَذَلِكُ فِي وَلَهَّ تَعَالَى: لَا يَتَخَذُّ المُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوَلَىَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ مَمَّا يَفْعَلُ ذُلْكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ قُوَّنَ فِي تَقَاةِ وَيُحْذِرُ كَمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَأَلَّا اللَّهُ المُصْبِرُ.
(1.1.2) هذه الآية الكريمة استناداً عقبه الرواية المتقدمة، وذلك أنه تعالى لما ذكر مل
يجب أن يكون المؤمن عليه من تعظيم الله تعالى والثناء عليه بالفعل الذي يختص به، ذلك ما يجب على المؤمن من معاملة الخلق، وكانت الآيات التي قبل ذلك: اعتداء من قوله تعالى: إنَّ الْذِّينَ كَفَّارُهُمْ أَنْ تُعَفُّنِي عَنْهُمْ... في الكافر، والمضمنة عداء المشركين للإسلام وأهله، وحسب اليهود لهم، وتوليهم عنه؛ فالمماسية أن هذه الآية، كنتيجة لما تقدمها.
فأيَّلِهُ سَبِيحانه تعالى نَفْسَهُ المؤمنين: بعد مابين هم يغيب المعاصرين وإعراضهم أن يتخذوا الكفار أولياء من دون المؤمنين؛ لأن اتعادوا أولياء بعد أن سفه الآخرون دينهم، وسفهوا أحوالهم في اتباعه اعد ضعفاً في الدين وتصوياً للمعتدين.
(1.2) أنظر: البحر المحيط: 3؛ 209/2، روح المعاصر: 3/37-78، إرشاد العقل السليم: 2/20، الخريذ والندير: 3/308.
(2) آل عمران آية: 28.
(3) آل عمران آية: 10.
وهنا لابد من بيان، أنه شاع في اصطلاح كتابنا المنزل إطلاق وصف الكفر على الشرك والكافرين، والذين كفروا على المشركين، ولعل تعليق النهي على الاختلاف بالكافرين هذا المعنى هنا؛ لأن المشركين هم الذين كان بينهم وبين المهاجرين صلات وأنساب، ومودات، وخلافات مالية، فكانوا بمثابة الموالاة مع بعضهم، وقد علم كل سامع أن من يشبه المشركين في موقفهم تجاه الإسلام، يكون تولي المؤمنين، كنوبهم للمشركين، وقد يكون المراد بالكافرين جميع المخالفين في الدين؛ مثل قوله تعالى: "وَمَن يَكَفُّرُ بَٰيَاتَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الَّتِي حِسَابُهُمْ"، فنذكَّرِ قَبْلَ: إن الآية نزلت في حاطب بن بلعة، وكان من أفاضل المهاجرين، وخلص المؤمنين، إلا أنه تأول، فكتب كتابًا إلى فريش بتعليمهم بتجهيز النبي لفتح مكة، وقيل: إنها نزلت في عبادة بن الصامت، وكان له حلفاء من اليهود، ففي يوم الأحزاب، قال: يا النبي الله، إن معي خمسة من اليهود فنزلت هذه الآية، وقيل: نزلت في قوم من المسلمين جاءهم قوم من اليهود ليفتنوه عن دينهم، فقال رفاعة: ابن المنذر وجعافر بن حرب وسعد بن خيثمة رضي الله عنهم لأولئك الففراء المسلمين: احتجوا هؤلاء اليهود، واحذروا أن يفتنوكم عن دينكم، فنزلت هذه الآية.

وبعد الوقوف على معنى الآية، وأسباب نزولها، نفى مرة أخرى مع كلمة «فَنَفَّسَهُمْ» في الآية الكريمة، والسهر في اصطفاء هذا الكلمة، وإيجادها، وظلالها.

وأما الأمر في هذه الحالة متروكًا للضمائر، ولقوى القلوب، وخشيتها من علام الغيبان؛ فقد تضمن التحذير تخليد المؤمنين من نقمة الله وغضبه في صورة...

---

(1) آل عمران آية: 19.
(2) إنظر: أسباب النزول، للواحد: 561؛ التفسير الكبير: 10، 11؛ البحر الغيظ: 3.
(3) التحرير والتذكار: 61، 66.

70
عجيحة من التعبير "...وَبِحَدْرِكَ مَنْ لَنَعْلُمَنَّهُ إِلَّا اللَّهُ الْمَحْمَدُ..."، وقد جعل التحذير هنا من نفس الله، أي: ذاته؛ ليكون أعم في الأحوال؛ لأنه لو قول: بحذركم الله غضبه، لتوهم أن هدا رضا لا يضير معه تعبد خالفته أو أمره، والعرب إذا أرادوا تعليم أحوال الذات، علقت الحكم بالذات، ولهذا التحذير من التنهديد مالا يخفى عظمه(1).

وكرر: "...وَبِحَدْرِكَ مَنْ لَنَعْلُمَنَّهُ إِلَّا اللَّهُ الْمَحْمَدُ..." ؛ لأن الأول... وهو الذي خن بصدد الحديث عنه... في سياق الوعيد، قوله: "...فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ..."، والثاني في سياق حذر التفويت للخيار؛ ولذلك خصه يقوله: "...وَلَنَعْلُمَنَّهُ إِلَّا اللَّهُ رَحْمَةً بِعَبْدِهِ"(2).

٣ - والإبنان بالطرف "...مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ..."؛ للإشارة إلى أن الحقيق المولى هم المؤمنون، وفي موالاتهم مندوبة على مولاة الكفار، وكون هذه النكتة تقتضي أن يقال: مع وجود المؤمنين دون من دون المؤمنين، في حيز المنع، وكونه إشارة إلى أن ولايتهم لا تجامع ولاية المؤمنين في غاية الخنا....(3).

٤ - والتعبير بالفعل في قوله: "...وَمَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ..."، أي: اتخاذ الكفار أولياء؛ للاختصاص؛ ولإنهاء الاستهجان بذكره(4).

٥ - وفي قوله: "...فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ..."، إيجاز بالخذف، حيث حذف المضاف، وتقديره: أي: فليس من ولاية الله، أو من دينه، أو من عبادته، أو من حزبه، وهذا الإيجاز للمبالغة في التحويض والتهديد(5).

______________________________
(1) التحرير والتنوير: ٢٢١ / ٣٠.
(2) آل عمران آية: ٣٠٠.
(3) أنظر: كشف العاني: ١٦٧.
(4) روح العاني: ١٤٠ / ١٢٠ – ١٢١.
(5) أنظر: إرشاد العقل السليم: ٢ / ٣٣؛ روح العاني: ١٢١ / ٣٠.
(6) إرشاد العقل السليم: ٢ / ٣٠.
والتفكير في {...شيء...} ؛ للتحقيق، أي: ليس شيء يصح أن يطلق عليه اسم الولاية أو الدين؛ لأن موالة المتضادين مما لا تكاد تدخل حيّمة الواقع، وجعله...
فلئن Qin اللّه في شيء...} اعتراض (1).

(1) والعدل من الغيبة في قوله: {لَا يَتَّخِذَ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ...} إلى الخطور في قوله تعالى: {إِذَا أَنَّهُمْ قَوْمٌ ثَاقِبٌ}، إنفقات، ولو جرى على سنّ العلم الأول لقال: {إِنَّهُمْ قَوْمٌ ثَاقِبٌ} بالباء، وللأنفقات هنا سر كأنه أخذ السحر، وذلك أن موالة الكافر والأعداء، وكل من يتآمر على سلامة الأوطان لما كان أمري مستمستحا مستقبحا، ينكره الطيب، لم يواجه الله عبادة بخطابته، بل جاء به في كلام أض لنف المهي يفّي، ولما كانت الخالمة في الظاهر، والمحاسنة جائزة لاعترض، وهو انتقاء شرهم، حسن الإقبال إليهم، وخطابه برفع الحرق عليهم في ذلك.

وفائدة التأكيد بالفعل المطلق هنا {...ثِقَاءٌ...} الإشارة إلى تحقق كون الحالة حادثة، وهذه التفية مثل الحال التي كان عليها المتضاعفين من المؤمنين، الذين لم يجدوا سبيلا للهجرة (2).

قوله تعالى: {...وَأَلَّلِي اللَّهِ التَّمْصِيرُ}.

المصير: هو الرجوع، وأريد به في هذه الآية البحث بعد الموت.

1- وقد علم مثبتو البحث أنه لا يكون إلا إلى الله سبحانه وتعالى، فعلى هذا يكون التقدم في قوله: {...وَأَلَّلِي اللَّهِ...} يفيد الحصر.

2- وإظهار لفظ الخالدة {...اللَّهُ...} في قوله: {...وَأَلَّلِي اللَّهِ التَّمْصِيرُ} في موضوع الإضمار؛ لتروية المهابة، وإدخال

(1) انظر: روح المعاني: 121 / 3.
(2) انظر: البحرين المحيط: 93 / 64 ؛ الدور المصور: 2 / 30 ؛ إرشاد العقل السليم: 2 / 27 ؛ روح النفع: 121 / 3.
(3) انظر: التحرير والتحوُّر: 221 / 3.
الروحـة.

(1) الجملة: "وَإِلَّهُ الْمُصِيرُ" تدل على مقرر لمضمون ما قبله، وحقـلاً لوقوعه حتماً.

(2) وما يدخل تحت هذا الفصل قول الحق بابكر وتعالى: "مَثَلُ من يَتَفَقُّونَ فِي هَذِهِ

(3) الأَجْلَاءِ الْدِّينِيَّةِ كَمَثْلِ رِيحِ فِي هَيَا صَبْرٍ أَصِبْتُ حُرُثَ قَوْمٍ ظَلَّوْا أَفْسَهُمْ فَأَهَلَّكَهُمْ وَمَا

(4) ظَلَّمُهُمْ وَلَا كَانَ أَفْسَهُمْ يَظْلَمُونَ.

(5) ولمَّا كان قوله تعالى: "فَإِنَّ الْذِّينَ كَفَرُوا أَنْ تُغْلِبُوهُمْ أوْ أَوَلَادُهُمْ وَلَا أَوَلَادُهُمْ مِنَ اللَّهٍ شَيْءًا وَأَوْلَٰٰكَ أَصْحَابُ

(6) الْقَارِئُ هُمْ فِي هَيَا خَالِدُونَ"، يثير سؤال سائل عن إتفاقهم الأمور في الخبر مـن إثاثنة

(7) الملهوف، وإعطاء الدفاتي في الصلح من القتلى، استأنف الحق بابكر وتعمال مبيناً

(8) ذلك، فضِرب فـي ذلك مثالاً، فقال: "مَثَلُ مَا يَتَفَقُّونَ فِي هَذِهِ الْحَيَةِ الْدِّينَيَّةِ...").

(9) فمثل ما يتفقون في كونه لم يتفهم في الدنيا، بِإِنْتِجَا مَا أَرَادُوا فِي الدُّنْيَا، وضَرَّهُم

(10) في الدارين. أما في الدنيا فيضاعف في غير شيء، وأما في الآخرة فإنها خاصة عليهُ،

(11) لتصبِّح أساسه، وقصدهم الفاسد به، مثل الزرع الوصيف ؛ فإنه لم يتفهم أهلـه

(12) الموصوفين، بل ضرهم في الدنيا بضياعه، وفي الآخرة بما قصدوا به مـن المقصود

(13) المقصود، ومثل إنفاقهم له في كونه ضرهم، ولم يتفهم مثل الريح في كونها ضـرت

(14) الزرع ولم تتفهم، فلما كانت الريح الوصوفة أمرًا مشاهداً جلياً، جعلت في إهلاكها

(15) مثلًا لضياع إنفاقهم الذي هو أمر معين خفي، ولما كان السـرّ العـتبر أمرًا

(16) محسوسًا، جعل فيما حصل له بعد التعبد من العطب مثلًا لأمر معقول، وهو أمواجـهم

(17) في كون إنفاقهم إياها لم ينبح لهم شيئًا غير الخسارة والتعب .

(1) انظر: إرشاد العقل السليم: 2 / 33 ، روح المعاني: 166. 3

(2) آل عمران آية: 117.

(3) آل عمران آية: 116.
1- وهذا التشبيه مشابه معقول خسوس، وما كان تميليًا؛ لم يتوخ فيه مناسبة ما شبه به إنفاقهم لأداب التشبيه، فقال: «...كمالٌ ريح...»، ولم يقول: «كميل حرت قوم».

2- وجيء يقوله تعالى: «فما تتعفون...» غير متعطى على ما قبله؛ لأنه كما أسلفنا كاليبان لقوله: «...شيئًا عنهم أقوأ أهلهم...»، فالفصل هنا لكمال الاتصال.

3- والإشارة بقوله: «...في هذه الحياة الدنيا...» لتحقير خط الملال، وهو الحياة الدنيا؛ لأن ذلك إذا حرت الخط؛ حرت المال المنفوق.

ومن ينعم النظر في أخطاب الرببان يرى بأنه قد أفرد لفظ «...ريح...»، هنالك في هذا السياق، بينما جاءت جميعاً في سياقات أخرى من هذا الكتاب العزيز، ولذا بيدعو يحسن من قرأ هذا الخطاب، أو ألقى السمع وهو شهيد...

فالقرآن الكريم يرح جريء إفراد ريح العذاب، وجمع رياح الرحمة، كما في هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: "ولَيَفْتَنَّكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ لِتَصَلَّبَنَّكُمْ مَعْصِرًا أَنْ تُظَلِّلُوا مِنْ بَعْدِهِ يُكَفَّرُونَ" (1)، وقوله تعالى: "اللهُمَّ اجعِلْهَا رِياحَةً، ولا تجَعْلِهَا رُيحَةً" (2).

وبسبب جمع الرياح النافعة، وإفراد ريح العذاب، أن رياح الرحمة مختلفة الصفات، والمهات، والمنافع، فهي لواقع، وهي يشري، وهي تقل السحاب التقليل.

(1) الروم آية 51

(2) جاء هذا الحديث عن عدد من الصحابة - رضوان الله عليهم - فقد جاء عن أبي بن كعب، الذي رواه الهمداني في سنة برم (324) في الفقه، باب: ما جاء في الله من صبي الريح، ورجاله، في عمل اليوم والليلة برم (324)؛ وعبد الله بن الإمام أحمد من زوائد المسند، برم (1689)؛ وعبد بن عبيد بن المجد، برم (167)؛ وأبي بن مسند، برم (242)، والطحاوي في مشكل الآثار، برم (918).

وقال النرويمي: حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشايين، ولم يخرجه.

والخلاصة أن هذا الحديث: صحيح.

74
وتشيره ، حيث يشاء الله ، وإذا هاجت منها ريح ، أثير لها من مقابلها ريح مضادة تخفف من قوتها ، وتتبط من هيجاتها ، فينشأ من بينها ريح لطيفة تنقع الحيوان والنبات ؛ وهذا السبب عبر في الرحمة بالرباح جمعاً.

وريح العذاب تعب من مهبه واحد لا معارض لها ؛ ولذا فهي تلك وتتدمر كـل شيء يأمر بها ، كما قال الرسول ﷺ في سجاعة: «ندمَكَ rek شَيْءًا يأمِرُ resh رَبَّهَا فَأصْحَبَوا لَـهَا يُبْرِي إذا مُسَأَّكُونَ كَذَٰلِكَ يَنْجِي القُوَّمَ الْمُجَرِّمِينَ» (1) ، أي: تأتي على كل شيء.

هذا هو سر الإفراد (2).

قد يقول قائل: هذا كلام حسن وجميل ، ولكن أين أنتم من قول الله تعالى في سورة «يونس»: «هو الذي يسيركم في اليرموكَ وليلجَح حتى إذا كنتَ في الفلكينِ وجرحيَّ بنهم يريح طيبة وفرحوا بهُا جاعتهُا ريح عاصفة وأجاعهم ألموَج من كُل مكان...» (3).

فلو نظرنا لكلمة «...ريح...» الأولى ، لوجدناها مفردة ، وهي ريح رحمة ؟

والإجابة على ذلك نقول: إن كلمة «...ريح...» جاءت مفردة هنا لسببين: لفظي ، ومعنوي.

1 - فاللفظي؛ لتقابل ريح الرحمة ريح العذاب في الآية نفسها في قوله: «...جاجاهُا ريح عاصفة...» ، فرب شيء يجوز في المقابلة ، ولا يجوز استقبالاً ، وهكذا تفعل العرب في كلامها.

2 - والمعنى؛ أن تمام الرحمة في الفلك ، تكون بوحدة الريح ، لا بالاختلاف فيها وتفريقها ؛ فإن السفن لاتجري إلا بريح تعب من جهة واحدة ، فإن اختفت عليها المهاب كان الهلاك . فالرحمة في هذا المقام في وحدة الريح ؛ ولذا أفردت ووصفـت

(1) الأحقاف آية : 25.
(2) انظر : التفسير الكبير : 134 / 43 حاشية الشيخ زاده : 4 / 33.
(3) يونس آية : 22.

75
بالطيب.

و على هذا يحمل قوله تعالى في سورة ص: "فسخرجنا الله الريح تجري بفخار رحى حديث أصبا" (1)، فهو أداة من جهة واحدة، هو الذي يحقق الغاية من التسخير، ولو اختلفت المهاب لم تتحقق الغاية من التسخير؛ ولها أفراد، وعليه قوله تعالى: "إن ينشئ الريح فقيظن رواك عند ظهره إن في ذلك آيات لك كل شيء صبور شكور" (2)...

والمتبوع لنظم هذا الآية، يعجب أشد الإعجاب بما يرى من ذلك التناسق البديع بين هذه المعاني والألفاظ، التي اختارت لوصف هذا الواقع، وتحسيده واقعًا حيًا "يقبض بالحركة، ويفيض بالحياة على طريقة التعبير القرآني الجميل...

إذا نظر، فإن هذا حقل تمياً بالإخصاب، فهو حرب، ثم إذا العاصفة قبب؛ فإنها عاصفة باردة تلقيها موجة، تتحرك هذا الحرب بما فيها من "صوت"(3)، واللفظة ذاكها كأنها مفرد يلمع يعنف؛ فصوور معناه جبر النفاذ، وإذا الحرب كله مدمر خراب.

إذا حيئة يتم فيها كل شيء؛ يتم فيها الدمار والهلاك. وإذا الحرب كله يباب، ذلك مثل ما ينطق الذين كفروا في هذه الدنيا، ولو كان في ظاهره الخير والبر، ومثل ما يبديهم من نعم الأموال والأولاد كلها إلى هلاك وفمنه دون ما متع حقيقة أو جزاء "(4).

فكلمة "صوته"(5)، لها إيقاعها، وإيحاؤها، وظلالها، في هذا النظم، والذي لايمكن أن تؤدي أي كلمة أو لفظة.

(1) ص آية 36
(2) الشمري آية 33
(3) انظر: البرهان 4/ 10 - 11؛ الإتفاق: 100/ 2.
والقرآن كما أسفلت يمتاز على غيره براء لفظه، وتدفق مائه، فدلا ينشب معينه، ولا تأتي على مضامينه، وإنك عندما تقرأ لأحد المعسرين تحسب أنه أتسى على كل ما يمكن أن يقال في آية من الآيات، فإذا ذهبت لأجر الفيده قد وقى، وإذا ذهبت لثاث وحده وقوى، وهذا يدل على إعجاز هذا النظم. أضف إلى ذلك أن النكات البلاغية لا تتراحم، فاللفظة قد يكون فيها أكثر من نكتة، وهذا ما نراه في كلمة «...فيه صبر...»، التي جاءت لتدعي أعراضًا غير ما ذكر.

1. فمن اللطائف التي أورح بها هذا اللفظة «...فيه صبر...» التنسيم، وهو أن يبتى في كلام لا يوفر خلاف المقصود بفضلة تفعيد نكتة.

فهذه اللفظة أفادت المبالغة، كما أفادت التحسيد والتشخيص، كما تقول بردى بارى، وليلة ليلاء.

وقيد «...صبر...» بالظرف «...فيه...»، وذلك لأن كل مقصد ظرف متعلقه، لأن المطلق بعض المراد، فحصل التحسيد والتشخيص، أي: كان الصبر مظروباً في هذه الراوي، فهي تجعله إلى الحرف.

2. ومن اللطائف كذلك الاحتكاك، حيث حذف أولاً مثل الإتفاق، لدلالة الريح عليه، وثانياً الحرف لدلالة ما يتفق عليه، وهذا المعنى ضرب من الإيجاز قل من يفطن له.

ومادم الكلام في هذا الفصل عن الألفاظ، والسـر في أصفاتها في بعض المواضع من الآيات الكريمة، والذي يستتبع حدث من ظلالها وإيضاحها أحيانًا بالضرورة راغبًا للحديث عن كلمة «...ظلموا أفْسَهُمْ...»، والسـر في أصفاتها هذا اللفظ بعد قوله: «...أصابت حُرُثُ قَوْمٍ...»، ومـمَّ لـم يقتصر عليه؟

---

(1) انظر: الإيضاح 313.
(2) انظر: نظام الدرر 56.
ويمكن الإجابة عن هذا التساؤل، بأن الإتيان يقوله: "...ظلموا أتوفسُمهم فدومًا..." إدماج من خلال التمثيل، وهو يكسب التمثيل تفظيعًا وتشويهًا، وليس جزءًا من الهيئة المشهية بما. فالبلاغاء قد يذكرون للمشبه به صفات لا يقصدون منها غير التحسين والتقيح.

كقول زهير بن أبي سلمى:

صاح بأنْبَطَ أَضْحَى وَهُوَ مَشْعُول
ثنَى الْرَّيْاحُ الْقَدِّى عَنْهَا وَأَفْرَطُهُ
فهُمُوهُ هنا كما ترى أخرى على الماء، الذي هو جزء من المشبه به صفات لا أثر لها في التشبيه، ولكنها تزيده قوة إلى قوته.

وما زالت الرحلة موصولة مع هذه الآية الكريمة، أنثيناً ظلال رياضها الغناء، منتقلاً فيها من فن إلى فن، باحثًا بين حياها ما يروي نفسه عطشى، لكل بديعة أو لطيفة، وبعد أن ينظر بما، يقف نشوان، يبدع يأخذ بيفافمه عنان السماء.

قلوه تعالى: "...وما ظلمهم الله ولكن أتوفسُمهم يظلمونَ».

حاثة هذه الآية حثة بديعة، وهذا دأب القرآن الكريم، الذي يراعي حسن الخاتم، كما يراعي جودة البلاء، وخواص الآيات يلحظ عليها أنه تقرر ما سبق قبلاً من حكم وأحكام، فنلفظ هنا أن الحق تبارك وتعالى يعلن أنه لم يظلم الذين كفروا، حين لم يبقون منهم نفعاً م، بل هم تسبوا في ذلك؛ إذ لم يؤمنوا؛ لأن الإيمان جعله الله شرطا في قبول الأعمال، فمن أعلمهم بذلك، وأنذرهم لم يكن عاقباه بعد ذلك ظلمًا، وفي هذا إذن بأن الله لا يخفف وعده من نفي الظلم عن نفسه...

وقد اشتمل نظم هذه الحائرة على حملة من دقائق التعبير القرآني:

(1) البيت من { السبتي }، وهو في ديوان زهير: 126.
1- فمن ذلك تقدم المفعول {»ألَّسْهُمْ...»} على {»يُظْلِمُونَ»}؛
والذي يفيد الاهتمام، ورعاية الفاعلة، وليس الخصر (1)، وإلى هذا ذهب كل من
أبي السعود»، و»الألوسي»؛ لأن الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا
بالمفعول، أي: ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم (2).

2- والتعبير بالفعل المضارع {»يُظْلِمُونَ» للدلالة على التجد والحدث.
و {»يُظْلِمُونَ»} خبر، والخاد من الجملة الخبرية على الاسم، محذوف،
تقديره: ولكن أنفسهم يظلمونها، فذبح، وحسن حذفه لكون الفعل وقع فاعلة
فليذكر مفعول لهفات هذا الغرض.

أحتم الحديث عن هذه الآية الكريم بعقد مقارنة بين حثت هذا الآية وهو قوله:
{»ومَا ظلَّمُهُمُ اللَّهُ وَلَكُنَّ أَنْفُسَهُمْ يُظْلِمُونَ»}، وقوله تعالى في سورة
»النحل»: {»وَمَا ظلَّمُهُمُ اللَّهُ وَلَكُنَّ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يُظْلِمُونَ»}، حيث وردت
كان الناقصة في آية النحل، ولم تأت في آية «آل عمران» مع اتخاذ المعني والمقصود
في الآتيين لاجتماع المذكورين في ظلم أنفسهم، مما يجعل المتأمل لنظم هاتين الآتيتين
يفكر ويتを与え، ويوقن بأن ذكر «كان» في آية «النحل» وخلافها في آية «آل
عمران» له إتباع وظلال يjis به من أجهد الحسن؟

ويمكن بيان هذا بأن آية «آل عمران» إنما نزلت في المعاصرين لبني الحرام بِحَبَّ
هو وأمي {»؟ فورد الإيحار مساوًّا حاذا في وقت نزول الآية ومايلي ذلك متصلاً
به من الزمان، فلم يكن لدخول كان التي تقتضي وقوع الشيء فيما سلف من الزمن
معين تؤديه.

(2) انظر: إرشاد العقل السليم: 2 / 75، روح المعاني: 4 / 37.
(3) النحل آية: 33.
وأما آية «النحل» فقال: «...كنتم فاعل الدين من قبلهم» (1)، ثم قال: «...وما ظلمتم ...الله ...»، فالإلايخار عن هؤلاء السابقين المشهورهم من بعدهم من معاصرة النبي، فأحرزت كأنه أحسى، ولم يجلب لمثواه، ولم تكن للازم آية «آل عمران» ولا الورد في آية «آل عمران» لنسامب ما قصد في آية النحل، فجاء كل على معا ...يب (2).

وأما يندرج تحت هذا الفصل قوله تعالى: «ورأى عدوت من أهل تلك بآؤى المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليهم إذ هم طائفتان ينكيم أن تفشلا والله وليهما وعليه الله فلتأيكون المؤمنون» (3).

روى أن المشركون نزلوا بأحد يوم الأربعاء، فاستشار النبي أصحابه رضوان الله عليهم، ودعوا عبد الله بن أبي بن سلول، ولم يدعهم قبلهم؟ فاستشاره، فقال عبد الله وأكثر الأنصار ياء رسول الله، أقم بالمدينة، ولاتخرج إليهم، فوالله ما خرجمها منها إلى عدو قبل إن أصابنا، ولا دخلها علينا إلا أصبتنا منه، فكيف وقنت فينها فذعمهم، فإن أقاموا بشر محسوس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوهم، ورماهم النساء والصبيان بالحجاره، وإن رجعوا رجعوا خائين، وقال بعضهم: يا رسول الله اخرج لنا إلى هؤلاء الأكلب، لا برونا قد جينا عنهم، فقال رسول الله: إن قدم رأيت في منامي بقرأ، مذبحة حبي، فأتتها خيرا، ورأيت في ذبابة صفيث، فأتتها هزيمة، ورأيت كأنني أدخلت يدي في درع، حصنية، فأتتها المدينة، فإن رأيت أن تقيموا بالمدينة، وتدعوه، فقال رجال من المسلمين قصد فاتتهم بدر وأكرهم الله بالشهادة يوم أحد؛ اخرج لنا إلى أعدائنا، فلما رأوا به، جن دحل...

(1) النحل آية: 33.
(2) أنظر: ملاك التأويل: 313، وأسرار التكرار في القرآن: 27_27.
(3) آل عمران آية: 141، 122.
فليس لأمه، فلما رأوه قال ليس لأمه ندموا، وقالوا ببسمنا نشير على رسول الله ﷺ، والوحى إليه، وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت، فقال: لا ينبغي لني أن يلبس لأمه، فوضعتهم حين يقول، فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة، وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت لنصف من شوال، فمشى على رجاليه، فجعل يصف أصحابه للقتل كأنما يقوم هم القذاب، وكان نزوله في عدوى الموادي، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد. وانكسفت الحرب عن هزيمة خنقية حقت بالمسلمين بسبب مكيدة ابن سلول رأس المناقفين إذ أخرج حمود وثلاثة أشيء، وكان عدد جيش المسلمين سبعمائة، وعدد جيش أهل مكة ثلاثة آلاف، وهم بذل سلامة وبنو حارثة من المسلمين بالانزواء، ثم عصمهم الله، فقال نزله تعالى: "إذ هم الذين فتحتم أن تفتنوا وآله وتورث وعليهم الله فلتوكلون"، أي: ناصرهم من ذلك الهم الشيطاني، الذي لو صار عزاً لكان سبب شقائهما.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أها من أوضح مظاهر كيد الخالفين في الدين من الكافرين والمنافقين، ولما كان شأن المناقفين من اليهود وأهل بُني إسرائيل ودخيلهم سواء، وكانوا يعملون على ما تدوره اليهود جمع الله مكائد الفريقين بذكر غزوة أحد.

ومادام الكلام موضوعاً عن اللفظة المفردة، فالوقفة هنا ستكون عند كلمة...

١_ والمقاعد: جمع مقدس، وهو مكان القعود، وإضافة مقاعد في هذا السياق.

للقليل... قريبة على أنه أطلق على المواضع اللاحقة بالقليل، التي بثت فيها الجيش، ولا ينقل عنها؛ لأنه لائقة بمحركاته، فأطلق المقاعد هنا على مواضيع القرار كنابية، أو مجازًا مرسلاً بعلاقة الإطلاق، وعاش ذلك حتى في الكلام حتى سواه المرق والمكن.

2- والأخلاق القرآن الكريم، كما قلنا مرارًا وتكرارًا تأتي في المكان الأعلى من الفصحاء، وخبر دليل على هذا كلمة (مقاعد...)، التي لا يكاد يأتي بها شاعر في قصيدته أو نثره في خطبه، وإلا كانت نشأها فيما، ومع ذلك أُسَت في هذا السياق الرمزي أضافت عليه رونقاً وفخراً، وحسناً وجمالاً، تجار فيه العقول والألباب، وعليها يقاس غيرها.

ولكي لا يكون الكلام دعوى تنقصها البيئة، نقف مع شاعر فحل من شعراء العربية، ذلكل هو (الشيروق الوضي) (1)، الذي روى ألقاظ اللغة؛ فأصبحت طوع أمره يصرفها كيف يشاء، ولكنه أمام هذه الكلمة (مقاعد...). أعلمن عنجزه، وشكا عجزه وتجربة، وجرى على نقص يسبيها؛ إذ قال في رحاء أبي إسحاق الصباري (2):

(1) هو: أبو الحسن، محمد بن الحسن بن موسى بن محمد العلوي الحسيني، الشايروق الوضي، الشاعر الوضي، أبو، شاعر، إمام معتنئ، كان أشهر الطالبين على كثرة المغنين فيهم، نظم في المجد والفخر، وشكون الزماني والرثاء والزغ وإلواح، وله وثني في بغداد، ولا الخلية الطلاخ نقايا الطالبين في حياة الدف، وخلع عليه بوسواعد واستعان سنة 400، فأغنى، ثم أعيد سنة 403 هـ، من آثاره: «تلخيص البيان في مجازات القرآن».

(2) هو: أبو إسحاق، إبراهيم بن هلال الصبيء الخزائي، أبيه بلغ، صاحب التراث البديع، حرص عليه جمعة من بس، فألقى، وكان يصوم رمضان، ويحفظ القرآن، وذلك لاحجه إلهي في الإنشاء، له نظم رائف، وله وما في ضد الدولة هم بقتل وسجنه، ثم أطلقه في سنة 376 هـ، فألف له كتاب الناحي. ومات سنة 384 هـ مقتولاً.

(المصادر: 193؛ السير: 130؛ الوفيات: 252/300؛ الوفيات: 6/357)
أغزر علی بن أرئک وقِد خُلأ عن جانبیک مقاعد العواد.

فقد ذكر ابن سنا ان الخماجی هذا البيت في كتابه सुर الفصاح‌ة،
حيث بين أن إبراد مقاعد في هذا البيت صحيح إلا أنه مخالف لما يكره
ذكره في مثل هذا الشعر، لاسيما وقد أضافه إلى من يحمل إضافته
إله، وهم العواد، ولو انفرد لكان الأمر سهلاً أما الإضافة إلى من ذكر
ففيها قبح لا
خفاء به.

وبين ابن الأثير في المثل السائر أن هذه اللفظة في...
...
مقاعد...

جاءت في القرآن في هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها، وفي قوله: وآلا كُن
تقدعْ مَثْقَالَ لِلسَّمِّ ومثل هذه الحسن بقوله: ألا
ترى أنه في هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقيح إضافته إله، كما جاء في الشعر،
ولو قال الشاعر بدلاً من مقاعد العواد مقاعد الزیارة، أو ماجرى
مجره، لذهب ذلك القبح، وثالث تلك الهجنة، وهذا جاءت هذه اللفظة
في الآتي على ما تراه من الحسن، وجاية على ما تراه من القبح في قول «الشیویف
الرضی».

إذاً سبب الفصاح‌ة في اللفظة، قد يكون مردها إلى ما تضاف إليه من الألفاظ،
وهذا الأمر هو الذي جعل ابن سنا، وأبان الأثير في كتابهما يجعلان من
الأمور التي تخل بفصاح‌ة الكلمة: أن لا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره
ذكره.

(1) البيت من { الكامل }.
(2) إنظر: سر الفصاح‌ة: 79.
(3) الرحمن آية: 9.
(4) المثل السائر: 1297.
3- وخص النبي ﷺ بلذى الخطاب في التذكير تحريضاً لهم، مع ما تقدمت
الإشارة إليه على المراقبة؛ تعريضاً لهم، بأكمله، خفواً مع الذين ذكروا أمر بعدات,
حتى نؤثبوا حين تغاضبوا على السلاح، وفوقوا على نافذ الفهم، وصافي الفكر خففة
إلى ما أراد بهم عدوهم فاقتضى هذا التحذير كله، ويؤيد ذلك إقبالهم في الخطاب
عليهم عند نسبة الفشل إليهم (1).

4- وإنما عبر عنه بالغدو، الذي هو الخروج غدوة، مع كون خروجه بعد
صلاة الجامعة؛ إذ حين بدأ وقعت النبوءة التي هي العمودية في الباب؛ إذ
المقصود بتذكير الوقت تذكير مخالفيهم لأمر النبي ﷺ، وعدم ثباؤهم في أماكنهم،
ودعم صبرهم.

5- وختتم هذه الآية يقوله: (وءى الله سبب عليكم...بالإيضاح)
بألهجة قد صدر عنهم في أرض المعركة من الأقوال والأفعال ما ينغي صدوره
عليهم (2).

وقوله تعالى: (إذ همّت طائفتان منكم أن يفسّنوا والله وليهم وَعِلَّى اللّه
فليتوكّل المؤمنون)، بدل من قوله: (وأيّغ غداً)... ولذلك فصلى...
لأسباب الاتصال بين الجملتين، أو الآتيين.

1- وفي التعبير يقوله: (...طائفتان...») إشارة لطيفة إلى الكتابة عمن يقع
مهماً مالاً يناسب والستر عليه؛ إذ لم يعين الطائفتين بأنفسهما، ولا صرح بمن هم من
القبائل، سترًا عليهما كما أسلفنا (3).

2- والأمر بالتوكل، وتقدم التحور في قوله: (وعلى الله فليتوكَّل

(1) انظر: نظام الدور: 5 / 43.
(2) انظر: إرشاد الغفل السليم: 78 / 42، روح المعاي: 4 / 43.
(3) انظر: البحر المحيط: 3 / 329.

84
المؤمنون» للأخلاق، أضاف إلى ذلك نكتة أخرى هي مراعاة تناسب رؤوس الآية.

وهنا أشار جل ذكره إلى الوصف الذي يقتضي ذلك، وهو الإمام في قوله: «...المؤمنون»، وذلك لأن من آمن بالله حيي أن لا يكون اتقانه إلا عليه.

والأحسن تفسير الآية الكريمة على الاحتكاك، ويكون أصل النظير: والله وليهما تولكهما، وإيمانهما، فلم يمكن الفشل فيما وليهما تولكهما، وإنما يدل ذلك على انقطاع الصلاة عليه.

وإظهار لما فرض الجلاء في قوله: «وعلى الله فليتولى المؤمنون»، مع ذكره مقدمةً للترك، وذلك لأن الألوهة من موجبات التوكل على الله تعالى.

وأما يدخل تحت هذا الفصل قوله تعالى: «لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من ألقاهم يبلأ عليهم أياتهم ويزكيهم ويعتمهم الكتاب والحكم... وإن كانوا من قبّ لي صنادٍ مبين».(1)

فقال الله سبحانه وتعالى لما ذكر الفرقة: فريق الرضا وفريق السخط، وأخذ درجات عند الله ضمّاً من غير تفصيل، فصل أحوالهم، وبدأ بالمؤمنين، حيث ذكر ما امتزى عليه من بعث الرسول عليه السلام بأيام الله، ومبينًا لما طريق الهدى، ومظهراً لفهم من أرجح الشرك، ومنذَّا لهم من غمرة الضلال بعد أن كانوا فيها، وسلاهم عما أصابهم يوم أحد من الخذلان والقتل والجراح، لما أناهم يوم بدر من النصر والغينمة، ثم فصل حال المناقشين، الذين هم أهل السخط في آيات أخرى.

(1) انظر: القدر المصور: 2 / 404; نظم الدرر: 5 / 49.
(2) آل عمران آية: 164.
والمراصد بالمؤمنين في هذه الآية الكرامة، الذين كانوا مع النبي ﷺ بقربية السياق، وهو قوله: «إِذْ بَعْثْنَاهُمْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفَسِهِمْ»، أي: من أمثهم العربية، وبلسانهم العربي.
والمن جاء في لغة العرب على معان:
أوَفَهُا: ما يسقط من السماء، كما في قوله تعالى: «وَآَوْزَعْنَا عَلَيْكُمْ الصُّبُورَ» (1) ، وهو أمر خص ببني إسرائيل.
وثانيها: أن من بما أعطيت، كما في قوله تعالى: «ثَبَتْنَا أَنَّهُمْ آمَنُوا لَنَفْتَرَنَّ صَدَقَاتُكُمْ بِالمُنَّةِ وَلَدَى...» (2) ،
ثالثها: القطع، كما في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَنَّ أَجْرُهُمْ غُرُرُ مَمْتُنُونِ» (3) ، أي: أجر دائم غير مقطوع.
ورابعها: الإحسان والإيمان إلى من لا تطلب الجزاء منه، كما في هذه الآية الكرامة، والمنان صفة من صفات الله تعالى، ومعناها: المعطي ابتداء من غير أن يطلب منه عوضاً، وقوله تعالى: «أَلَمْ نَلْقِي لِلنَّارِ مَنْ كَانَ نَفْسَهُمْ...»، أي: أنعم عليهم، وأحسن إليهم بعبعه هذا الرسول (4).

ولإذا ملة غزدي، أن بعث فيهم رسولًا، وأن يكون هذا الرسول «من أنفسهم»، إن العبادة من الله الجليل بإرسال رسول من عبده إلى بعض علقه هي المنعة التي لا تبتقي إلا من فيض الكريم الإلهي، المنية الخالصة، التي لا يقابلها شيء من حمل البشر، ولا فمن هؤلاء الناس؟ ومن هؤلاء الخلق؟ حتى يذكرهم الله هذا الذكر،

---

(1) البقرة آية ٦٧ .
(2) البقرة آية : ٢٦٤ .
(3) الزروآون آية : ٦ ف .
(4) انظر : التفسير الكبير : ٩ / ٧٨ .
ويبينكم هذه العبادة؟ ويبلغ من حفظ الله هم أن يرسل هم رسولًا من عبدهم، يحدثهم بأياته سبحانه وكمانه لولا أن كرم الله يفيض بلاحساب، ويغمر خلافته بسهمهم، ولا مقابل؟

وتضاعف النهاة بأن يكون هذا الرسول (من ألقهم) لم يقل «هؤلاء» فإن التعبير القرآني (من ألقهم) ظلالا عميقة الإيجاب والدلالة، إن الصلة بين المؤمنين والرسول هي صلة النفس بالنفس، لا صلة الفرد بالجنس، فليست المسألة أنه واحد منهم وكني، إنما هي أعظم من ذلك وأرقي، ثم إهم بالإيمان يرتفعون إلى هذه الصلة بالرسول، ويrollment إلى هذا الأفق من الكرامة على الله، فهو منى على المؤمنين، فألتسعة مضاعفة ممثالة في إرسال الرسول، وفي وصل أنفسهم بنفس الرسول، ونفس الرسول بأنفسهم على هذا النحو الحبيب.\(^1\)

ويزيد على هذا أقول: قد قيل: ليس في العرب قبالة إلا وها ولادة في الرسول إلا تغلب، ولذلك نفس قوله تعالى: «قل لا أسألكم عليه أجرا إلّا المضودة في الفريقين...»\(^2\).

وهذه المنى وهي كون النبي ﷺ منهم خاصة بالعرب، ومزية هم، زيادة على المنى ببعثة محمد على جميع البشر، فالعرب، وهم الذين تلقوا الدعوة قبل الناس كلهم؛ لأن الله أراد ظهور الدين بينهم، ليبلغوا النهوض الكامل المناسب لصفاء أذهانهم، وسرعة فهمهم لدقائق اللغة، ثم يكونوا لهم حملته إلى البشر، فيكونوا أوعاً على عوم الدعوة، وحسن تخلق بإخلاص العرب، وأنقى لمساءهم، والنسبة بعوائدهم، وأذواقهم أقرب من هذه المزية وهو معظمه إذ لم يفته منها إلا النسب والموطن، وماهما إلا مكملان لحسن التلقية، ولذلك كان المؤمنون مدة حياة رسول

---
\(^1\) في ظلال القرآن: 1 / 507 .
\(^2\) الشوري أية: 23 .
الله ﷺ من العرب خاصة.

هذا كله وغيره، هو ما أوحت به هذه النقطة الكريمة «...من أنفسهم...».

وهلذا ألفاظ القرآن الكريم.

1. ولكن ما السير في تخصيص المؤمنين بهذه المنى مع أن يعتنى ﷺ إحسان للعالمين؛ وذلك لأن في بعثته تخلصاً لهم من عقبات الله، وإيصالاً لنواب الله إليهم؛ لأنه معرفة للعالمين، كما قال الحق ببارك وتعالى: "وما أرسلت إنا إلا كافئة للناس بخير وثواباً..." (1).

والإجابة عن هذا التساؤل يقال: إن تخصيص أهل الإيمان هذه المنى، لأنه لم يتسع هذا الإعظام إلا أهل الإسلام، ولأчем الجامعون ما; فلهذا التأويل خص تعالي هذه المنى بالمؤمنين، والجملة جواب قسم مصون، أي: والله لقد من ﷺ(2).

2. ومن ينعم النظر في هذه الآية الكريمة، يلاحظ ترتيباً بديعاً في ترتيب المعاطفات «...بِئلوا عليهم آياته ويركِّبهم ويعملُهم الكتبَ والحكمة...».

وذلك لأن النبي ﷺ يعمد ل سبيل التوحيد، ويدعو إليه، ويعلم ما يلزم بعد التلبس به، ويزيد على الربد شهاداً، فتقدمت التلاوة؛ لأنها من باب التمهيد، ثم التركبة؛ لأنها بعدها، وهي أول أمر يحصل منه صفة يتبليس بها المؤمنون، وهي من قيب التخليقة المقدمة على التحليلة؛ ولن درء المفاسد مقدم على جلب المصلح، ثم التعليم؛ لأنه إما يحتاج إليه بعد الإيمان.

3. فيما جمل القرآن الكريم في هذا السياق آيات؛ لأن كل واحدة فيها.

(1) سبأ آية : 28.
دليل على صدق الرسول ﷺ من حيث بلاغة اللفظ وكمال المعنى (1).

4- وإنما وسط التركبة، التي هي عبارة عن تكميل النفس، وقذفها المتفرع عن تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعلم المرتب على التدأة، بين تلك المتعاطفات؛ للإبان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيائها مستوية للشكر (2).

5- وعطف الحكمة على الكتاب، عظفًا الأخص من وجه على الأعم مـ، وجه ، فمن الحكمة ما هو مضمون في القرآن كقوله تعالى: {... وَمَنْ يُوقُّ شَحَّ (بُقِّيْهِ) فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونُ} (3)، ومنها ما ليس في الكتاب مثل قوله ﷺ: {لَوْلَا ذُكِّرُّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْضِهِمْ مَرَّتَينَ} (4)، وفي الكتاب ما هو علمـ، وليس حكمة، مثل فرض الصلاة، والحج، وفي السنة أيضاً ما هو علم لا حكمة، كما في {صُلُوا كَمَا رَأَيْتُونِي أُصِّلُ} (5).

6- وأختتم الحديث في هذه الآية بالحديث عن حاقتها البديعة، وهو قوله: {... وإِن كَأْنَوا مِنْ قَبْلِ لِفِي صَلَّال مُهَيْنَ} (6)، حيث وصف الضلال بالصين، وذلك لأنه لشفته لا يثبت على أحد بشائبة هدى، أو شبهة، فكان حاله مبيناً كونه ضلالاً، كذلك الحق تبارك وتعالى: {... قَالُوا هَذَا سَحْرٌ مُهَيِّنَ} (7).

والمراد بالضلال هنا، كما لا يخفى ضلال الشرك والجهالة والنقالت، وأحكام.

(1) انظر: التحرير والتثور: 4 / 159.
(2) انظر: روح المعاني: 4 / 144.
(3) الخضر آية: 9.
(4) الحديث رواه البخاري: رقم (5991) ومسلم: رقم (24747).
(5) الحديث رواه البخاري: رقم (162) وأحمد (5 / 53).
(6) النمل آية: 13.

89
الجاهلية وأعرافها وتأواليها المختلفة للإسلام …

واختتم هذا الفصل بحديث عن كلمةٍ: "...توفون..."، و

"زُرِّحُ..." من قول الحق تبارك وتعالى: "كل نفس ذائقة الموت والدمع توفون أجوركم يوم القيامة فمن زُرِّح عن النار وادخل الجنة فقد فاز ومرة الحياة الدنيا إلا متناً الفروض".

ثالث: الله سبحانه وتعالى لما سلى رسوله محمدًا ﷺ، بالرسول الذين لازموا الصبر، والاجتهاد في الطاعة؛ حتى ماتوا وأحملهم، وتركوا ما كان بأيديهم عاجزين عن المدافعة، ولم يبق إلا ملكه سبحانه وتعالى، وأن كلاً الفريقين يتزورون الجزاء، فالرسول لتمام الفوز، والكافر لتمام الهلاك، وذلك في الأيتات التي قبل هذه الآية، أخبر في هذه الآية أن كل نفس كذلك; ليجتهد الطاعة، وينبسط القليل، وفي ذلك تعيين بالمنافقين، الذين رجعوا عن أحد خوفًا من القتل، وقالوا عن الشهادة: "أو أطاعونا ما قيلوا؟ أو فادرعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين")، أي: إن الذي فر ثمم لابد منه، والحياة القاسية أзамهما ينتم عمليها من شخصها للتبعي كما ينتم المغروض بالمتاع الذي غثر به، فالсужден من سعي في أن يكون موهبه في رضا ربه ومولاه الذي لا يحيض له عرين الرجل إليه، والوقوف بين يديه سبحانه وتعالى.

١ - واصطفاء لفظ "...توفون..." في هذا النظير، له إنجازه وظلله،

الذي يهدف من ورائه لبيان أن تمام الأجر والنواب، لا يصل المكلف إلا يوم

(1) انظر: التحرير: 4/160.
(2) آل عمران آية: 186.
(3) آل عمران آية: 187.
القيامة ؛ لأن كل منفعة تصل المكلف في الدنيا فهي مكدرة بالغموم والهضوم، وينصرف الانقطاع والزوايا والأجر الساع، والثوريد الكامل إما يصل إلى المكلف في يوم القيامة ؛ لأن هنالك يحصل السرور بلا غم، والأمن بلا حروف، والذلة بلا ألم، والسعادة بلا حروف الانقطاع، وكذا القول في جانب العقاب فإنه لا يحصل في الدنيا بل خالص عن شوائب اللذة، بل ينصرف به راحت وتخفيفات، وإنما الأمل النائم الخاص الباقى، هو الذي يكون في يوم القيامة.

ووهذا لا يوهم نفي ما يروى من أن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ؛ وذلك لأن كلمة التوفيق بإيجادها وظلالها تنفي هذا الوهى، وتنقله من جذوره ؛ لأن معنى توفيق الأجور وتكملها يكون ذلك اليوم، وهم يومن قبل ذلك بعض الأجور.(1)

وما قبَل: عن كلمة «...فَوْقُون...»، يمكن أن يقال عن كلمة «...زُحُرَ...» التي تصور معناها بطلها وحراسها، وترسم هيئة الإبعاد والنسبية بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات، وشذ وجذب، وما يصحب من ذكر الذي يمر بحيس النار، ويسمعه ويكاد يصبه، ولو فنسته جميع معاجم اللغة وقواميسها لاتخذ كلمة تصور هذا المشهد إلا هذه الكلمة.(2)

وبعد هذه السياحة في لفظية «...فَوْقُون...»، «...زُحُرَ...» في هـذا النظم، ننطلق مرة أخرى في سياحة أخرى، مع لطائف النظم في هـذه الآية الكريمة التي تفتى ظلالاً.

فمن لطائف قوله تعالى: "كُلٌّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِلَّا مَخْرُوجٌ كَمُّ" (3)

---


(2) انظر: في ظلال القرآن: 1/ 539 للاعجاز في نظم القرآن: 79
۱ - القلب في قوله تعالى: "...ذَائِقَةُ الْمَوْتِ..."، قد يقول قائلًا:
وكيف يكون ذلك؟ ونجيب عن ذلك بأنه على قراءة من قرأ:
»...ذَائِقَةُ الْمَوْتِ..." على جعل الماء ضمير «كُلُّ...» على اللفظ، وهو
مبدأ أو خبر.
وإذا صحت هذه القراءة، يكون «كُلُّ...» مبدأً، و «...ذَائِقَةَ...»
خبر مقدم، و «...الْمَوْتِ...» مبدأ مؤخر، والجملة خبر (كُلُّ...)
وأضيف «ذَائِقَةَ...» إلى ضمير (كُلُّ...). اعتبار لفظها، وكون هذا من
باب القلب في الكلام؛ لأن النفس هي التي تذوق الموت، وليست الموت
يذوقها، وهنا عكس فجعل الموت هو الذي يذوق النفس قلبًا للكلام؛ لفهم
السالم لمعنى، كقول العرب: "عرضت الحَوض على الناقة"، و
"أدخلت القلنسوة في رأسي"، والأصل: عرضت الناقة على الحوض،
وأدخلت رأسي في القلنسوة (1).
وجمعت لفظة "...أجْرُوكُم..." مراعاة لأنواع الأعمال.
ومن لطائف النظم وكناهه في قوله تعالى: "...قُمْنَ زَحْرَحَ عَنْ
الْثَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْهَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَنْ عَمَّ اللَّهُ وَرَزَقَ الْغُرُورِ".
۱- الجمع بين قوله تعالى: "...قُمْنَ زَحْرَحَ عَنْ النَّارِ..."، ونُصْب
قوله: "...وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ..."، مع أن ذكر أحدهما يغيِّري عن ذكر الآخر.
وذلك لبيان أن دخول الجنة يشمل على نعمتين عظيمتين: النجاة من

النار ونعيم الجنة (1).

3- وتعقيب هذه الجملة بالجواب؛ لبيان أنه قد نال مبتعاه من الخِمار والغلال؛ لأن ترتيب الفوز على دخول الجناة، والرحمة على السَوار معلوم، فلا فائدة في ذكر الشرط إلا هلذا، والعرب تعتمد في هذا على القرآن، فقَد يُكون الجواب عين الشّرط؛ لبيان التحقق، نحو قول: من عرفٍ فقد عرفٍ، وقد يكون المُهدَف منه بلوغ أقصى غايات نوع الجواب والشرط، كما في هذه الآية (2).

4- وانظر إلى أنطوت عليه الآية الكريمة من تشبيهه بليغ في قوله تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَضْعُوحُ الْغُرُورَ}، حيث شبهه الدنيا بالنشاع، الذي يُدلى به بائعه على طالبه حتى يتحدد ويشتريه، وقد أخرج الحق ببارك ومعال الكلام بهذا التشبيه مخرج الإتكال على من جعل دينه الاغتراب بالدنيا، وتلمظ أفواهها، وهي في الواقع، لا نفع فيها، ولا طائل تحتها، وأيَة قيادة ترجى من شيءٍ الذي يعتوره الفناء.

4- والقصر في هذا السياق الكَريِم قصر حقيقى ادغائي، مبنى قصر الموصوف على الصفة، حيث قصرت الحياة على وصف واحد دون سواها، وهو كونه مثبِع الغرور.

---

(1) انظر: التحرير والتنوير: 4 / 188 – 189.
(2) انظر: التحرير والتنوير: 4 / 189.
الفصل الثاني:
تنوع التعبير باللفظ عن المعنى المراد

البحث الأول: التعرف، والتأويل.
البحث الثاني: الإطلاع، والإيضاح.
البحث الثالث: التعبير عن الماضي بالمستقبل، وعكسه.
البحث الرابع: الألفاظ.
المبادئ الأول
التعريف، والتنّصير
التعريف والتفكير

توطئة:

لكل من التعريف والتفكير أسرار ونكتات بلاغية، تظهر واضحة من أنعم النظر في سياقات الكلام، ومواعظه؛ لأن لكل منها دلالات وإيحاءات، وإذا كان لكل من التقدم والتأخير، والذكر والحذف، أعراضها البلاغية، التي تتعلق بها، فالتعرف والتفكير كذلك.

وقد أولى النحاة التعريف والتفكير عناية خاصة، حيث عرضوا لها في مؤلفاتهم، وذكرنا أن النكرة هي الأصل، وتحدثوا عنها، ثم شكلوا المعرفة، وتحدثوا عن أقسامها، وهي : العلم، والضمير، اسم الإشارة، اسم الموصول، والمعرف بكل، والإضافة.

وأما البلاغيون؛ فقد نخو هذا المبحث منحنى آخر، أعادوا به النروح إلى الجسم، فدببت فيه الحياة، حتى عاد حلقة آخر، فقد حذروا عن التعريف، وعند الأعراض التي يأتي من أجلها، على اختلاف أنواعه سواء كان بالضمير، أم بـ آل، أم بالإضافة، أم باسم الموصول، أم بغيرها، ثم حذروا بعد ذلك عن التفكير ودواعيه، وأثره في بلاغة الكلام، وهم بذلك يأخذون بأيدينا ؛ لكي نغوص على كوايس الدور، لنتقبس من نورها نورًا.

وكان في مقدمة علماء البلاغة، الذين أولوا هذا الأسلوب عنانيتهم، الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في كتابه « دلائل الإعجاز »، حيث عرض له في مبحث الفروق في الخبر، فكان يهجبه له رأعاً كعادته. فقد تحدث عن فوائد تعريف الخبر بألف، والموصول بأسلوب رصين متقن (1)

وعندما انتقلت البلاغة من الطور الدوقي، الذي يمثله « عبدالقاهر »، إلى

(1) انظر : دلائل الإعجاز : ۱۷۷، وما بعدها .
الطور التقعيدي، الذي يمثله "السكاكي"، ومن جاء بعده كـ "الخطيب" وغيره... وما اقتضاه هذا التطور من ترتيب للكثير من القواعد البلاغية، وله أهمية صنعوا الباحثين في "المستند والممسنك"، حيث تحدثوا عن أخلاق التعريف، والتنكير، ودواعي كل منهما، ولم يتركوا شائدة ولا واردية تصل إليهن الأسلاوبين، إلا ضمنها مؤلفهم (1) فكتبهم يحق أجمع لهذين الأسلاوبيين كتاب "عبدالقاهر".

وقد تقول المفسرون خطي البلاغيين في شأن أخلاق "التعريف والتنكير"، فنجدهم قد وقفوا ووقتاتها مذكوة مع هذين الأسلاوبيين في تفسيرهم، وهذا يبدو واضحًا في تفسير "الكشاف" لـ "الزمخشي"، الذي يعد وحق قمة التطبيق في البلاغ، حيث حمل الكثير من شواهد التعريف والتنكير، وأخلاقها في كتب الله، مع بيان دقة التنظيم القرآني في وضع كل من التعريف والتنكير في موضعه الأحق به.

وقد حا حذره من جاء بدونه من اعتن بالجامع البلاغي، كـ "الفخري الرازي"، و"أبي حسان النحوي"، و"اليضاي"، و"البقاعي"، و"أبي السعود"، و"الألوسي"، و"ابن عاشور"، وغيرهم.

وبعد هذه النظرية، أبدا هذا البحث بما بدأ به البلاغيون بحوثهم، وهو "التعريف"، ثم أعقبه بـ "التنكير".

(1) انظر: مفاتيح العلوم: 178 إلى 194، والإيضاح 1/ 112 إلى 149، ومـ: 1/ 188 إلى 191.
أولاً: التعرف

التعريف بالأل.

التعريف بالأل. يتردد غالباً بين كونه للجنس، أو للعهد بأنواعه، ويؤتي لما في السياق الرابح لتحقيق بعض المعاني واللطائف التي لا تأتي إلا من طريقه، ولذلـك جاءت في القرآن الكريم محمودة الموقع.

يقول الحق تبارك وتعالى: «إنَّ الْدُّنِيَّةَ عَنْدَ اللَّهِ اِسْتَسْلَامًا وَمَا اخْتَلَفَ الْجَارِيُّ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاعَلَهُ الْعَلَّمُ بَيْنَ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرُ بِيَآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعُ الْجَسَابُ» (1).

قرأ الجمهور بكسر همزة: «إنَّ» (إنَّ الَّذِينَ...) (2) على أنه استثناء ابتدائي؛ وذلك ليبان فضل هذا الدين.

وهذا شروع في أول غرض نزلت فيه هذه السورة المباركة: غرض محافة نصارىapest الصحراء، فهذا الاستثناء من مناسبات افتتاح السورة بذكر تتزيل القرآن الكريم والّلورية والإجتهاء، ثم بتخصيص القرآن بالذكر وتفضيله بأن هديه يفوق هدي ما قبله من الكتب؛ إذ هو القرآن، لأن ذلك أساس الدين القوم، ومن كان الكلام المتقدم مشتملاً على تعريض اليهود والنصارى، الذين كبدوا بالقرآن، وإنطلق لقيل وفد نصارى، لما طلب منهم الرسول ﷺ الإسلام: «أسلموا قبلك»، فقال لهم: «كدثندم» (3).

ناسب بعد ذلك أن ينوه بالإسلام، الذي جاء به القرآن؛ ولذلك عطف على هذه الجملة قوله: «...وَاِخْتَلَفَ الْجَارِيُّ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاعَلَهُ الْعَلَّمُ» (4)

(1) آل عمران آية: 19
(2) انظر: إعجاز فضلاء البشر: 2 / 472، والنشر: 2 / 238، وإعراب القراءات السبع وأعلامها: 1 / 1009
(3) انظر: أسباب الرؤول: 53
ولا بد هنا من التنبيه إلى أن الكلام البلىغ لا يظهر انتظامه مسن المناسبة، وإن كان بعضه جاء استناداً.

1. والتعريف في «...الدين...» للجنس؛ إذ لا يستقيم معنى العهد الخارجي هنا، وفي «...الإسلام...» تعريف العلم باللغة؛ وذلك لأن « الإسلام» صار علمًا باللغة على الدين الإسلامي، الذي جاء به نبيًا محمد ﷺ، وأبيه هو وأمي.

2. وتعريف حزينة الجملة: المنسد، والمنسد إليه بالقول: «إن الدين يعهد الله الإسلام...»، أفاد الخبر، أي: لا دين مرضي عند الله تعالى سوى الإسلام، ولا شك أن هذا القصر حقيقي، وقد أكدت هذه الجملة بحرف التوكييد.

3. وقوله: «...يعهد الله...» وصف للدين، والعنيدة عند عبد القدر اعتباره والاعتداء، ليست عنيدة علم، فأفاد أن الدين الصحيح هو الإسلام، فكيف إن كمسنا قصرًا للمنسد إليه اعتباره فيما فيه، لا في جميع اعتباراته، كمسنا في قول: «الحسنيه».

«إذا قبح الباباك على قبالي رأيت بكاءً الحسن الجميلًا.»

فحصت الشعراء الحسن في إنشائه بالنظر أن المقصور هو الحسن لأنه معروف باللام، وهذا الخبر باعتبار التنفيذ وقت قبح الباباك على القنلي، وهو قصر حسن بكتاه على ذلك الوقت، ليكون لبكائها صخرًا مزيا على بكاء القنلي المتعارف.

4. ولكن يمكن الاعتراف على هذا الكلام بأن قد جاءت أديان صحينة من

---

(2) البيت من { الواقف }.
الله سبحانه وتعالى على ألسنة رسول آخرين.

ويمكن الإجابة عن هذا الاعتراض بأنه مؤول باعتبار أن الدين الصحيح عند الله حين الإخبار، وهو الإسلام، فلو نظرنا إلى الآداب السماوية في ذلك العصر الذي جاء به الإسلام لرأينا أننا قد اعتبرنا التحريف.

وإما باعتبار الكمال عند الله؛ فتكون الكسر باعتبار سائر الأربان والعصور؛ إذ لا أكمل من هذا الدين، وما قبله من الأديان لم تكن بالغة غاية المراد من البشـر في صلاح شرفهم، بل كل دين جاء يعالج إضافه إلى صحة العقيدة جانباً من جوانـب الحياة، وهذا المعين الثاني أرجح؛ وذلك لأن منفده أعم(1).

 قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفُ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدَ مَا جَآءَهُمْ عَلَيْهِمْ أَلْيَمٌ ۖ فَكُلُّ مَّنْ آمَنَ فِي رَبِّهِۢ ٌۢ إِلَىٰ نَارٍ﴾

التعريف بالرودية ﴿الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَىٰ نَارٍ﴾ ليكون يستهار بما في حيز الصلة، وهو أعم أهل الكتاب، وفي هذا نفي عليهم وتشنيع في هذا الاختلاف، أي كيف يحصل هذا منكم، ومعكم الدليل الهادي وهو الكتاب، والمراة بأهل الكتاب اليهود والنصاري، والتعريف في ﴿الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَىٰ نَارٍ﴾ للمجنس.

والاختلاف كان في التوحيد، وقيل: في نوبة نبينا محمد ﷺ، وقال: في الإمام بالأنبياء عليهم السلام، والراجح والله أعلم أن المراد من جملة اليومـان ما يعم الفريقين، والذي اختلوا فيه هو الإسلام، كما يفصح عن ذلك السياق الذي هو فيه.

والمعبور عنهم بالرودية، وجعل إثبات الكتاب صلة له؛ لزيادة تقييض حالتهم؛ لأن الاختلاف ممن أوتي ما يزله، ويقطع شأته في غاية القبح والسماحة، وقوله: ﴿وَبَيِّنَتْنَهُمْ زِيَادَةً فِي الْكِتَابِ﴾(2).

(1) انظر: التحرير: 190 / 3.
(2) انظر: إرشاد العقل السليم: 2 / 188; روح المعلئ: 3 / 107.
وبعبارة أخرى أكثر تفصيلاً، يمكن القول إن هذا الجزء من الآية الكريمة يشمل
على جملة من المبالغات في ذم اليهود ذكرت في حيص الصلوة، وهي على النحو التالي:
أـ وصفهم بأحمر الكتاب، والاختلاف بحذائه قبيح، ولكنه بعد إتيان
الكتاب، والعلم أحق.
ب~ ثم ترقي في المبالغة فوصفهم بأحمر عثر بعدها أونا كتابنا جاءهم علم آخر،
بوضوح لهم طريق الصواب، ولكن طبيعة اللجاج المركوز في نفسهم، أبت إلاّ
التمادي في الضلال، وركوب متن الشطط، فكان القبيح أزهار.
ج~ ثم ترقي مرة أخرى في المبالغة، فجعل الاختلاف بعد ظهور العلم لديهم
مرتين متتاليين، لم يكن إلاّ بغيماً منهم، وهذا ما تعلمه الناس منهم، وأشتهروا به إلى
اليوم، وهذا استمرت المبالغة غبائياً.
قوله تعالى: «...فَأَحْكَمْ بِهِ قَاتِمُ اللَّهِ ﻓَإِنَّ اللَّهَ سَريعُ الْحَسَابَ»، اشتمل
على جملة من اللطائف:
١ـ التعبير بالفعل المضارع في قوله: «...فَأَحْكَمْ بِهِ قَاتِمُ اللَّهِ...»، أي:
استمر على كفره، ولم يقل لطفاً منه: «وَمَن كَفَّرَ».
٢ـ قوله: «...فَإِنَّ اللَّهَ سَريعُ الْحَسَابَ» قائم مقام جواب الشرط؛ علة له،
أي: من يكفر يعاقب الله تعالى، ويجازه عن قريب، فإنه سريع الحساب، أي: يلقي
حسابه عن قريب، وهذا يقتضي إحاطة العلم والقدرة، فتفيد الجملة الوعيد.
٣ـ وآخر هذه اللطائف: إظهار لفظ الجلاءة موضع الإضمار؛ تربية لل المهابة،
وإدخال الروعة في ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى، من غـيـب تعـرـض
خصوصية حامل من كون كفرهم بعد إتيان الكتاب، وحصول الاطلاع على ما فيه،
وكون ذلك لله غي دلالة على كمال شدة عقابهم(1).

(١) انظر: إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٨٨ ; روح المعلان: ٣ / ١٠٧.
فألف الله سبحانه وتعالى لما بين أن الإنفاق، لا يرفع الكافر البنة، علّم المؤمنين كيفية الإنفاق، الذي يتنفون به في الآخرة، فقال: "لن تتألوا البُرُّ حتى تُفقَثُوا بَعْضٌ بَعْضٌ، وقد فكرُوا ونُفِّذُوا وهمُ كُفَّارٌ..."(2)، وقوله: "كل الطغام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حزَّم إسرائيل على نفسه..."(3).

وقيل أن أعرض للتعريف في هذه الآية الكريمة، أفق قليلاً مع كلمة "تتألوا".


وأما النول باللواو، فمعناه: التناول، يقال: نلته أنوله، أي تناولته، وأنتنه زيدًا أنوله إلا، أي: نولته إلا، كقوله: عطره أعطوه، بمعنى تناولته، وأعطيته إياه، نولته إياه.(5)

والبر هو: الإحسان، وجمال الخير، وبعض أهل اللغة يفرقون بين البر والخير.

بأن البر هو النفع الواسع إلى الغير مع القصد إلى ذلك، والخير هو النفع مطلقاً، وإن وقع سهواً، وضد البر العقود، وضد الخير الشر.

(1) آل عمران آية: 92.
(2) آل عمران آية: 91.
(3) آل عمران آية: 93.
(4) التوبة آية: 120.
(5) انظر: نسخ العرب: 11/138–139، 6، 82، «نول»، و«نيل»، القاموس المحيط: 1376، 1377، 83، 83، «نيل».

102
والتعريف في: «...البَرِّ...»: إما للجنس، والمراد لن تكون أُبُرْارًا حتى تتفقوا مما تخبون؛ وإما للعهد، والمراد: لن تزالوا بر الله تعالى يا أهل طاعته حتى تتفقوا مما تخبون(1).

وحمل التعريف على الجنس أولى؛ وذلك لأن هذا الجنس، وهو المركب من أفعال كثيرة، منها الإنجاب المخصوص، فبدونه لا تحقق هذه الحقيقية، والمزية.

1 و من ينظر في النظم الرباني، يلحظ أن الله جل جلاله، جعل إنجاب المُال المحبوب غاية لنوال البَرِّ، ومقتضى الغاية، أن نوالي البَرِّ لا يحصل بذوها، وهو مشهور بأن بين الإنجاب وبين البَر مراحل كثيرة، في الطريق الموصل إلى البَر، وهي خصائص البَر كلها، بقيت غير مسلولة، وأن البَر لا يحصل إلا بنهائيها، وهو الإنجاب مِن المحبوب، فظهر له -...ختى...» هذا موقع من البلاقة، لا يخففها فيه غيره، لأن له قول: إنما تقولوا بما تخبون، لتوهم السامع أن الإنجاب مِن الحب وحده، يوجب نوال البَر، وفانت الدلالة على المسافات، والدرجات، التي أُشِيرت بها: ...ختى...» الغاوية(2).

2 ومن ينظر في النظم القرآن الكريم، يلحظ أنه كثيرة ما يستعمل لفضط بيفق، بالصيغة الفعلية؟ كما في قوله في هذه الآية (...وما تفقوا...)؛ وذلك لأن الإنجاب أمر ينكر، ويدحض باستمرار، فاستعمل الفعل المضارع السَّدان على التجدُد والجدوَّة، وذلك لأن الإنجاب أمر ينكر، ولم ترد بالصورة الإسحاقية إلا في آية واحدة هي قوله تعالى: (الصَّادِقِينَ والصَّاِبِينَ والقَانِينِ، والمُتَّقِينَ، والتَّعَالُبِينَ بالاسْتِحْيَارِ) (3)، وهو في أوصاف المؤمنين، الدلالة على الثبات.

(1) انظر: روح المعاني: 3، 222.
(2) انظر: التحرير والتنوير: 4، 6.
(3) آل عمران آية: 17.
3- وعبر بـ «...شيء...» في قوله: «...وما تُفْقَوْا مِنَ الشَّيْءَ...»،
وهي نكرة في سياق النفي؛ لبيان أن أي شيء مُقفَوٌ ولو كان دقيقاً; فإن علمه عند
الله سبحان وتعالى في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وهذا المعنى
مستنادًا إلى النص كأسفوت عن التفكير في سياق النفي، والإتيان ممن.
4- وتقدير الجار والمجرور «...به...» على «...عليه...» في قوله:
»...وما تُفْقَوْا مِنَ الشَّيْءَ فإنَّ اللَّهَ يَعْلِمُ...»، اهتمام بالمقدم؛ إظهار لأنه يعلم من
جميع وجوهه.
ولا يخفى أن تقدم الجار والمجرور، وتحت الآية بالمعنى من «...عليته...» فيه
مراعاة للتفاصيل.
والإتيان بصيغة المبالغة في «عليه»; دون اسم الفاعل؛ لمراة المبالغة في شيء.
5- قوله تعالى: «...وما تُفْقَوْا مِنَ الشَّيْءَ فإنَّ اللَّهَ يَعْلِمُ...» تذبذب يراد به
فتيت أنواع الإنتفاضة، وأبين أن الله سبحانه وتعالى، لا يخفى عليه شيء من مقصود
المتفقين، وأن العمل إمام يعظ نية صاحبه وقصده، فإن كان المنفق نوي به
نسبة صالحة تعاظم عند الحق، وإن كان غير ذلك تضاعف وإن كان عظيمًا بسبب نية
صاحبه، فرد القبول على النية، وحسب، وهذه اللطيفة أحتم الحديث عن هـذـه
الآية.
وما يدخل تحت هذا البحث قوله تعالى: «كُلُّ الطَّعَامَ كَانَ جَالِلًا لَّنَا إِسْرَائِيلَ
إِلَّا ما حُرِّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قِبَلِ أنَّ نَزْوَلَ الْتُّوْرَةَ فَأَتَوْا بِالْتُّوْرَةَ فَاتَّلَوْهَا
إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ» (١).
الطعام: اسم لكل ما يطعم ويوكل، وزعم بعض الأحناف: إنه - أي
teatrum - اسم للبر خاصة، وهذه الآية الكريمة أكبر دليل على ضعف هذا القول؛ لأن

(١) آل عمران آية : ٩٣.
الله سبحانه وتعالى استثنى من لفظ الطعام ما حرم إسرائيل على نفسه. والمفسرون اتفقوا على أن ذلك الذي حرمه إسرائيل على نفسه، كان شيئاً سوى الحنطة، وسوى ما يتخذ منها.

وقال تعالى: "(...) وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ جَلَّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ جَلَّ لَهُمْ (...)" (1) وأراد الدبّاج، وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (وَلَا طَعَامُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الدَّهْنَى إِلَى الأُسَوَّدَةِ) (2) تريد: الماء، والتمر.

فإذا عرفنا هذا، فنقول: ظاهر هذه الآية الكريمة بدليل على أن جميع المطعومات، كانت حلاً لبني إسرائيل، وعلى هذا يكون التعريف في قوله: "(...)الطعّام..." لاستغراق الجنس، و"(...) كُلُّ..." للتصنيف على العوم، ولا يخلق هذا تخريج المبتدأ ولحم الخترير مع أنّه كانت تسمى طعاماً، وذلك لأن اليهود في العهد النبوي لم يدعوا أنّها كانت من الأطعمة التي كانت محرمة على إسرائيل.

1 - وأثبت الجار والمجروح في قوله: "(...) من قَلْلِي..." في سياق هذه الآية؛ لأن حرمهم أي: عقوبة العِلْمِ كان في بعض ذلك الزمان، ولم يكن مستغرقاً للزمان كله (3).

2 - والتعبير بالفعل المضارع في قوله: "(...) أن نتّولّه..."؛ وذلك لأنه أدل على التجدّد.

يقول اليقعي: "وعبر بالمضارع؛ لأنه أدل على التجدّد؛ فقال: "(...) أن نتّولّه..." (4).

__________
(1) المائدة آية: 5.
(2) المقدمة: رواه البخاري (2424) ومسلم (2672) والترمذي (2471) والباهي (1211) وابن حبان (348) وشیع الإمام (1095) وسنن البهیف (1932).
(3) إنظر: نظم الدرب: 3 / 0.
(4) نظم الدرب: 5 / 0.
3- والأمر في قوله تعالى: «فأنا بِالثورَةِ...»؛ للتحيز؛ لأنه قد علمـ
أهـم لا يأتون به إذا استدلوا على الصدق.
4- وجواب الشرط في قوله تعالى: «...إِنْ كُنْتُمْ صادقين...» عذوف؛ لدلالة
المذكور، وهو قوله: «...فَأَنتَا بِالثورَةِ فَاتَلُوهَا...»، وتقديره: إن كنت صادقين;
فأتوا بالثورة فاتلوها؛ فإن صدفهم ما يدعو إلى ذلك البتة.(1)
وأما يدخل تحت هذا البحث قوله تعالى: «بَلْ أَلْدَمِنَّ أَنتُونَا لَأَكُلُّوا الرَّبَّا
أَضْعَفَانَ مَضَاضَعَةً وَأَنتُونَا اللَّه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَنتُونَا النَّارِ الَّذِي أَعَدْتُ
لِلْكَافِرِينَ».(2)
التعريف في النار في هذه الآية الكريمة قد يكون مراداً به الجنس، فعلـى هذا
تكون النار التي وعد بها المرايا، أُخفَف من النار التي وعد بها الكافر في جهنٍم، أي:
أُخذ جنسها للمكافر.
وقد يكون مراداً بالتعريف العهد؛ فتكون النار التي وعد بها المرايا هي النار السيـ
وعد بما الكافر، فهما يتقابلان فيها في نار جهنم.
والتعريف بالموضوع في قوله: «...أَلْدَمِنَّ أَنتُونَا لَأَكُلُّوا الرَّبَّا
وذلك لأن المؤمنين الذي أُمروا بتبرك المعاصي والإقاـع عنها، وأيضاً عند سببها، فإذا
علموها أهُمٌ فافرقوه الثقوب وارتكبوا في حِمَأة المعاصي أدخلوا تلك النار المهولـة
المرعية المعدة للمكافر، وقد علموا من النصوص التي تقر عداهم عظمتها وعظمة مدـ
فها من أنواع النكال، كان انجازهم عن المعاصي أتمـ.
وأما يدخل تحت هذا البحث كذلك قوله تعالى: «الذين قال لهم الناس إنّ
الناس قد جمعوا لكم فاحتشموه فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعمَ الوكيلُ»

(2) آل عمران آية: 130، 131.
فالذين بيعوا بيعتهم من الله. وفضل لم يمسِّهُم سوء. وابتعوا رضوان الله ولهذا دو فضلٌ عظيم»。

يجوز أن يكون قوله تعالى: «الذين قال لههم...» بدلاً من قوله تعالى في الآية التي قبلها: «...الذين استجابوا لله ورسوله...» (1)، أو صفة له، أو صفة ثانية للمؤمنين في قوله تعالى: «...وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين» (2)، وإذا لم يعط عليه؛ تمثيلاً مع سنن العرب في ترك العطف بين الأخبار، وإذا جيء بإعادة الوصول دون أن تعطف الصلة؛ اهتماماً بشأن الصلة الثانية؛ حيين لا تكون كجزء صلة (3).

1- التعريف في الناس المراد به الجنس، والمقصود به في الآية الكريمة نعم بن مسعود.

ولكن من المبادر للذهب عند سماع هذا أن يتردد في الذهن سؤال مدافع: كيف قال الحق تبارك وتعالى: «...الناس...»، مع أن المعروف من سبب نزول هذـه الآية الكريمة أنه لم يكن إلا نعيم بن مسعود وحده.

ويجاب عن هذا بأنه جرى الأسلوب على هذا النسبق؛ لأنه يأي: نعيم بن مسعود من جنس الناس، كما يقول: «فكان يركب الجبل، ويلبس الهرود»، وماله إلا فرس واحد، وبرد فرد، أو لأنه حين قال ذلك لم يبلغ من ناس يؤازرونوه، وينقلون كلامه، ويتبطون كشيئه (4).

وقد يكون الإنكار من هذا الأسلوب؛ لقصد الإمام، وعدم الفضيحة؛ وذلك لعلم الله سبحانه وتعالى بإسلام هذا الرجل، وقد وقع هذا، حيث أسلم نعيم بن مسعود

. . (1) آل عمران آية : 173 ، 174 ـ.
(2) آل عمران آية : 172 ـ.
(3) آل عمران آية : 171 ـ.
(4) انظر: التحرير والتشويي: 4 / 168 ـ.
(5) ينظر: الكشاف: 441ـ؛ آثار الترميز : 2 / 54 ـ؛ الإرشاد : 114ـ.

١٠٧
وعلى هذا قوله تعالى: (أَمْ يَحْسَدُونَ النَّاسَ) (1)، قال جمهور الفسقيين
المراد بهم محمد ﷺ.

2- ومفعول قوله تعالى: (جَعَلُوا... مَحْزُونًا... مَحْزُونًا) مُحَذَّف لِمَعْنَا اِسْتَعْتِصارًا لِلْعُلَمَ بِهِ،
والتقدير: جعبوا أنفسهم، وعدهم، وأحلافهم، كما فعلوا يوم الفرقان يوم بدر.

3- ومن ينظر في حكمة (وَنَعْمَّ آوْيَكِلُ) معروفة، بلحظ أنها معطوفة على
حكمة (وَخَسَبْنَا اللَّهَ) في كلام القائلين، فالواو في المعطي، لامن الحكاية،
وهو من عطف الإنشاء على الخبر، الذي لا تطلب فيه إلا المناسبة، والمخصص.

(3) وقد دل قوله: (فَماَلَّكَوْا بِعَمَّةٍ مِنَ اللَّهِ)... على أن سباق الكلام
قد اشتمل على حذف؛ وذلك لأن الانقلاب يقتضي أنهم خرجوا للقاء العدو الذي
بلاغهم أظهر جعبوا لهم، ولم يعبأوا بتحريف الشيطان الذي قال: إن نعييم بِن
مسعود أو غيره على احتجاز بين المفسرين في ذلك، وكأن القدير: فخرجوا،
فماتكلمو بعمة من الله.

4- وتكير: (نَغُفَّةً... وَفَضْلًا)... لِلْعَظِيمِ، أي نعمة وفضل لا يقاس.
قد بلغها، ولا يكنت كههما، وهي السالمة من العدو، والانتصار على العدو، وقد
أكتسب التفكير التعظيم: وذلك بإضافته إلى الله سبحانه وتعالى: (وَمِنَ النَّارِ...).
وعلى هذا الآية، وله قوله: (اللَّهُمَّ قَلِّ لَهُمْ النَّاسَ... وَغَيْرُهَا، رد على مس
زعم عدم جواز عطف الإنشاء على الخبر، واختر على الإنشاء، وهذه الآية دلالات
على جواز هذا الأسلوب وبلاغته.

_______________________________

(1) النساء آية: 54.
(2) انظر: التحرير والتنوير: 170 / 4.
ب_ التعرف بالوصول:

وكمما يكون التعرف بـ آل، يكون كذلك بالوصول، والتعريف باسم الموصول له دلالاته، التي لا يمكن أن تؤدي إلا بالتعبير به في السياق الربياني، وقد ورد في القرآن الكريم سياقات متنوعة من أنواع التعرف لأغراض استدعائها المقام، ومنها التعرف بالوصول، وقد انطوى نظم هذه السورة الكريمية على عدد من الآيات التي جاء التعرف فيها باسم الموصول، ومنها قوله تعالى: «إن الذين كفروا أن تعني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيءًا ووليكهم موم وقعود البَار» (1).

وهذه الآية الكريمية استنادًا إلى حكايته مع دعا به المؤمنون: مـ دون البداية، وسأول الرحمة، وانتظار الفوز يوم القيامة، بذكر حال الكافرين في ذلك اليوم العظيم، على عادة القرآن الكريم في إرداف البشارة بالندارة، وتعقيب دعا المؤمنين بذكر حال المشركين؛ إلـ اء إلى أن دعوهم استجبت (2).

وهذه السورة الكريمية لما كانت سورة التوحيد؛ وذلك لكثره مـ ادة إلى دعاء، ونافحت من أجله، كان الألفا نخطابًا أن يكون الدعاء فيه إلى الوعود، أهـ مـ الدعاء في غيره، والإشارة فيه إلى ذلك، أكثر من الإشارة في غيره، فكانت هذه الآية قاطعة للقول البغيض بما أشارت إليه من فتنة الأموال والأولاد الموجبة للهلاك.

والمراد بـ «... الذين كفروا ...» المشركون عامة، فيصدق على كل من تلبس بهذا الوصف، المنظم جميع الأصناف، على مر الأزمان، فليس مقصودًا به قوم دون قوم، فكل من كفر، يشمله هذا اللفظ.

وقيل المراد بـ «... الذين كفروا ...» وقد نجوان؛ أو اليهود من بني قرينة وبيين

(1) آل عمران آية : 100.
(2) انظر: التحرير والتفوير : 162 / 3.
النضير، أو مشركو العرب(1).

والوجه الثاني لا يناسب القرآن الكريم، الذي هو خطاب للبشـئية جمعاء،
والذي يقتضي أن يكون لفظه موجهاً لكل إنسان على مر العصور، كما أسلفـت
فإحتم على الجنس أنساب خالق القرآن الكريم، وهذه الآية وإن كانت نزلت في
قـوم بأعىهم، فإن خصوص السبب لا يمنع عموم الفظ.
والغرض البلاغي من التعرف بالمخصوص للإشارة إلى وجه بناء الخير، وذكرهـم
بالصلة للتنصيص على حرصهم وتأصل الكفر في نفوسهم.

وكمـا قلت في غير هذا الموضع: المعاني البلاغية في نظام الآيات الكريمـة لا
تتراحم، وعليه قد يكون في الآية الواحدة أكثر من تعرف، كما في سياق هذه الآية
الكريمـة، فكما عرضنا للتعرف بالمخصوص، سنعرض للتعرف باسم الإشارة،
والوضمير في قوله: »أوَلَيْكَ هُمْ وَقُوَّةُ الْثَّارِ».

فالتعرف باسم الإشارة »أوَلَيْكَ...» هنا لاستحضار هـؤلاء الكفراء كـ
كأنهم بحيث يشار إليهم؛ ولبيان بعدهم من رحمة الله؛ وللتنيـه كـذلك إلى أهـم
أحرياء، مما سيأتي من الخير في قوله: »وَمَعْجَمُ وَقُوَّةُ الْثَّارِ».

وتعرف بضمير الفصل »هم...»؛ والإتيان به هنا؛ لإفاءة الاختصاص،
وجعلهم نفس الوقود مباغتة في الاحترار؛ كأن النار ليس لها ما يضرمها إلا هـ.

1 - ومن نظر في قوله تعالى: »وَأَوَلَّيْكَ هُمْ وَقُوَّةُ الْثَّارِ»، يلمحـ أنـه
عطف ومـ لم يفصل؛ وذلك لأن المراد من اليـ قبلها وعيد في الدنيا، وهذه في وعـ]ـ
الآخـرة، بقرينة قـوله تعالى في الآيـة التي تـعـبـها: »كَفَّرُوا سُطُوْنَ".

وخضروا إلى جهنم ورمل الميهاد» (1)...

2 - وانتهاج الجملة الإسمية في قوله: «...(وأولئك هم قوام النار)» للدلالة على
حقق الأمر وتكرره، وإلا فهو للإيضاح بأن حقيقة حاكم ذلك، وأن أحواlek الظاهرة
بمزلة العدم، فهم حاكم كفومفهم في الدنيا وقود النار بأعيانهم، وفيه من الدلالة على
كمال ملبستهم بالدار مالا يغنى (2).

3 - وخصوص الأموال والأولاد في: «أن تغطى عليهم أموالهم ولا أولادهم...» في هذه الآية الكريمة من بين أعلام الدنيا. وذلك لأن الغناء يكون بالغةء بالمال كدفع
الديات والغرامات. ويكون به بالأولاد النصر والقتال، وأولئك من يدافعون عن
الرجل من عشيرته أبناءه، وعن الفقيلة أبناءها.

4 - وقدم الأموال على الأولد؛ لأن بما قوم ما بعدها، وعما المنعة؛ أو لأن
الأموال أول عدة يفرغ إليها عند الخطوب، أو لأن المال في باب المادعة والتقيـرب
والفتنة أول من الأولد؛ ولذلك قدم هنا، وفي قوله تعالى: «وما أموالكم ونـ
أولادكم بالذي تفرموه عندنا ذلـى...» (3).

5 - وأعيد حرف اللفظ ووسط بين الأموال والأولد؛ ليفيد النفي عن كل
حالة، وعن المجزوع، فيكون أصير في بيان المراد، أو لعراقـة الأولاد في كشف
الكراب (4).

6 - وفي قوله تعالى: «...من الله...» إيجاز حذف، حيث حذف

(1) آل عمران آية: ۱۲.
(2) انظر: التحرير والتوبيـر: ۳/۱۷۱.
(3) انظر: إرشاد العقل السليم: ۴/۲۰۳.
(4) سا آية: ۴۷.
المضاف، وتقدير الكلام: لن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله، فحذف المضاف، وذلك لإدخال الرهبة في نفوس الكفار؛ وهذا أبلغ من قولنا مـن عذاب الله.

7ـ وانتصب قوله: «...شياء...» على أنه نائب عن المفعول المطلق، أي:
شيئاً من الغناة، والتنكر للتحقيق، أي: غناة ضعيفاً، غلبة الغناه المهم.
وأما يدخل تحت هذا البحث قوله تعالى: «الذين يعبدون في السراء والضراء...»، والكافرين الغنيمة، والغافلين عن الناس والله يُحب المعصمين).
وقبل الخوض في تضاعيف هذه الآية الكريمة، والغوص على دربها، لا بد من أن أعرض لبعض ماشتهملة عليه من دلالات؛ لأنا المفتاح الذي بواسطته تفتح لنا أبواب المعاني.

ـ۱ «...والكافرين الغنيمة...»: كظم الغنيم: إمساكه وإخفاؤه، حتى لا يظهر على صاحبه، وهو ما خذل من كظم القرية إذا مالها، وأمسك نفها.
قال «المرد»: «فهو تمثيل للإمساك مع الامتلاء»).
ولنشك أن أقوى القوى تأثيراً على النفس، القوة الغاضبة؛ فتشتكي إظهار آخر الغضب، فإذا استطاع إمساك مظاهرها مع الامتلاء فيها، دل ذلك على عرفة رأسخة في النفس، وفرهر لإزادة الشهوة، وهذا من أكبر الأخلال الفاضلة.

ـ۲ «...والغافلين عن الناس...»، العفو عن الناس فيما أسناوا به إليهم، من الأعمال الفاضلة، وهذه الصفة تكملة لصفة كظم الغنيم، كأنما هي اختصاص.

(1) انظر: التفسير الكبير: ۷ / ۱۸۵ ؛ البحر الغنيم: ۳ / ۳۴ ؛ حاشية الشيخ زاده: ۱ / ۶۷ ؛
إرشاد العقل السليم: ۲ / ۲۰ ؛ الفتوحات الإلهيّة: ۱ / ۲۴۵ .
(2) انظر: التحرير والتنوير: ۳ / ۱۷۳.
(3) آل عمران آية: ۱۳۴.
(4) المفتسب: ۸۰ / ۱.

١١٢
وذلك لأن كظم الغيظ قد تعترضه نداءة ؛ فيستعدي على من غاظه بالحق ، فلما جعله هذا الوصف الكريم دل على أن كظم الغيظ وصف منفصل فيه، مستمر معهم ؛ ولذا نرى التعبير جاء بالاسم، وإذا اجتمعت هذه الصفات في نفس سهل ما دعوها لديها .

وتعريف المصدر "الذين..." للجنس ، أي : أنفقوا في السراء والضراء .

والتعريف باللام في قوله : "...المُحسنين" قد يكون للجنس ، فيكون من كظم غيظه ، وعفا عن الناس داخلًا في الإحسان دخولاً أولياً .

وقد يكُون للعهد ، عبر عن من أجل الصفات السابقة بـ "...المُحسنين" ؛ إذناً بأن النعوت المعدودة السابقة من باب الإحسان ، الذي هو الإتيان بالأعمال الصالحة على الوجه الأكمل .

1- وفعلوا : "...ينطقون..." مخوف ؛ للتعميم وذلك ليتناول كل ما يصلح للإخفاق ، أو متروك بالكلية ، كما في قولهم : "يعطي ، ويعن«. 2- وطبع : "...والكاظمين الغيظ وألغافين عن الناس..." على المصدر ، والعدول إلى صيغة الفاعل ؛ وذلك لدلالة على الاستمرار ، وأما الإخفاق ففيه كان أمرًا متحددًا ؛ عبر عنه فيما يفيد الحدوث والانعدام .

3- وعبر كذلك بالفعل المضارع : "...يُحب..." ؛ للدلالة على الحدوث والانعدام والاستمرار ؛ وذلك لأن الحب من الصفات الفعلية في تحدد بتحدد موجبها من العباد من طاعة ، ينجب له الحب ، وتوجب له ضدها .

وقوله تعالى : "وأَلَذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاجِحَةً أَوْ ظَلَّمُوا أَفْسَسْهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَفَقَّرُوا بِذُنُوبِهِمْ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهَ وَلَمْ يُضِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ .

---

يعلّمونُ(1).

لما أخبر الله سبحانه وتعالى أن الجنة للمنتقين، وللمحسنين إلى الغير ومن قلّهم، أخبر أنها من دونهم في الرتبة من الناتبين المحسنين إلى أنفسهم؛ استحلاًباً من رجع عين أحد من المناقفين، ولغيرهم من العاصرين فقال: «وَاللَّذينَ إِذًا فَعَلُوْا...».

وهذه الآية الكريمة نزلت على قول الجمهور في «منهال التحرير» وقد أبى مقبل، لأنه امرأة تشربي منه منيًا؛ فضمها، وقبلها، ثم ندم، وقيل: ضرب عليه عجزتها.(2).

والإيذان بالموصوف (اللذين...)، ليفيد ما هي حيز الصلاة العموم، أي: فعلوا الفواحش، وظلم النفس، وللتعريف بالموصوف هنا فائدة أخرى، وهي الرغبة من الله تعالى في السرير على المذنب، رجاء هدائه، ووجوده إلى الجادة، وهذا بلا شك حيو من فضائحه.

وكل تلك التعرف (...الذينو...); للجنس، كما في قوله: «فَلَن يركب الخيل، وليبس البرد» لا كلها، حتى يخل بما هو المقصود من استحالة صدور معفرة فرد منها عن غيره تعالى(3).

والإيذان بالجمع الخليل باللام؛ إعلام بأن النائب إذا تقدم بالإستغفار يلتقي بغيره ذويه كلها، فيصير كمن لا ذنب له(4).

1 - وفي قوله تعالى: «وَاللَّذينَ إِذًا فَعَلُوْا فَاحِشَةً...» إيجاز بالخِذف، وذلك بحذف الموصوف وإبقاء الصفة، والتقدير: فعلوا فاحشة؛ هذا الخذف أقضى الحرص على خفة اللفظ وخلوه من التكرار الذي يقتضيه ذكر الموصوف.

(1) آل عمران آية 135.
(2) انظر: البحر المحيط: 348، 138.
(3) انظر: إرشاد العقل السليم: 186.
(4) انظر: روح المعاني: 66، 61.
2 - وذكر الظلم بعد الفاحشة في قوله: «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم...» من الإطاب بذكر العام بعد الخاص اعتنا به.

3 - وكذلك في قوله: «...ذكروا الله...»، إيجاز حذف، حيث حذف المضاف، والمفعول: ذكروا وعبد الله، أو عقابه، أو جلاله الموجب للخشية والحياة منه.

4 - «...فاستغفروا لذنوبهم...»، أي بالندم والتفوأ، والفاء للدلالة على أن ذكر الله تعالى، مستطبع للاستغفار لا حالة (1).

5 - ومفعول «...فاستغفروا لذنوبهم...»، الأول مفعول، والتقدير: استغفروا الله لذنوبهم (2).

قوله تعالى: «...ومن يغفر الذنوب إلهه...»، اعتراض بين المعطوفين، أو بين الحال وصاحبه، وذلك لتقرير الاستغفار، والحديث عليه، والإشارة بالوعيد والقبول (3).

1 - والاستفهام في هذا الجزء من الآية الكريمة في معنى النفي، بقرينة الاستثناء منه، والمقصود تسديد مبادرتهم إلى استغفار الله عقب الذنب، والتعريض بالكفرة الذين أخذوا معبوداهم شفعاء لهم عند الرب سبحانه وتعالى (4).

2 - وإيلام هذا التركيب على صيغة الإنشاء دون الإحبار، حيث لم يقـ: وما يغفر الذنوب إلا الله، تقرر هذا المعنى، وتأكيد له؛ كانه قيل: هل تعرفون أحداً يقـ على مغفرة الذنوب كلها صغيرة وكبيرة، دقةً وجلـها غير.

(1) انظر: إرشاد العقل السليم: 2 / 68.
(2) انظر: الدر المصون: 2 / 211 ; روح المعاني: 4 / 61.
الغفور الرحيم(1).

3_ ويفيد قوله تعالى: «...وَمَنْ يَفْقِرُ الْذَّنُوبُ إِلَّا اللَّهُ...»، أي أَسْلَوب
القصر حصر المغفرة في الله سبحانه وتعالى، وقصرها عليه، ولذا أنه لا مفرّع
للذنبين إلا كرهه وفضله، وذلك أن من وسعت رحمته كل شيء، لا يشاركه أحد
في نشرها، كرهما وفضلاً.

4_ وعطف قوله تعالى: «...وَلَا يَكَلِّفُنَا...» على قوله تعالى: «...فَاتَّفَقْنَا
لِذُنُوبِي أُمَّتِي...»، وتأخيره عنه، مع تقدم عدم الإصرار على الاستغفار، رتبة لإظهار
الاعتناء بشأن الاستغفار، واستحقاقه للمسارعة إليه رتبة ذكره تعالى(2).

5_ وأحكم هذه اللطائف الحديث عن حائط هذه الآية؛ قوله تعالى:
«...وَهُمْ يَعْلَمُونَ»، وله السر في التقييد بالحائط هنا؛ لما أنه، أي: الله
 تعالى قد يعلم من لا يعلم ذلك؛ وإذا لم يكن عن تقصير في تحصيل العلم به، وهنا
معلوم من دين الله سبحانه وتعالى بالضرورة أنه تعالى قد عفني عن هذه الأمة الجهل
والسبيان وما استكرهوا عليه، فكان هذه الجملة الحالية جاءت مقررة هذه القاعدة.

(1) انظر: روح المعاني: ٤١/ ٣٦، التحرير والتنوير: ٤/ ٩٣.
(2) انظر: الإرشاد: ٢/ ٨٧.
جه: التعريف باسم الإشارة:

وكلما يكون التعريف بأي، والاسم الموصول يكون كذلك باسم الإشارة، وهو من أنواع التعريف التي وقف معها البلاغيون في مولفاته، حيث قاموا بدراسةً، وتحليل أمثلتها، ووقفوا على مواطن البلاغة فيها، والآيات التي جاءت على هذا الأسلوب، وتلمسوا مواضيع الإعجاز فيها.

فمن الآيات الكريمة التي جاء التعريف فيها باسم الإشارة قوله تعالى: "ذَٰلِكَ مَنْ يُؤْتَىٰ الْعَلَّاقَةَ وَمَنْ يُؤْتَىٰ الْعَلَّاقَةَ فَبَشَّرِهِمْ بِالْحَيَاةِ الْعَلَمَيْنِ وَالْعَلَّاقَةِ" (1). فهذا آية سبحة للعلَّاقَة،صلاحها إلى المرئى وعلم西安市ه، قال تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ الْحَيَاةَ الْعَلَمَيْنِ). يُذَكَّرُ بِعَرْبَىٰ الرَّسُولِ ﷺ، ذكر بعد هذه الآية ما هو كالشرح والبيان إلى تلك العبرة، وذلك هو أنه تعالى بين أنه زَيَّنَ للناس حب الشهوات الجسمانية واللذات الدنيوية، ثم إنها فانية منضدة، تذهب لذاها، وتبقى تبعاً.

وقد يكون الكلام مستأنفاً للبيان حقارة هذه الدنيا بأنفسها، وتزهيد للناس فيها، وتشجيع رغبتهما إلى ما عده تعالى، إنه بيان عدم نفعها للقفرة الذين كانوا يفعلون بها (2).

والمشار إليه بقوله: "ذَٰلِكَ مَنْ يُؤْتَىٰ الْحَيَاةَ الْعَلَمَيْنِ..." جميع ما تقدم من: "النساء، والبنين، والقناعر من الذهب والفضة، والخيل المسوومة"، والإشارة له تأكيد لتخسيسه البعيد من إخلاء ذوي الفهم إليه، ليقطعهم عن الندر الباقي، أو الإشارة إلى بعده عن حد التقرب إلى حضرة الجنة، ولا يخفى أن بعيد هنا بعد

117

(1) آل عمران آية: 14.
(2) آل عمران آية: 13.
(3) انظر: التحرير والتصوير: 178/3.
التعريف في: «...ليثناين...» للجنس، أي: جنس الناس.

1. والتعبير بالنزيين في قوله: «...زيين ليثناين...» كتابة ممّرادًا بها لازم التزنين وهو إقبال النفس على مافي الزرين من المستحسنات، مع سّائر مافي سّائر الأضرار، أي: تحسين ما ليس بخلال الشخص، وذلك لأن مشتتهات الناس تشمل على أمور مقبولة، وقد يكون كثير منها غير مقبول، وفيها كثير من المضار، وتشغل عن كثير من الكمالات، فلذلك كانت كالشيء المزين تغطي نفائسه بالمزنينات.

2. ولفظ «زين» قليلة الدوران في الكلام العربي، وإن كانت حسنة خفيفة.

3. وأهم الزيين في قوله: «...زيين ليلثناين...» للجري على سنن الكبرى، أو لتراجع إليه أئمة التزنين مما كانت في رتبة علوٍ أو دنٍّ، أو لأن الغرض الإعلام بحصوله، أو لملء فاعل التزنين عن إدراك عموم المنطقيين؛ لأن ما يدل على الغرائز والعصايا، لما جعل فاعله في متعارف العموم، كان الشأن إسناد أفعاله للمجهول، كقولهم: «عنى بكذا، واضطر إلى كذا»، لاسيما إذا كان المراد الكثافة عن لازم التزنين، وهو الإغضاء عما في الزرين من المساوئ، لأن الفاعل لم يبق مقصودًا بقحل، والمزين في نفس الأمر هو إدراك الإنسان، الذي أحب الشهوات، وذلك أمر جليل، جعله الله نظام الخلق.

وفي إبادة التزنين بالناس دون الذين آمنوا، ومن فقدهم، إيضاح لتوزيع سّننهم في أقسام القلوب، وأهم ملوك الدنيا، وأتباعهم ورؤساء القبائل وأتباعهم، الذيين هم أهل الدنيا.

3. تعليق التزنين بالحب على خلاف مقتضى الظاهر، وذلك لأن الزرين للناس.
هو الشهوات، أي: المشتتهات نفسها، لا حياً، فإذا زينت فهم أحبها: فإن الحب ينشأ عن الاستحسان، وليس الحب بمصير، ولا يفتني أن هذا إيجاز بديع، أغنى عن أن يقال: زينت الشهوات، فأحبها، فما أبعده من نظم (1).

و«...الشهوات...» هنا جمع شهوة، وهـى الأشياء المشتتهات، وأطلق الشهوات على الأشياء المشتتهة علة وجه البالغة، يقال: هذه شهوة فلان، أي: مشتهاه.

وفي تسميتها بهذا الاسم فائدتان: أولاهما: أنه جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كوكبا مشتهها، محدرة على الاستمتاع بها.
والثانية: أن الشهوة صفة مستفزة عند الحكماء مذمومة، من اتباعها فقد شهد على نفسه بالبهيمة (2).

و- فمن ينظر في هذه الآية الكريمة، يرى أن الله قام بالإتيان بـ هذه المشتتهات مجملة، ثم أتي بها مفصلة، وهذا إطناب زاد النظر إيضاحاً، ونلاحظ كذلك أن الله سبحانه وتعالى عندنا أورد هذه المشتتهات التي بما مرتية الأهم فألأم، فقد أنهما (أولاً...) (النَّسَاء...)، وإنما قدمنه؛ وذلك لأن الإنسان يزيد أكثر، والاستناده فمن أتٌ؟ وقد صور الله تعالى هذا أبلغ تصوير في قوله تعالى في سورة «السُّمُوم»، فقال: (وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا يَسَكَّنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ نَيْكَمْ مَسْوَدًةً وَرَحْماً) (3)، وما يؤكد ذلك أن العشق الشديد الملفق المهلك، لا يكون إلا في هذا النوع من الشهوة، وحسن جبال الشيطان قال: (ما تركت بعدي فتيه.

---

(1) انظر: التحريج والتنوير: 3/179.
(3) الرمآية: 21.
أضر على الرجال من النساء (١)؛ وقيل: لأن فيهن فتنين، وفي النبي فتنتين، وهن سبب في جمع المال من خلال وحشة، ولأولاد يجمع لأجل المال، فلذلك ثبت الحك تبارك وتعالى بـ "(...اليتين...)
قال النبي ﷺ: (الولد مخلصة مهينة) (٢)، ولأنهم فروع منهن، وثمار نشأهن عليها، و(...اليتين...)
قيل: يشمل الذكور وإناث وإنما غلب التذكير على عادة العرب، وقيل: الذكران فقط، وذلك لعدم الاطراف في حب النساء، ودعت على الأمور؛ لأنها أحب إلى المرء من ماله.
وأما تقدم المال على الولد في بعض المواضع، كقوله تعالى: (....أكله...)
أو: (أو لولا فتنتها...)
فهو راجع إلى الولد، وهو في هذه الآية الفتنة، فافتن الرجل بالمال أشد، فلا مال لا يركب يفوق الإنسان في حله، وترحاله، بينما الافتتان بالولد أقل لكونه في وقت معين، ولأن شقاء الإنسان يفقد ماله أبلغ منه شقائه بفقد ولده.
ثم أتي بعد ذلك بذكر تمام اللذة، وهو المركب البهي من بين سائر الحيوانات والمركبات، ثم أتي بذكر ما يحصل به جمال حين ترتحلون وحين تسرحون، ثم ذكر ماهه قوامهم وحياة بنيهم، وهو الزرع والثمر (٣).
ومن ينظر في هذا النظم الروائي، يلاحظ أنه لم يعرض ليـ النسواء إلى الرجال حيث ذكر ميل الرجال والنساء، وذلك - والله أعلم - لأن ميل النساء إلى الرجال أضعف في الطبع؛ أو لأن في عدم ذكرهن ستراً فين، كما أخفى أمر حواء

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التكافح (٥٠٩٦)، ومسلم في كتاب الذكر (٩٧ - ٢٧٤) م.
(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب الإنسان (١٣٧ - ٧٩)، وابن ماجة (٤٣٣ - ٤)، وابن عبد الله في التمهيد.
في ذكر العصبة لأدم، حيث ذكر آدم وحده، وأعرض عن ذكرها، فقال:

»...وعـَيْصى آدم رَبّهُ فـَغَـبَـيَّ« (١)، فأخفاهما لما في ستر السحر من الكرم، والله
سبحانه وتعالى حكي كريم.

وفي حكم الآية الكريمة يقوله: »...وَاللَّهُ عَـنْـدَهُ حُسَـنُ الْمَـلَـكِ« دلالة على أن
ليس فيما عدد غاية حبيبة.

وفي تكرار الإسناد يجعل لفظ الجلالة مبتدأً، واستند الجملة الظرفية إليه سبحانه
وعالى، زيادة تأكيد وتفخيم، ومزيد اعتناء، بالرغيب فيما عند الله عزّ وجل من
النعيم المقيم، والترهيد في ملاذ الدنيا وطيبها الفانية.

ومن ينظر في نظم هذه الآية الكريمة يرى أن في الآية فن مراماة النظر، وهو أن
يجمع الشاعر أو النائر بين أمر وما يناسبه، مع إلغاء ذكر التضاد؛ لتحجج المقابلة
المطابقة (٢)، وقد جمع سبحانه في هذه الآية الكريمة معظم وسائل النعيم الآيلة بالمرء
إلى الانفصال في الفتنة، والانسياق مع دواعي النفس الجموح، وقد زينت للناس
واستهوهم بالتعاجيب والمفاتن أبلاء لهم.

وأما يدخل تحت هذا البحث، قوله تعالى: »فَمِنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَوَلَدَ كَيْنَ مَـمْ
الْفَـيْسُوقُنَّ« (٣).

بعد أن ذكر الحق ببارك وتعالى أنه قد أخذ ميثاق النبيين، إذا خرج النبي، وهم أحياء؛ ليؤمن به ولينصره، وعلى ذلك أخذ عليهم إصره؛ بين تعالى في هذه
الآية الكريمة، أن من خالف وتوالى ونقض ما عاهده عليه فهو فاسق، مستحق لغايته الدم.

١٨١

(١) طه آية: ١٥١.
(٢) انظر: نظم الدورو : ٤ / ٢٧٠.
(٣) انظر: الإرشاد: ٢٠ / ٤٩٨.
(٤) انظر: الإيضاح: ٤٨٨.
(٥) آل عمران آية: ٨٢.
الإشارة في {٨٠} للميثاق، والتعبير باسم الإشارة البعيد؛ لتفحيظ الميثاق.

ولما كان التوالي ظاهرًا ناسب ذلك مراعاة لفظ {٨١ مثناً}؛ لأن اللفظ ظاهر، ولما كان الفسق باطنًا؛ لأنه يمس العقيدة الباطنة ناسب ذلك مراعاة المعني فيه؛ ثم وافق ذلك رعاية الفاصلة، وعلى ذلك ورد قوله تعالى: {وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَنا بِاللهِ وَبِآيَاتِنَا اِلَّا مَنْ كَانَ فِي الْقُلُوبِ سَقَطَوْا} (1)، وقوله: {وَمَنْهُمْ مِنْ يَقُولُنَّ اَنْذَنَّ لَيْنَا تَقُلُّنَا آلاً فِي الْقُلُوبِ} (2).

والإشارة باسم الإشارة الدال على البعد؛ للدلالة على تراكي أمرهم في السوء وتماديهم فيه، وبعد منزلتهم في الشر والفساد، أي: فأولئك المتولون النصفون بالصفات القبيحة.

فالتعريف باسم الإشارة في هذه الآية الكريمة، للتبيين على أن المشار إليه المسند إليه، وهو {٨٠ مثناً}، المعقب بوصف وهو {٨٠ تولى...} حذر بما ذكر بعد اسم الإشارة، وهو الوصف بالفاسق.

١ - وقد استفيد من هذا الأسلوب، وهـو التعرف باسم الإشارة: {٨٠ فَأَذَّنْ أنْ آتِكَ...}، والتعريف في {٨٠ الفاسقون}؛ الخصبر تعريف جزئي الجملة المسند، والمسند إليه، ويكون ضمير الفصل للتوكيذ وذلك للمتالجة؛ لأن فسقهم في هذه الحالة أشد فسقًا؛ فجعل غيره من الفسق كالعدم.

٢ - ومن ينظر في سياق الآية يلاحظ أن الظرف لم يقرر يجيؤ في قوله: {٨٠ تولى بعد...} كما هي العادة؛ وذلك ليبيان أن المستحق لغاية الدم من اتصـ لولي بالموت وهذا المعنى، لا يستفاد إلا من إسقاط حرف الجر (3).

(1) البقرة آية : ٨٠
(2) التوبة آية : ٤٩
(3) انظر: نظم الدور : ٤٧١ /٤٧١
وكذلك قوله تعالى: «فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ مِنْ بَعْدَ ذَلِكَ فَأَوْلَٰئِكَ هُمُ الطَّالِبُونَ»(1) .

الافتراء: الكذب، وهو مرادف الاحتمال. والافتراة مأخوذ من الفرّي، وهو قطع الجلد قطعة؛ ليصلح به، مثل أن يخذي النعل، ويصلح النطع، أو القرية.

الافترى: افتَرَى من فرّي لعه لإفادة المبالغة في الفرّي، بقله افتَرَى الجلد؛ كأنّه اشتهد في تقطيعه، أو قطعته تقطيع إفساد، وهو أكثر إفادة افتَرَى. فأطلقوه على الإخبار عن شيء بأنه وقع، ولم يقع اسم الافتراة معنى الكذب؛ كان أصله كتابة عن الكذب وتميم، وشاع ذلك حتى صار مرادفاً للكذب.

ونظيره إطلاق الاحتمال على الكذب، فالافتراة مرادف للكذب، وإضافته بقوله هنا: «... الكَذِبَ...» تأكيد للافتراة(2).

والتعريف في «... الكَذِبَ...» لتعرف الجنس، فهو كقوله تعالى: «افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا مَّ بَيْنَهُ مَّ حَيَّةً...»(3) ، وانتصبه «... الكَذِبَ...» هنا على أنه مفعول مطلق مؤكد لفعله(4).

والتعريف باسم الإشارة: «... فأولْكِ هُمُ الطَّالِبُونَ»؛ لبيان أن ماذكر بعده من أوصاف، فالمستند إليه جدير باكتسابه من أجل تلك الأوصاف، وهو هنا افتِرَاء الكذب على الله تعالى؛ وما فيه من معنى البعد، لإلقاءه بعد منزلتهم في الضلال.

وذلك قوله تعالى: «أولْكِ جَزَّائِهِمْ مَغْفُوراً مِّنْ رَيْهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْعَلُونَ»(5) من تحتها اللاهب، خالدين فيها ونعم أجل العاملين.

(1) آل عمران آية : 94.
(3) سبأ آية : 8.
(4) انظر التحري والتفسير : 10 / 10.
(5) آل عمران آية : 136.
فألاق برك وتعالوا لما أتم وصف المنتقين واللاحتقين، وهما الثمانون، قال منهارًا يجزاؤهم الذي باذروا إليه، وسارعوا له من المغفرة والجنة؛ فقال: "أوَلَبَنَّوكَ جَزَائُهُمْ مَغَفُّرَةً مِنْ رَبِّنَا رَجَاءً...".

وأظهر إليهم باسم الإشارة للبعيد، وذلك إفادة أن المشار إليهم، قد صلى الله عليه وسلم أخبروا بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة؛ لأجل تلك الأوصاف التي استوجبوا الإشادة لأجلها، والإشارة بأياده البعيد؛ تعظيمًا لشأنهم، وللإشعار بعيد مرئيهم، وعلو طبقتهم في الفضل.

١- والتكبير في "مغفرة..." للتعظيم، أي: مغفرة وأي مغفرة؛ كائنة من الله سبحانه وتعالى، والتعرض لعنوان الروبية بعدها "هُمْ وَبَعْضُهُمْ..." مع الإضافية إلى ضميرهم؛ للإشعار بعلة الحكم والتشريف.

٢- وأما التكبير في "جَنَّات..." فيحمل التعظيم أو التقليل؛ فمن جعل قوله تعالى: "أوَلَبَنَّوكَ جَزَائُهُمْ..." الآية استثناءً، فالتكبير في "جَنَّات..." للتعظيم، وأما من جعل قوله تعالى: "أوَلَبَنَّوكَ جَزَائُهُمْ..." خبراً للقوله تعالى: "وَالذَّينَ إِذَا فَقَعَلُوا فَاحْشَاءً أُوْلَٰٓذَٰكَ أُلْغِيَّتْهُمْ..."، فالتكبير للتقليل؛ فهذه الجنة أقل من الجنة المذكورة سلفًا في قوله: "وَسَارَعُوا إِلَى مَغَفِّرَةِ مَسِينٍ رَبِّكَمْ وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أَعْدَتْ فَلِلْمُتَّقِينِ"(١).

ويرى صاحب روح المعاني، أن هذا التوجه فيه بعد وتكليف. فالأول جعل الآية استثناءً؛ وذلك للتبعيد بين المبتدأ والخبر، وذلك مما يشكل على كثير من القراء(٢).

١ - آل عمران آية: ١٣٣.


3
واستناد الجري إلى الأذان في قوله تعالى: 
"وَتَجَزَّرُونَ مِنْ تَحْيَتِهَا 
الْجَانِبَةَ ..." مجاز عقلي (1)، على طريق استناد الفعل إلى المحمل، الذي بلبله، فالعلاقة المكانية؛ وفائدة ذلك المبالغة بأن الحال قد مالاً احلل، حين إنه لكثرته يوهم من يراه بأن الحال يتحرك.

فوقه تعالى: 
"وَنَعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ" تدلل إنشاء مدد الجزء، ففيد مزيد تأكيد; وذلك للاستناد بذكر الوعد.

1
والمخصص بالمدخل محدود تقديره: ونعم أجر العاملين ذلك، يعني المغفرة والجنات، وهذا إيجاب حذف، والواو للعطف على جملة 
"جَوَّاهُمْ ..." فهو من عطف الإنشاء على الإجبار، وهو كثير فصيح، وفي هذا حرف للقاعدة البلاغية السيقية، تمنع من عطف الإنشاء على الأحبار والعكس، كما في باب "الفصل والوصل".

2
ويقال الفعّامب عن ضمير الفاعل، فلأن الأصل: ونعم هو أي: جزاؤهم إيجاب إيجاب هذا الوعد، وتصوير صورة العمل في العمالة تنشيطاً للعامل، ولأنه وعد للعامل بما عمل، وذلك للترغيب في الطاعات، والرجوع عن المعاصي (2).

3
والتعريف في: "...العاملين..." للعنهد، أي: ونعم أجر العاملين هذا.

(1) المجاز العقلي هو إسناد الفعل أو مالي معناه إلى ملابس له غير ما هو له بناءً. وهذا النوع من المجاز تستعمل فيه الألفاظ المفردة في مواقفها الأصلية أحياناً، ويمكن انجزه فيها على طريق الإسناد، وقد تعزف المقدمن من اللغويين إلى هذا النوع من المجاز، وإن لم يشيروا إلى اسمه، فقد أشار إليه الموردة وذكر بعض أمثلته، وآين فارس، وظل هذا النوع من المجاز مختطفاً بالمجاز اللغوي، حتى جاء إمام البلاغيين عبدالله النجاحي، فقام بفصل عنه، وأولاه تعبيره، ومنهما: مجازاً حكماً وإنساناً مجازاً ومجازاً في الإنسان، بينما اقتصر السكاكين والخطيب على تسميته بالمجاز العقلي.

(2) انظر الإرشادات: 1 / 47، وروح المعاين: 44 / 64، التحرير والتدوير: 95 / 96.
الجزاء، وهذا تفضيل له؛ وللعمل الجائز عليه، أي: إذا كان لأصناف العاملين أجور، كما هو المتعارف؛ فهذا نعم الأجر للعامل، وكفء به (1).
4—وفي تعليم...ألعاميلين...»، وإقامته مقام الضمير؛ وذلك للدلالة على حصول المطلوب للمذكورين بطرق برهاني واضح لكل من ألقى السمع.

(1) انظر: التحرير والتنوير: 4 / 95.
د: التعرف بالضمير.

ومن أنواع التعرف التي عرض لها البلاغيون التعرف بالضمير، وهو مختص كغيره من أنواع التعرف بالمسند إليه، ينطوي هذا النوع من التعرف على كثير من النكتات والطائفة، التي لا يمكن أن توصلها إلا عن طريقه.

وقد كان لعلماء التفسير وقفاً مع هذا الأسلوب في كتاب الله سبحانه وتعالى، ومن الآيات التي وقفوا معها في كتاب الله قوله: "إن هَذَا لَهُوَ الْقَصْصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَّهِ إِلَّا الَّذِي أَنْعَمَ عَلَى الْكَافِرِينَ" (1).

وقول الحق تبارك وتعالى: "إِن هَذَا لَهُوَ الْقَصْصُ ..." هل هو متصل بقوله:

» فَنَفَّذَحُ السَّيِّدَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ"(2) أَوْ لَا؟

ويمكن إيجاز الجواب عن ذلك بأنه متصل بما قبله، وعلى هذا لايجوز الوقوف على "...الكَافِرِينَ..."، وتقدير الآية الكريمة على هذا التوجه: فنفذح لعنّة الله على الكاذبين بأن هذا هو القصص الحق، وعلى هذا التقدير كان حـقـ" إن " أن تكون مفتوحة، إلا أنها كسرت؛ للدخول الالم في قوله: "...لَهُوَ...").

وهناك من يرى بأن الكلام تم عند قوله: "...الكاذبين..."، ومابعده جملة أخرى مستقلة، غير متعلقة بما قبلها.

وأما كان في علم الله سبحانه وتعالى بأن المجادلين في أمر عيسى المسيح سيمكنون عن المباهلة(3) بعد المجادلة؛ خوفاً من الاستفصال في الدنيا، مع مايذكر لهم الله مـن العذاب في الآخره، وكان في كفهو عن ذلك دليل قوي على بطلان مايدعونه لكلّ من حضر أو سمع، حسن تعقيب قوله بهذه الآية.

______________________
(1) آل عمران آية : ۶۲ ، ۶۳ .
(2) آل عمران آية : ۶۱ .
(3) انظر: التفسير الكبير : ۸۳ / ۸۴ الهـ المصون : ۲ / ۱۲۳ .
(4) المباهلة: أي باهل بعض القوم بعضًا مباهلة، أي: اجتمعوا، فقدعوا، فاستولوا لعنة الله على الظلم.
ومن ينظر في نظم هذه السورة الكرمة يلاحظ بأن الله تعالى لما بدأ أول السورة بالإحبار بوحدانيته مستندةً على ذلك بأنه الحي القيوم تصريحاً، حتى يمثل ذلك إشارة وتلوين.

وتعرف جزئي الجملة المسند والمسنود إليه في هذا التركيب في قوله: «...إن هذا لهما القصر الحق...» يفيد القصر الإضافي، والحق وصف للقصر، وهو المقصود بالإفادة هنا، أي: إن هذا هو الحق لا مايدعيه النصارى من كون المسيح. إنما وابن الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وإبراد ضمير الفصل في هذا التركيب المقلبي، أفادنا التأكد، ودخلت لام الابتداء عليه؛ وذلك لزيادة التقوية التي أفادها ضمير الفصل.(1)

وكذلك التعرف بالضمير في قوله تعالى في آخرين الآية: «...وإن الله لهُ العزيز الحكيم...»، فهو هنا أفاد تأكيد الحصر وتقريمه وذلك عند خصص العزة والخمة في الله سبحانه وتعالى، والمقصود إبطال ألوهية المسيح عيسى بن مريم عليه حسب اعتقاد النصارى، وهم المخاطبون هنا؛ فإنهم زعموا أن المسيح قنله اليهود؛ وذلك ذلة وعجز لابلطمان مع الألوهية، فكيف يكون إلهًا وهو غير عزيز، وهو محكوم عليه، وفي هذا أيضاً إبطال ألوهيته؛ لكونه محتجاً إلى من ينقده متن أبدى الظالمين.(2)

1 - والتصريح بـ(«...من...») الزائدة في قوله: «...وما من إله إلا الله...» للاستغراق وللمعوم؛ تأكيداً للرد على النصارى في تلبثهم، وتحقيقاً للتوحيد. قال «الوشنخيزي»: «و(«...من...») في قوله: «...وما مـنـ إله إلا الله...» مترولة البناء على الفتح في «لا إله إلا الله» في إفادة معين الاستغراق،...»

---


والمراد الـ رد على النصارى في تلبيةهم (1).

2 - وإسناد العلم بالمفسدين إلى صريح لحفظ الجلاءة دون ضميره في قوله تعالى:
«...فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالمُفْسِدِينَ»; لتربي المحجة؛ ولبدل على أن التولي عن الحجج والإعراض عن التوحيد، إفساد للدين والاعتقاد المؤدي إلى فساد النفس، بل إلى فساد العامل.

والجملة جواب الشرط في الظاهر، لكن المعنى على ما يترتب على علـ مه بـ «...المُفْسِدِينَ» من معاوية هم، فالكلام سبق للموعـ د (2).

3 - وفي نظم هذه الآية الكريمة النفاثة من الخطاب إلى الغيبة؛ وذلك لأن أصله»...تولوا...» تولوا، فكان مقتضى السياق في قوله: «...فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالمُفْسِدِينَ» فإن الله عليكم بكم، ولكنه عدل إلى الغيبة للإعراض عنهم وتسجـ ر صفة الفساد عليهم.

أو يكون »...تولوا...» فعلاً ما ضيأ ؛ ف يكون فيه، وما بعده، وهو قولـه: «...فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالمُفْسِدِينَ» إعراض عن خطاهم، في تكون في التسول مشاكلة

اللغظ والمغنى.

(2) انظر: أنوار التولي: 2/ 63؛ النذر المصنون: 2/ 124؛ الإرشاد: 2/ 47.
هـ التعرف بالإضافة

ومن أنواع التعرف التي تعرض لها البلاغيون في مؤلفاتهم، التعرف بالإضافة وهو مختص كغيره من أنواع التعرف بالمسند إليه، وقد ذكر البلاغيون كثيرًا من المزايا لهذا النوع من التعرف، وقد جاءت بعض من آيات هذه السورة الكريم على هذا الأسلوب من أساليب التعرف.

فقد جاءت الإضافة لتعظيم المضاف كما في قوله تعالى: «من قُبُل هُذى يَلُبَّسُ وَأَنْوَلَ الْفُرُقَانَ إِنَّ الْذِّينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَرِيِّسُ ذُو الْيَمِينِ» (1) حيث أضاف النظم الكريم الآيات إلى الله سبحانه وتعالى، وهذه الإضافة أكسبت المضاف وهو «آيات» تعظيمًا؛ وهذه الإضافة جاءت لتبين فضادة الأمور الذي وقع فيه هؤلاء القوم، وذلك بتذكيرهم ما أرسل به هذا النبي ﷺ الآيات، وترداد شناعة مسألة ما كادوا به منسوب إلى الحق سبحانه وتعالى، الذي هو من العظمة يكمن كونه منسوبًا إلى الحق سبحانه وتعالى، وكفى بذلك تعداءًا وظفًا.

وقد تكون الإضافة لتعظيم المضاف إليه، كما في قوله تعالى: «الذِّينَ يَقْولُونَ رَبّنَا أَنَتَ أَعْلَمُونَ دُنْوَيْنا وَقُنَا عَذَابَ النَّارِ» (2) حيث أضاف لفظ الرس إلى ضمير المؤمنين في قوله: «...ربنا أَعْلَمُونَ...»؛ وذلك لتعظيم المضاف إليه، وهـ أهـل الإيمان.

كذلك اشتملت النظم الرمائي الكريم في هذه الآية الكريما على إضافة أخرى؛ وذلك في قوله: «...ذُنُوبَنا...»، وهذه الإضافة تشعر بمدى الندم الذي يكاد يلبثهم قلوبهم، ويأتي على نفوسهم جراء ما ابدروا من تقصير بجاه رحمة سبحانه وتعالى، وكذلك تكشف مدى الشفافية التي تكونها قلوبهم، فهم رغم أهم موعدون بالجنة إلا أنهم في خوف من ذنوبهم أن توبقيهم.

(1) آل عمران آية : 4
(2) آل عمران آية : 16
وقد تكون الإضافة لإزالة المعنى المجازي، وإثبات الحقيقة، كما في قوله تعالى:

(1) ﴿هَوَيْنَى الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مَّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَأُخْرَۢي مَّشَاءَهُمْ فَأُمَّانِي الْذِينَ يَقُولُونَ مَا تَأْوِيلُهُ وَمَا يُعَلِّمُونَ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يَكْفِ يَأْتِيهِمْ مِنْ كُلِّ فَتْحٍ وَلَمْ يَكْفِ يَأْتِيهِمْ مِنْ عِبَادَتِهِ رَبِّنَا وَمَا يُذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِۢ﴾.

فُقَدْ حَاجَتِ الْإِضَافَةَ فِي قُولِهِ: (1)... مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا... إِنَّهَا حَقِيقَةٌ، وَلَيْسَ بِمُجَازٍ،

والإضافة في هذه السورة لاتكاد تخرج عن هذه المعاني.
ثانيًا: التفكر.

التفكير من أساليب العرب في كلامها، وليس له مـن أدوات إلا خلوه مـن أدوات التعريف، وهذا لا بد من التثبيط إلى أن النكرة لايتخدع الغرض منها إلا من خلال السياق الذي هي فيه، وقد أصل العلمي DALATEYD النكرة عند حدوثه عن قول الله تعالى: (وـقال: بـنـافـرّن أـلفـا، وـنـالـلـهُ مـنـهـا هـو إـلـة وـأـجـدـدُ). فالـسـؤال: (فـإـن قـلت: إـنـا جـمعـا بـيـن العـدد والمـعـدد فـيما وـراء الـواحـد والأـثـرـين، فـقـلـوا: عـنـدي رجـال ثـلَاثـة، وـوـفـأـرـض أـربـعـة؛ لـأن المـعـدد عـار عـن الدـلالة عـلى العدد الخاص)، وأـمـا رجـال ورـجـال، وـفـرس وفـرسان، فـمـعـددـان فـيـهـا دـلالة عـلـى العدد، فـلا حـاجـة إـن قـلـت: رـجـال وـاحـد، ورـجـالان أـثـر، فـمـا وـجـه قـولـه: (إنـهُ أـلفـا، وـنـالـلـهُ مـنـهـا هـو إـلـة وـأـجـدـدُ). ؛قلـت: الـاسم الحاـم لـمـعـين الإـفرـاد والـثنـيـة دـال عـلى شـيـئ، عـلـى الـجـنسية وـالعـدد المـحـصوص، فـإذـا أرـيدت الدـلالة عـلـى أن المعـين بـه مـنـهـما، وـالذي يـساق إـلـى الحـدـيث هـو العدد شـعـف عـمـل يـؤكـده، فـذـلـك بـه عـلـى الـقـصد إـلـى الـعـنايـة بـهـ. أـلا تـرـى أـنـك لـو قـلـت: إـنـا هـو إـلـه، عـمـل تـوـكـدـه بـواحـد، لـم يـحـيـن، وـخـيـل أـنـك تـبـثـت الإـلـهـيـة عـلـى الـوـحـدـانـة. (2).

فـكـلـمـة (رـحمة، وـحـمـة، وـحـمـة، وـحـمـة، وـحـمـة، وـحـمـة) مـثـلـة المـنـكرة مـن قـولـ الحـق تـبـارك تـعـالـاء: (رـبـنـا لآـكنـوـع قـلـوـبنا). (2) بـعـد إذ هـجـتـنا وـهـبـنا لـنـا مـن لـذـكـى رـحـمـة إنـهُ أـلفـا الوهـاب. (3) تـدل عـلـى مـعـنـا الـجـرـد، الـذي جاـبـه عـلـيـه في لـغـة الـعرب، وـالمـقـام الـذي ورـدت فـيه، هو الـذي أكـسـب هـذه النـكرة مـعـين أـخـر، وـهو الـتعـظـيم في هـذـا الـمـوـضـع، أي أـطـلـب مـنـك رـحـمـة وأيـة رحـمـة، أـطلـب رحـمـة مـن لـذـكـى، وـتـلـبـق بـجـلاـلـك، وـذـلـك بـوـحـب غاـيـة العظـمـة، بـمـعـين أـن أـيسر شـيء مـنها يـكـفـي المـوهـوب.

(1) النحل آية : 51
(2) الأعراف : 210 / 10
(3) آل عمران آية : 8

132
التأكيد بقوله: «يمن لنذلك»؛ تنبيه للعقل والقلب والروح على أن المقصود، وهو نيل رحمة الله سبحانه وتعالى، لايحصل إلا من يملقه، وهو الحق سبحانه.

2- وسألوا الرجمة هنا بلغت الهمة، فقالوا: «...وَحَبَّتْ لَنَا مِنْ لَدْنَا رَحْمَةً...» المشعر بالتفاضل والإحسان إليهم، من غير سبب ولاعمل ولامعارضـة؛ وذلك لأن الهبة لا تكون على سبيل المعاوضة.

3- لما كان المسؤول وهو الجنة صادراً عن رحمة الله سبحانه، صح أن يسألوا الرجمة؛ وذلك إجراء للسبب بجري المسبب، على سبيل المجاز المرسل.(1)

4- وتأخير الفعلون «...رَحْمَةً...» عن الجارين «...لَنَا مِنْ لَدْنَا...» اعتناء بالبلد، والتشويق إلى المؤجر؛ وذلك لأن مختصته التقدم إذا أُحر تبقى النفس البشرية مترقبة له، مشغوفة به ومعرفته، لاسيما عند الإشعار بكونه من المنافع باللبلام، فإذا أورد تمكن في النفس حق التمكن.

5- والجاران («...لَنَا مِنْ لَدْنَا...» كلاهما متعلق بـ«...وَحَبَّ...»)، وتقدم الأول؛ اعتناء به، وتشويقًا إلى الثاني.

فوقه تعالى في صدر الآية الكريمة: «فَرِبْنَا لَأَتْرِعْ قُلُوبُنا بَعْدَ إِذَ هَذِهِ...»،

اشتمل على جملة من اللطائف منها:

1- حذف حرف اليداء في قوله: «فَرِبْنَا...»، وكثيرًا مايجزئ حذف لفظ اليداء في القرآن الكريم، ولايكاد يستخدم حرف اليداء مع الرب، بل ينادي مجردًا من حروف اليداء، وله في ذلك تعريحاً عن شعور الداعي بقربه من ربه سبحانه وتعالى.

ولم يذكر حروف اليداء مع الرب إلا في موضعين من القرآن الكريم:

الأول: في قوله تعالى: «وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِ إنَّ فُؤُومِي أَتَحْدِّثُوا هذَا الْقُرْآنَ»

(1) انظر: البحر الطيف 373.27.32.
والذي في قوله تعالى: "وَقَيلَ بَيْرَبٌ إِنَّ هُوَ نَآءٌ فَوَمَّا لِيُؤْمِنُونَ"(1).

وقد عبر بأياده البعد في الآية الكرام الأولى هضماً لنفسه مبالغة في التضلع،

وهذا يشير مضى موقف الكفر من هجر القرآن(2).

وأما في الآية الثانية فقد روعي فيه وفي قوله: "وَقَيلَهُمْ..." تصوير الحزن الذي
يعتبر قلب النبي ﷺ، والذي صار في ملازمته وعدم انفكاكه حالاً من الأحوال
الذالك على وجه قيله، وإنكرالنفحة لما ذلت عليه كسرة المصدر وياوته المجنسة لما،
والتعبير بقوله: "...بَيْرَبٌ..." دال على ذلك بما تفيده "بَيْاً" الدالة على
بعده(3).

وعلى هذا لا أوافق الدكتور "أحمد بدوي" حينما قال على حديث
علمه: "وعلى كثرة مانودى الأرب في القرآن، لم أعلم عليه إلا في تلك الآية-
الكرامة..."(4)، ثم قام بإبراد آية الصرف التي قمت بإبرادها سابقاً.

2 - وكثيراً مايعقب البناء النهي، وهو أحد الأساليب المتعدة في القرآن الكريم،
فبالعادة غالبًا مايعقبه أمر أو نفي، وقد يكون استفهامًا، والنهي هنا قد خرج عن-
معناه الأصلي إلى معنى مجازي، وهو الدعاء على سبيل التضلع والخصوع؛ وذلك-
لأن النهي هنا صادر من الأدنى إلى الأعلى، وإذا كان الأمر كذلك، فقد خرج عن-
معناه الأصلي. أما إذا كان صادراً من الأعلى إلى الأدنى فهو على حقيقته.

3 - ولهما كان في صلاح القلب صلاح لسائر الجسد، وفي فساده فساد سائر

القرآن آية: 300.

الصرف آية: 88.

نظم الدور: 5/313.

المصدر السابق: 7/60.

من بلاغة القرآن : 129.

١٣٤
الجسد، وكان ثبات الإنسان على سنن الاستقامة من غير عوج أصلًا مما لم تجر عادته
تعال لغير المعصومين، قال حافظ الجار، منسندا الفعل إلى ضمير الجملة: »...بُعْدَه
إذ هَذَيْتَنَا...«.

وتعتبر سبحانه هذه الآية الكريمة بمائجة بديعة، اشتملت على بديع إعجاز القرآن
الكريم فقال جل ذكره في عهده: »...إِلَّا أَنتُ الْوُهَابُ«.

1- وحَلْمَةً («إِلَّا أَنتُ الْوُهَابُ») جمعت جملة من التأكيدات، وهي:
»إنَّا، و»الجملة الإسمية«، و»طريق القصر«؛ وذلك للبلاغة؛ لألح كمال الصفة
في الله تعالى؛ وذلك لأن هبات الناس بالنسبة لما أفاض من الخيرات شيء لايعبأ به.
2- والإتيان هنا بصيغة المبالغة على »فعال« »...الوُهَابُ«، مع أحمد قالوا
وهوب»؛ لزيادة المعنى؛ لأن زيادة اللين تدل على زيتادة المعنى، كما ذهب إلى
ذلك بعض البلاگين.

3- وفي إطلاق »...الوُهَابُ« هنا؛ ليتناول كل موهوب، وفيه دلالة كذلك
على أن الهدى والضلال من قبله تعالى، وأنه متفضل بما ينعم به على عباده من غَيْر
أن يجب عليه شيء سبحانه وتعال (1).

وما قبل عن التنكير في كلمة »...رَحَّمَهُ« في الآية السابقة، يقال عن التنكير
في كلمة »...رَضِوَانَ...« من قول الحق تبارك وتعالى: »قَلْ أُوذَنَّكُمُ بِجَنَّتٍ مَنْ
ذَلَّكَ اللَّدِينَ أَتَقَا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْـيَّاهَا الْأَثْـَـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْ~
مَطْهُرَةٍ وَرَضِوَانٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِرُّ يَبْلِغُ الْعِبَادَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا آمَنَّا فَغَفِرْنَا دُنَيَّنَا وَإِنَّا عَذَابُ النَّارِ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالقَانِينِ وَالصَّفَّاءِينَ وَالْمُتَّقِينِ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بالأنبَاء« (2).

(1) انظر: إرشاد الفعل السليم : 2 / 9.
(2) آل عمران الآيات : 15 ، 16 ، 17.
الفَكَّلِمَةَ تَدُلُّ عَلَى مَعَانِي الْحَجرُ الَّذِي هُوَ الرَّضُوَا، لِكَانَتْ عَظِمَّةً أَخَرَ هُوَ عَظِمَةُ هَذَا الرَّضُوَا وَفَخَامَهُ، لَوّْا ضَرْحاً لَا يَكُنَّها كَنَّهَا وَلَا يَعْلَمُ قَدْرَهُ.

وَقَدْ أَكَّدَ عَظِمَةُ هَذَا الرَّضُوَا بِبَوْصَفَهُ بِنَفْسِهِ "٥٠٠٠ "مِنَ اللَّهِ"، وأُظْهرَ اسْمُ الجِلَالَةِ فِي قُولُهُ "٥٠٠٠ وَرَضْوَانُ مِنَ اللَّهِ"، دُونَ أَن يَقُولَ الْبَارِيُّ سَبِيبَهُ وَتَعَالَ "٥٠٠٠ وَرَضْوَانُ مِنِّي". أَيْ: مِنْ رَحْمَةٍ وَذَلِكَ لَمَا فِي ذَكْرِ لَفْظِ الجِلَالَةِ مِنْ إِنْسَاءٍ إِلَى عَظِمَةِ ذَلِكَ الْرَّضُوَا.

وَعَطَفَ "٥٠٠٠ وَرَضْوَانُ مِنَ اللَّهِ" عَلَى مَا أَعْطَى اللهُ سَبِيبَهُ وَتَعَالَ لأُولِيَاهُ الصَّالِحِينَ فِي عَبَادَةِ الْمَنْتَقِينَ؛ لِأَنَّ رَضْوَانَ اللَّهُ أَعْطَى مِنْ ذَلِكَ النَّعِيمَ الْمَلَامِيِّ؛ لِأَنَّ رَضْوَانَ اللَّهُ تَقْرِيبُ رَوْحَانِي كَمَا قَالَ الْحَقُّ فِي سُوْرَةٍ "٥٠٠٠ بِرَاءَةٍ" "٥٠٠٠ وَرَضْوَانُ مِنَ اللَّهِ أَكْوَرُ".

وُقِوْهُ: "٥٠٠٠ وَرَضْوَانُ مِنَ اللَّهِ"، عَطْرَضٌّ لِلْتَأكِيدِ مَا سَبِيبُهُ، فتَنَكِّرُ الْمَسْنَدُ إِلَيْهِ هَنَا يُفْدِي الْرَّيَادَةَ وَالتَّنْكِيرَ، فرَضْوَانُ اللَّهُ تَعَالَ أَعْطَى مِنْ أَيْ رَضْوَانٍ أَخَرِ، وذَلِكَ إِلَيْهِ بِإِشْيَارٍ أَنَّ إِيْمَاهُ نَاشِئَهُ مِنْ وَفُورِ الرَّغْمِهِ، وَكَمَالِ النَّشَاطِ، وَكَذَلِكَ لِبَيْنِ الْوَعْدِ أَيْ: أَنَّ الْحَقَّ لَبَارِكَ وَتَعَالَ علَى الَّذِينَ اتَّقُوا، وَمَرَابِتِهِ مْ، فَهُوَ يَجْزَبُهُمْ عَلَى هَٰذَا وَقَدْ افْتَحَتْهُ هَذِهِ الآيَةُ الْكَرِيَّةُ بِفَاتِحَةٍ بَعْدَهَا، فَقَالَ: "٥٠٠٠ قُلْ رُبْعَاءُ مِنْ ذَلِكَ"، فِي عَدُودِ أَنَّ بَيْنَ تَعَالَ في الآيَةِ السَّابِقَةِ عَلَى هَذِهِ الآيَةِ شَيْئًا مِنْ مَنْتَقِعِ الْجِلَالِ وَرَضْوَانِهِ، وَذَلِكَ فِي حَقِّهَا مَعَانِيِهَا مِنْ حَسَنِ الْمَآبِ إِجْمَالًا، أَمَّامُ النِّسِيَّةِ، فِي تَفَصِّيلِ ذَلِكَ المَجْمُولُ لِلْجَمَالِ فِي الْتَرْغِيبِ، وَالخَطَّابِ لِجَمَاعِ الْأَمْامَةِ.

١٠٠٠- فَأَفْتَلَ تَعَالَ هَذَا الْعَلَمُ، وَذَلِكَ لِلْمُهْلَكِ، لِلْعِلْيَاءِ، وَالْمَخَاطِبَةِ بِـ "٥٠٠٠ قُلْ"، وَذَلِكَ الْلَّهَايَّةُ، فِي افْتَتَحِ الآيَةِ بَيْنَ الْخَطَّابِ الْوَالِدِ.
تبنيت لفواده، وتقوية لحجه Asiae؛ ولكي تكون هذه البشارة داعية إلى جمهور
االاستنهام في الآية للعرض، تشويقاً لنفس المختاطبين إلى تلقى ماسيئ
عليهم، وتقرر بأن ثواب الله تعالى خير من مستلذات الدنيا.
االخليج، والتوجيه، لتفهيم شأنه، والتشويق إليه، والمشارة
إليه بن...ذِكَرْكم... ماذكر من الشهادات، وعنده بأداة البعد، ومهم الجمع
لعظمة عندهم، ولزيادة في تعظيم مايرشد إليه).
وقوله تعالى: «الذين آتوا عند ربي مخالطات تجري من تحيا الأنهار
خارجية فيها وأزواج مطهرة...» مستأنف، وهو اللبناً به، وقد ألفي مأ
يقابل شهادات الدنيا عند ذكر نعم الآخرين، وما أعد الله للعباد الصالحين؛ لأن لذة
الذين، ولذة المال مقودة في الدار الآخرة، للاستغناها عنها، وكذلك لذة الخيال
والأنعام؛ إذ لادواد في الجنة، فبقي مايقابل النساء والخمر، وهى إناث
والعوام، وأزواج، لأن هما تمام النعيم والتأنيس.
1. و(قَدْ جَتَّةً...» «بصةً مخالطات الخير، أي: هم، أو حيبر لمبتداً
مخالطات، فانخبوذ المسند أو المستند إليه.
2. والتعبير بـ(قَدْ جَتَّةً مَطْهَرَةً...» للدلالة على أن الله تعالى هو الذي طهر،
ومن المعالم أن من طهر الله تعالى أكمل طهارة وأثر، وهذا يدرك الفرق بين هذين
الكلمة، وقوله: «طاهره»، و«مطهرة»(1).
قله تعالى: «الذين يَقُولُونَ رَبِّنَا إِنَّا آمَنَنَا فَاعْفَعْنَا لَنا ذُنُوبِنَا وَقَنا عَذَابَ الْثَّأْرِ»
1. التعريف بالمسنن في صدر هذه الآية: «الذين يَقُولُونَ...»؛ لأن الصلاة
هنا، هي التي عليها مدار الحكم، والإتيان بما يثير النفس الشوق إلى معرفة الخير
(1) انظر: نظام النذر: 476/4؛ إرشاد الفعل السلام: 2/15.
(2) انظر: نظر الإمام عبد الروؤف: 1/110؛ الكشف: 1/110؛ التفسير الكبير: 2/130.
(3) البحر المجيد: 1/131؛ الجامع لأحكام القرآن: 1/244; حاشية زاده: 1/213.; 211; 210. 137
3- وقد بين الحق ببارك وتعال عبادة (بأن الذين يقولون ربي إنا آمنون) بقوله في الآية التي تليها: (الصائمين والصادقين وألقائين والمتفقين والمُستغفرين بالاستغفار) (1).

ولعله تعالى أشار بهذه الصفات الخمس المعاطفات إلى دعائم الإسلام الخمس، فأشار بالصر إلى الإمام، وبالصدق إلى الزكاة المصدق ودعواه، وبالفتوح إلى مبادل مادته على الإخلاص إلى الصلاة، التي هي مطلب المراقبة، وبالنفاق إلى الحج الذي أعظم مقاماته المال، وبالاستغفار إلى الصيام، الذي متبناه النبي من أحوال البشر والتحلي بملكة الملك، لاسيما في القيام، ولاسيما في السحر (2).

١- والسر في هذا الترتيب البديع، أنه لما ذكرهما مع العبد والخالق في التوحيد (3).

(1) انظر: نظام الدور: ٨٦ / ٣٨٠.
(2) ألم عمران: آية: ١٨.
(3) انظر: نظام الدور: ٢٨٧ / ٨٦٨.
أتبع مابينه وبين الخلافة في الإحسان، ولم ذكر الحق عبادة البدن، الدالَّة على الإخلاص في الإيمان، ولم ذكر عبادة البدن مجرد، بعد عبادة المال مجرد، ذكر عبادة ظاهرة مركبة منهما شعارا تعريفا للظاهر، ثم أتبعه عبادة بدنية فنية عمادها تعريفا للباطن فختم مثل ما بدأ به، وهو مال يبسط عليه إلا الله سحاحه وتعالي.

٢- فإن قيل: لم قد ذكر المنفقين على ذكر المستغفيض؟ يمكن الإجابة عن ذلك بأن الصفات التي ذكرت على سبيل الترقي في الأدنى إلى الأعلى، ولي كان من الأعلى إلى الأدنى؛ نقول الاستغفار على الإتفاق.

٣- وفي دخول الواو على هذه الصفات، مع أن الموضوع واحد، تخفيف للموضوع؛ لأنه إبدان بأن كل صفة من هذه الصفات مستقلة عمده الموضوع، ولأن الموضوع هذه الصفات ليس واحدا كما يبدو.

وكل ذلك كلمة «...نصيبا ...» من قوله تعالى: «إِنَّمَا تَرَى الَّذِينَ أُوتُوا نصيبا من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وفريق منهم معرضون ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وعُرُضْنا في دينهم ما كَانُوا يَفْتَرِيُونَ» (1)، تدل على معناها المجرد الذي جاءت عليه في اللغة، والسباق بكسوهما معنى آخر، وهو هنا التعميم، أي حصلوا نصيبا عظيمًا من النورا، وذلك لأن المقام مقام مبالاة في تقصيب حاول، فالذي يجب أن تحمل عليه النكبة هنا.

التعظيم (2).

وهناك من برر بأن التنكر في الآية للتقليل والتحقيق، فـبراد بالنصب هذا مما حصل له من العلم، وهو بلاشك قليل وحقيق، وقاموا بالرد على أصحاب القول الأول بأن حم التنكر على التعظيم لايساعده مقام المبالاة في تقصيب حاول، باـأن (3)


٢- آل عمران آية ٣٣ : ٢٤.

٣- انظر : الكشاف : ١ / ٢٤٨.
القصود تعبيرهم بمجردهم، واستكارهم بالنسب الحكيم عن متابعة من له عالم، لا يزاوج علوم المرسلين كلهم (1).

ويرى الطاهر "ابن عاشور" بأن التنكر في "...نصيبي..." للتنوعة، وليس للتعظيم؛ وذلك لأن الفهم مقدم، فإنه كان يجزي بأن يكون التنكر للتنقل (2).

وحمل التنكر على التنوع لاوجه له من قريب وفرايج، ولا يخفده السياق، وعلى هذا يحصر التنكر في الآية بين التعظيم والتنقل، وإن كان حمله على التعظيم أرتجح؛ لكون السياق الكريم يخدمه.

1. والتعبير عما أنتو بـ "...نصيبي..."؛ وذلك للإشعار بكمال اختصاصه.

2. والاستفهام الذي في صدر هذه الآية الكريم " إللهم أنورا..."؛ للتقدير والتعجب، وقد ورد الاستعمال في مثله أن يكون الاستفهام داخلاً على في الفعل، والمراد حصول الإقرار بالفعل؛ ليكون التقرر على نفيه مترضاً للمخاطب على الاعتراف به؛ بناء على أنه لا يرضى بأن يكون مما يجهله (3).

3. وعدل النظم عن قوله " إلهم "، وهو الأصل في هذا الخطاب إلى قوله تعالى: "...إلى الذين أتوتوا نصيبي..."؛ ليبيان أن ضلالهم كان على علم، وأن الذي أتوتو منه قراءة نور، إمامة (4).

4. وعرف الذين أتوت الكتب في الآية الكريمه في الموصول: "...الذين أتوتو...".


(2) انظر: التحرير والتمييز: 2/ 209.

(3) المرجع السبكي: 3/ 2008.

(4) انظر: نظام الدور: 3/ 303.
نصيحة من الكتب... دون اللقب الخاص بهم، وهو «اليهود»، وذلك لأن في الصلاة مانيد التعجب من حاصل؛ لأن كونهم على علم من الكتاب قليل أو كثير ممن شاء أن يصدهم عما أخبر به عنهم، على مافي الصلاة أيضًا من توهين علمهم المزعوم (1).

6- والتعريف في (...(الكتاب)... للعهد)، والعهد هنا الصورة)، وهو الكتاب المتلزل على اليهود، وهو المخاطبون في هذا السياق.

وقبل التعريف للجنس، أي جنس الكتاب السماوية، والتي من جملتها «الناوورة» (2)، وهذا النواجيه فيه بعد، وذلك لأن مدار التشريع والتعجب إذا هو عسن إعراضهم عن المحاكمة إلى مادعوا إليه، وهم لم يدعوا إلا إلى النورا، قوله تعالى: («...يدعون إلى كتاب الله ليحكمو بينهم...»)، استناد مبين للنورا، مبين على سؤال نشأ من صدر الكلام، كأنه قيل: ماذا يصنعون، كيف نظر إليهم؟، فقيل: («...يدعون إلى كتاب الله ليحكمو بينهم...»).

1- وأظهر لفظ الجلالة، فقيل: («...(كتاب الله)...»)، ولم يقل: («كتابهم»)، وذلك للاحتراز عما غيرا وبدلوا؛ ولأوهام إذا دعوا إلى كتاب الله، الذي أنزل على موسي القبطي، لا إلى معاذن أن يكون بأيديهم ما غيرا، وفيه إشارة إلى عظيم اجتراعهم تأويلهم عم هو محيط بكل شيء سبحانه وتعالى (3).

2- وإضافة الكتاب إلى الله سبحانه وتعالى لتشريفه، وتأكيد المراجعة إليه في كل شأن من شؤونهم.

3- والتعبير بالفعل المضارع («...يدعون...») للدلالة على التحديد والحدوث، فالدعاء في كل زمان ومكان لايفتونون يذكرونهم بالله سبحانه وتعالى (4).

---

وعلاوة على إن إعراض وصدور

قَالَ: "فَمَا لَّكُمْ فِي ذَٰلِكَ مِنْ عِرَائِسٍ وَلَا عِيْضٍ" مَعْطُوفٌ عَلَى

قَالَ: "فَلَمْ تَتَّخِذُوا إِلَّا كِتَابًا لِلَّهِ لِيَكُنَّ بَيْنَ يَدَيْهِمْ"، وَالعاطفُ هُنَا: "فَمَا لَّكُمْ،..."

والمعطوف هُنَا في حكم المفرد.

1- فدلت: "فَمَا لَّكُمْ..." على أن تولّتهم مستمر في أزمان كثيرة، تدل عن

زمان الدعوة، أي: أنهم لا يرعون، فهم يتولون، ثم يتولون، وذلكل لأن المرء قد

يعرض غضباً، أو لعظم المفاجأة بالأمر غير المرتقب، ثم يقرب إليه رشدته، ويراجع

نفسه؛ فيرجع، وقد علم أن تولّتهم إثر الدعوة دون تراخ حاصل بجوهر الخطاب

والسياسي القرآني.

2- إذاً فدخلت "فَمَا لَّكُمْ..." للدلالة على التراخي الرسمي؛ وذلك لأنهم قد

يتولون بعد الدعوة، ولكن أريد التعجب من حالهم كيف يتولون بعد أن أودعوا

الكتاب ونقلوه، فإذا دعوا إلى كلاهم تولوا، فالتعبير بالفعل المضارع

"فَمَا لَّكُمْ..." للدلالة على تجديد التولي منهم.

3- والجملة الحالية "فَمَا لَّكُمْ فِي ذَٰلِكَ مِنْ عِرَائِسٍ وَلَا عِيْضٍ" مؤكدة ليتم التولي، وذلك لأن

التولي هو الإعراض فهو بمثابة، وما كانت حالا لم يكن فيها دالاً على السوء، والإجابة، فكانت دالة على تجديد الإعراض من أهل الكتاب من اليهود عليهم من الله

مايستحقون، والمفاد كذلك من المضارع في قوله: "فَمَا لَّكُمْ فِي ذَٰلِكَ مِنْ عِرَائِسٍ وَلَا عِيْضٍ".

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى استكبار أهل الكتاب، وترفعهم عن الإيمان

بلكتاب الذي أنزل على أنبيائهم، وناحكون إليه، وإعراضهم عنه؛ بين الحق تبارك

(1) انظر: التحرير والتدوير: 210 / 3.
(2) انظر: المصدر السابق: 210 / 3.
وعَتَالِيِّ الْعَلْلَةِ هَذَا الْإِعْرَاضُ وَالْتَوْلِيْ بِقَوْلِهِ: أَذِلَّكَ بِأَنْبِهِمْ قَالُوا لَنْ نَقْبَضُنَا الْنَّارَ إِلَّا آيَامًا مَّعْدُودَةً وَعَرَّفُوهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتِرُونَ ».

١- فَأَشَارَ الْحَقَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَ لِنَفْسِهِ بِادْخَالِ الْإِشْتِهَارِ الدَّالِ عَلَى الْبَعْدِ »...ذِلَّكَ...»، لَيَبِينُهُ مَعْرُوفًا بِهِ بِالْأَعْتَادَةِ فِى نَفْسِهِمْ فَعَلْيِهِ شَبُّ الصَّغيرِ »وهَمُّ الكِبْرِ»، وَبَالْإِشْتِهَارِ فِى نَفْسِهِمْ مَا فَعَلَّهُمْ مَافَقُوا بِبَعْضٍ مِّنْ عَذَابِهِمْ أَفْقَهُمُ فِى أَمَانِ مِنْ الْعَذَابِ إِلَّا أَيَامًا مَّعْدُودَةً هِيَ الْأَيَامُ الْمِمْضَىُ قَضَوْهَا فِى عِبَادَةِ الْعَجْلِ؛ وَلَكِنَّهُمْ أَنْفَعُوا أَكْرَأَتِهِمْ بَاتِباً الْحَقِّ وَلذَّكَ لَوْنَ أَعْتَدَتُهُمْ ذَلِكَ دُفِيعُهُمْ وَجَرَأَهُمْ عَلَى ارْتِكَابِ الحَمَامَاتِ مَعَ أَبْنِيَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْهُمْ، وَهَذَا الإِعْرَاضُ مَعَ بَطَالَةِ وَعَدَّهُمْ وَعَقِيَّتِهِ مَوْذُنَ بِسَفَاءٍ هُمْمَ الدِّينِيَّةِ، فَذَلِكَ نَراَعَتُ زَهَادَةً فِى كَلِّ مَآيِرِ كُلِّ نَفْسِهِمْ.

٢- وَعَرَفَ الْحَقَّ فِى هَذِهِ الْآيَةِ الكَريَّةِ عَنْ الْإِعْتَادَةِ »...ذِلَّكَ...»، وَذَلِكَ لِيِّلِيَّ فِى رُوَاهُ أَنَّ هُوَاءَ الْيَهُودِ إِذَا قَالُوا هَذَا الْقُولُ عَنْ اسْتِعْتِقاَدِ جَازَمُ حَالَطُ شَغَفُ فِى قَلُوبِهِمْ، وَذَلِكَ لَوْنَ أَنَّ الأَصِلَ الصَّدِيقُ فِى الأَقْوَالِ حِيَّ ثَقَنَ قَرَيْنَةً عَلَى حَالَافِ الْإِعْتِقادِ؛ وَلِهَذَا سَاغَ استِعْمَالُ القُولِ فِى مَعْنِى الْظَّنِّ وَالْإِعْتَادَةِ فِى نَفْسِهِمْ يَقُولُونَ: قَالَ »مَالِكُ»، وَقَالَ »أَحَدَّ»، وَقَالَ »أَبِيَحِيفَةَ».

٣- وَانْتَظَرَّيْ الْمَثْلُ مِنْ مَهْرَ الْغَرُورِ الْيَهُودِيَّ، وَقَمَةَ الْحَبِّ تَجْهُ جُرُجُجُ فِي كَلِّ مَهْمُ، وَذَلِكَ عِنْدَا مَعَ ذِي الْغَرُورِ الْيَهُودِيِّ، فَقَالَهُمْ عَنْ عَذَابِهِمْ فِى النَّارِ بَلْسَمُ بَقُوهُمْ »...وَلَنْ نَقْبَضُنَا الْنَّارَ...»، مَعَ الْلَّبَسِ وَذَلِكَ لَوْنَ أَنَّ الْلَّبِسَ أَحْصُرَ مِنْ الْلَّبَسِ، فَلَمَّا فَلَسَ مَلَاقَةُ ظَاهِرُ الْشَّيْء، ظَاهِرُ غَيْبُهُ، وَالْجَمْعُ بَينَ الشِّيَّهِ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى هَيَاهَةِ الْقَرْبِ، وَالْلَّبِسُ مَثْلُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ مَعَ الإِحْسَانِ، فَأَخَذُوا لِأَنْفُسِهِمْ الْلَّبِسُ بَيْنَ الْعَذَابِ، وَأَخَذُوا ذَلِكَ بِجَرَفِ النَّفْقِ »...لَيَبِينُ...»، الْدَالُ عَلَى النَّفْقِ، تَأْكِيدَ الْيُذْيَ الْعَذَابَ عَنْهُمْ.

٤- وَمَا زَالَ مَسْلِسُلُ النَّقُولِ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَبْلِ الْيَهُودِ عَلَيْهِمْ لِعَنْيَةِ اللَّهِ يُبْرَرَ؟ فِى نَفْسِهِمْ يَنْتَقُنُونَ إِلَى فَرَقِيَّةٍ أَكْرَمِ مِنْ أَحْتِهِمْ، وَذَلِكَ عِنْدَا مَعَ ذِي الْغَرُورِ الْيَهُودِيِّ، فَقَالَهُمْ عَنْ عَذَابِهِمْ لَنْ يَدْخُلَوْ الْجَاهِلِ.

٤٣
إلا أيامًا معدودات؛ عدة الأيام التي عبروا فيها العجل، وهذا لارتب قول على الحق، بلا علم، في إن تبعون إنما البهش مفصولًا عن البهش لا يغني من البهش شيءًا» (1).

وهنا لا بد من وقفة أخلاقية فيها سراً من أسرار النظم الرباني، وهو السر في جميع الصفحة في هذه الآية فقال الحق تبارك وتعالى: «في الأيام معدودات» (2)، بينما جاءت في سورة البقرة مفردة، فقال: «وأقبلوا لأنتمنبنا الأثر إلا أيامًا معدودة» (3) مع أن الموصوف في الموضوعين واحد، وهو الأيام؟ وقد وقف علماء التفسير وعلماء النشأة تجاه هذا الأمر موقف المطلب، حيث ذكروا فيه وجوهًا يمكن إيجادها فيما يلي:


الثاني: أنه لما كان المقام في سورة آل عمران فيه ما يدل على تناهي احترامهم على العظام من قتلهم الأنبياء وغير حق، وقتلهم الذين يأمرون الناس بالفسق، وقوله على الله يغير علم، واستهانتهم بذات الله واستقصارهم لمدته،

(1) النجومية آية 28.
(2) البحرية آية 80.
(3) البحرينية آية 184.


144
وكان جمع القلعة يستعار للكرة، أكد إرادتهم حقيقة القلعة بجمع آخر للقلعة، فقيل على ماهو الأول من وصف جمع القلعة بما يعقل جبرًا له: "(...مغدرات...).

الثالث: أن من ينظر إلى آية سورة البقرة، بلحظ أثنا مسلكت سبيل الإنجاز في وصف حال اليهود، بينما في سورة آل عمران فبعد أثنا مسلكت سبيل الإطمان في وصف اليهود وجرائهم، أثرى أن الحق تبارك وتعالى قال في سورة آل عمران: "ذِئَلَكَ بَيْنَهُمْ قَالُوا..."، بينما قال في الأخرى: "وَقَالُوا لَن تَمْسَّكَنَا الْقُبُورَ ..."، وإن كتب الله تعالى باختصارهم بقوله: "(...وَغَرَّهُمْ فِي دَيْنِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)", وهذا بسط لخاطم القلم على سوء مركبهم، ولم يقع في سورة البقرة تعرض لشيء من ذلك، بل أوجز القول، ولم يذكر سببه: فناسب الإفراد والإنجاز، وناسب الجمع الإسهام، ولو جميع في سورة البقرة، وأفرد في سورة آل عمران، أو أفرد فيها، أو جمع فيها لما ناسب، فورد كل على ماياسبه ويبقى.

والتوجيه الرابع: أن قاني ذلك من اليهود فرقان:

إحداهما قالت: إنما نذوب بالنار سبعة أيام، وهي عدد أيام الدنيا.
وقالت الأخرى: إنما نذوب أربعين يومًا، وهي أيام عبادتهم العجل.
فآية البقرة: "يُحْمَل قَضَد الفَرْقَة التَّينَة ، وآيَة آل عمران "يُحْمَل قَضَد الفَرْقَة الأولى "(2).

وهذه التوجيهات الأربعة لاختزل من دقة، وإعمال للفكير في سبيل تعليق الظروف القرآنية، ولكن من نظر فيها، يلحظ أن التعليق الثالث، وهو المنسب إلى ابن الزبير الغزني، يأتي في مقدمتها ترجيحًا، ثم التوجيه الرابع.

(1) انظر: نظام الدور: 4 / 305-.
(2) انظر: ملاحظات التأويل: 1 / 226- 227.
(3) انظر: كشف المعاني: 102- 103.
ولا يُزال القرآن الكريم يشخص لنا النفسية اليهودية ؛ لكي بين لنا أمراضها،
ثم يعقب ذلك بيان العلاج الناجع لها ؛ لكي لاتتبع سنتهم حدود القذرة بالقذرة ؛ فَيْن
الحق أن الذي أركسهم في هذه الحماة هو غورهم الذي لامتهني له ؛ وهو ماتقولوه
على الدين ؛ وأدخلوه فيه ؛ ولذا أتي الحق تبارك وتعالى بـ "في" الدالة على الظروف
الجائزية ؛ ومن جملة اقترانهم أن عداهم في النار ما هو إلا أيام معدودات ؛ وبعدة
بدخلوا الجنة ؛ وقد أخبر الحق عن عاقبة هذا الغور والإفراط بأنه يوقع في الضلال
الدائم ؛ وذلك لأن المخالفة إذا لم تكن عن غور فإن الإقلاع عنـها مرجح ؛ وأما
المغور ؛ فلا يترقب منه الإقلاع .
وقد ابتلي المسلمون بغرر كثير في تفريع الدين ؛ وإفراط لاحده له ؛ أكثر تأثيراً
بليغاً على قواعد الدين ومسلمة البيت لا ينبغي أن يعرض لها ولو قليل من الشك ؛ ومـ
هذا إلا بسبب الغور ؛
وكذلك كلمة "...رقَّاً ..." ؛ من قوله تعالى : (فَتَقَلَّبَهَا رَبُّهَا بِقُبُولٍ حَسَنٍ
وَأَلِيتَهَا كَيْبَاء حَسَنَةٍ وَكَفَّلَهَا رَكَبًاٌ كَلْمَةٍ دَخَلَ عَلَیْها زَكْرِيَّا الْمِيْحَابَ وَجَدَ عَنْدَهُمَا
رقَّاً قَالَ بَهِيرُمُ اَلْيَأَنِ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُزَرَّعُ مِنْ يَقِينٍ بَيْنَ يَدَيْهِ
جَسَابٍ)١.

حيث لم تند بطيعتها غير المعين الذي وردت عليه في اللغة ؛ وهو الرزق ؛ وهو
النصيب الذي يقدره الله سبحانه تعالى لكل عبد من عبيده ، أو حلق مـن متعلقاته
على وجه هذه الأجر ؛ ولكنها عندما دخلت هذا السياق الكريم ؛ ونكرت أضافت
إلى هذا المعين معين آخر يدرك من السياق ؛ وهو التعبيم ؛ فالتكبير هنا أفاد تعظيمـ
الرزق النازل من الله سبحانه وتعالى لهذه المرأة الصالحة ؛ فهو رزق عظيم عجيب ـ
ويمكن أن يفيـد التفكير الشعاع والتنويه ؛ فهو رزق متنوع في شئ الأصناف

١٤٦

١) آل عمران آية : ٣٧.
والأنواع إضافة إلى كرته.
1 – وقوله تعالى: «كلما دخل عليها زكريا اليمام وجعل عينه» وزقاً... » دل على أن في الآية الكريمة حذفاً تدريجيًا: فكانت مريم ملازمة لخدمة بيت الله، وكانت تتعدد مكماً تتخذها محراباً، وكان النبي الله يتعهدها ويرى تعبدها، فيرى كرامة الله لها فيزي ثماراً في غير وقت وجود صنفها.(1)
2 – وختام الآية الكريمة بالتأكيد بـ (إن... إن...) في قوله: «... إن الله يزرع من يشاء بغير حساب»; وذلك لأن الله تعالى قد صدر عنه ما يشبه الإنكار، وهو قوله: «... قال يامره مأله للك هذا...»; فلهذا استوجب الكلام التوكيك، وذلك ليدرده ما قد يكون قد علق في ذهنه من شك في هذه المرأة الصالحة، والتأكيد هنا من المرتبة الثانية من ضروب التوكيك، وهو المرتد، فلهذا سبق التوكيك ليعمق هذا التردث.

وهما يدخل تحت هذا المبحث التوكيك في كلمة «... ظلمًا...» من قول الجملة ببارك وتعالى: «تلك آيات الله تلوها عليك بالحق وَمَا الله يَبِيدُ ظُلْمًا للعَالِمِينَ»، حيث لم تفقد بطبعتها غير المعين الذي وردت عليه وهو الظلم، ولكنها عندما دخلت في هذا السياق الكريم، حيث جاءت منكرة، في سياق النفسي، فأفادت العموم، فدل على انتفاء جنس الظلم عن أن تتعلق به إرادة الله، فكل ميلعد ظلماً في مجال العقوبة السليمة منتفف أن يكون مراد الله سبحانه وتعالى.
قال «الزمخشي»: «... وما الله يريد ظلمًا...»، فياخذ أحداً بغير حرم، أو يريد في عقب حرم أو في نقص ثواب محسن، ونكير «... ظلمًا...»، وقال: «... للعالمين» على معين: ما يريد شيئاً من الظلم لأحد من خلقه، فسبحان

(1) انظر: التحرير والتدوير: 266.
(2) آل عمران آية: 108.
من يحلم عمن يصفه بإجادة القيام والرضا بما (1)

ومن ينظر في كلام «جرح الله الزمحصري» يلاحظ في آخره تعبيراً بأحلام السنة والجماعة، وهذا دليل في كشافه، وخاصة عند آيات الوعد والوعيد، وقد عقب عليه «ابن المتم» في الانتصاف فقال: «قوله: فسحاح من يحلم عمن يصفه بإجادة القيام، يريد أهل السنة والجماعة القائلين: مأمون الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كما أجمع عليه السلف» (2).

1 وإذا حسن ذكر الظلم همها، لأنه تقدم منه سبحةه وتعال ذكر العقوبة الشديدة، وهو商贸ه أكرم الأكرمين، وأجود الأحودين، فكان الحدق تبارك وتعال بين السر في ذلك، وأن ما وقعوا فيه لم يكن إلا بسبب أفلاحتهم المكررة، فإن مصالح العالم لا تستقيم إلا بتفهيم المعنيين، وإذا حصل هذا التهديد، فلا بدد من التحقق دفعاً للذكرب، فنصل هذا الاعتذر من دلال رحمة تعالى.

2 وقوله: «وما الله يزيد عظيمًا للعالمين» تذيل مقرر مضمن لما قبله على أبلغ وجه وأكده، فإن تذكر الظلم، وتوجيه النفي إلى إجادة سبحةه وتعالى بصيغة المضارع دون نفسه، وتعيين الحكم بآحاد الجمع المعروف، والانفتاح إلى الاسم الجليل بيان لكم ماهما الحق تبارك وتعالى عن الظلم - كما أسلفنا -، وفي سبب الجملة نوع إلغاء إلى التعريض بأن الكفر هو الظالمون؛ ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالق. (3)

3 قوله تعالى: «تُلُكِ آياتُ الله...»، أي: الآيات المشتملة على تعريض الأبرار، وتعذيب الكفار، والتعريف باسم الإشارة الدالة على بعد، للإيذان بعلو.


(2) الانتصاف: 1 / 27.

(3) انظر: إرشاد العقل السليم: 2 / 70، روح المعاني: 4 / 26، 27.
شأن هذه الآيات، وسمو مكانه في الشرف.

وهو هنا آيات الله:

۵ والاتباع بالإضافة في قوله تعالى: "...آيات الله..." لتنظيم المضف واته.

۶ والاتباع بالهاء، "...قُلُوها..." فعلًا؛ لإضافة الحدوث والتحديد والاستمرار، و"...قُلُوها..." جملة حالية من الآيات، والعُمَل فِيها معنى الإشارة، أو هي الخبر، و"...آيات الله..." بدل من اسم الإشارة.

۷ وعلاية إلى التحكي من النظمه "...قُلُوها عليه بابق..."، ومعه كون التلاؤه على لسان الأمين جبريل الثعلبي؛ لإجاز كمال العبادية بالتلاؤه.

۸ وأختم الحديث عن التكبير بالحديث عن التكبير في كلمة "...آيات..." من قوله تعالى: "إن في خلق السماوات والأرض واتخاذ الليل والنهاة آيات الله للإبل" (۹) حيث أفاد التكبير التفحيص كمًا وكيفًا، أي آيات كثرة عظيمة، دالة على تجايب شعوبه، التي من جملتها احتجازه سباحة بالملك العظيم، والقدرية التامة.

۱ قوله: "إن في خلق السماوات والأرض..."، تأكد لما قبله، وكلا ليل على

۲ وتقدم الليل على النهار في قوله: "...اتخاذ الليل والنهاة..."؛ إذا لأنه الأصل، لأن غَرَّر الشهور تظهر في الليلي، واما لتقديمه في الخلفية، حسبما ينفيه قول الحق بارك وتعالى: "...آية لهم الليلُ سَلَحْ مِنْهَا..."

(1) انظر: إرشاد العقل السليم: ۲ /۶۹ _ ۷۰ ; التحرير والتدوير: ۴ /۴۷
(2) انظر: الإرشاد: ۲ /۷۰ .
(3) آل عمران آية: ۱۹۰ .
(4) انظر: إرشاد العقل السليم: ۲ /۱۸۸ _ ۱۸۹ ; روح المعاني: ۴ /۱۵۵ _ ۱۵۷ .

۱۴۹
التهار...»(1) أي: يزيله فيخلفه.

3 - ومن ينظر في هذه الآية الكرمة، يلاحظ أن الحق تبارك وتعالى ذكر ثلاثة من الدلائل على قيمته وقدرته، بينما في آية البقرة في قوله تعالى: «إنَّا في خِلْقِ السَّماوَاتِ والأرْضِ وَالْخَلْقِ اللَّهُ الَّذِي تَجْرَيُ فِيهَا الْبَحْرُ بِمَا يَنْضَعُ النَّاسُ وَمَا آَوَى اللَّهُ فِي السَّماوَاتِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابِّيَةٍ وَصَنْعِ الْرَّيْحَ وَالْسَحَابِ الْمُسْحَرِ بُينِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآَيَاتٍ ۚ يُفْقِهُونَ»(2) ذكر ثمانية من الأدلّة، ولعل السبب في ذلك أن السالك يفترض في ابتداء السلك إلى كتلة الأدلة، فإذا استنار قلّت حاجته إلى ذلك، وكان الأكثر من الأدلة كالمحاجب الشاغل عن استغراق القلب في الحجج المعرفة، واقتصر هذا من آثار الحق على السماوية؛ لأنا أفه وأهر، والمحابين فيها أكثر، وانتقل القلب فيها إلى عظمته سماحه واعاله وكرامته أشد وأسرع، وحمّم تلك ما هو الأولي لمسلك العقل، وحمّم هذه بلبه؛ لأننا لم نخلص من وساوس الشيطان، وشوابه هواحّس الوهم المانعة من الوصول إلى حق اليقين، بل علم اليقين...(3)

والحديث عن التنكر في: «...آيات..»، أخطه حديثي عن التنكر في هذا المبحث.

(1) يس آية: 37.
(2) البقرة آية: 164.
المبحث الثاني
الإظهار والإضمار
الأظهار والإضمار

لو عرضنا لكل ماقيل في البلاغة؛ لوجدنا أن الفكرة الجوهرية في البلاغة قائمة على مبدأ إيصال المعنى إلى المخاطبين، بحيث نراعي في ذلك أحوالهم العقلية والنفسية؛ فيجيء المعنى مطابقاً لتلك الأحوال.

والبلاغة العربية قد استقرت على أنها مطابقة الكلام لقضيّة الحال، وأن لكل مقام مقالاً، ومجيء الكلام طيفاً هذا هو أصل البلاغة، وشرطها الذي لا يوجد منقه، ولكن قد يأتي الكلام مخالفًا لقضيّة الظاهرة، وهذا الأمر تقتضيه أسرار ونكّات، يرمي إليها البلاغي.

وينبغى أن نعلم أن هذه المخالفّة - كما أشرنا - إنها هي لؤظار الحال، فالكلام وإن خالف ما يقضّي الظاهرة، فإنّه موافق لما يقضّي المعنى، ويطلبه المقام، ولا يظهر ذلك إلا من سير أغوار المعاني، وتعغل بفكّره في أعمقّ التراكيب، فسهو الذي يتجلي له ما وراء خلافة الظاهرة من أسرار ومزاباً وأهداف يقصد إلى تحقيقها (1).

وإذا الخروج على خلاف مقتضي الظاهرة صور عدة منها وضع المظهر موضوع المضمّر؛ وذلك أن الاسم الظاهرة عندما يذكر في الكلام، ثم براد إعداده مرة أخرى، فإن الأصل أن يعاد ذكره بضمير يعود على الاسم الظاهرة السابق، فإذا خالف ذلك، وعبر عن الضمير بالاسم الظاهرة، فإنه يعد خروجًا عن الأصل، وهذا الخروج تقتضيه أسرار ونكّات، يتجلى لم أنعم النظر فيها.

وأوّل وضع الظاهرة موضوع المضمّر - كما أشرنا - أغراض يهدف إليها:

فقد يكون الغرض منه مصطلح، كما في قول الحق بارك وتعالي: "إِئِلَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمَ لاَ رَزَّابٌ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمُبَهَادَ" (2).

(1) من البلاغة النظم القرآن : 152 بتصرف.
(2) آل عمران آية : 9.
إظهار الاسم الجميل (ٍالله...) ؛ لإبراز كمال التوسيع، والإجلاس النافع من ذكر اليوم المهم الهائل؛ يوم القيامة؛ وهذا يتحلى لنا الفرق بين هذين الآية الكريمة التي وقعت في أول السورة، ووقوعه في آخر السورة: (ٍإِنَّ اللَّهَ لا يَخْلِفُ ِالْمِيعَادَ)١، حيث أظهر في الأولى وأظهر في الثانية، إذ لم كان المقام في الآية كما أسلفنا_ مقام هبة، يعني أن الإلهية تقتضي الحشر والنشر، وذلك لينتصف المظلومون من الظلمين، فكان ذكر اسمه الأعظم أولى في هذا المقام.
وأما في آخر السورة فذاك المقام مطلب العبد من ربه، أن ينعم عليه بفضله، وأن يتجاوز عن سيئاته، فلملك المقام ماض هيبة، فلهذا جلًا إلى الإضمار.
١ وعدل الخطاب من ضمير الخطاب (ٍعَرِبَتُ إِلَٰهَكَ ُ ٍجَامِعُ...) إلى الغيبة (ٍإِنَّ اللَّهَ لا يَخْلِفُ ِالْمِيعَادَ)... للإشارة _ كما أسلفته_ إلى تعليم الموعد.; والاجلاء النافع من ذكر اليوم المهم، والإشاعر بعلة الحكم (٦).
٢ وحذف حرف النداء في قوله: (ٍرَبَآ)... لشعور الداعي بقربه من ربه سبحانه وتعالى.
٣ وأكادت الجملة بـ(ٍإِنْ) في الموضعين: (ٍإِلَٰهَكَ ُ ٍجَامِعُ...)، و(ٍإِنَّ اللَّهَ لا يَخْلِفُ ِالْمِيعَادَ)؛ لتثبت المعني وتوضيده بالنفس، وإزالة أي شك أو إكثار من الممكن أن يثير بالنفس، خاصة والأمر يتعلق بأمر عظيم، وهو يوم القيامة، الذي هو أحد أركان الإسلام السبعة التي يجب الإيمان بها، ومن لم يؤمن به فلا حض له في الإسلام، فلهذا أتى بالتوكيذ هنا.
٤ وقد عزز التوكيذ هذا التوكيذ بتوكيذ آخر، وهو اسم الجملة، فأتي بالخبر هنا اسم فعل فقال: (ٍإِلَٰهَكَ ُ ٍجَامِعُ النَّاسِ...)؛ وذلك للدلالة على ثبوت

(١) آل عمران : ١٩٤ .
الأمر وهو الجمع، وهو كذلك ثابت في يقين المؤمنين مذ سمعوه أول مرة، فعبروا عن ثيابه في أنفسهم بالاسم فقالوا: "(...جامع...)

5- ومخوف المضاف، ويقيم المضاف إليه مقامه في قوله: "(...ليوم لا ريب فيه ..."). أي: لنسب يوم، أو نسب يوم، أو نسبه يوماً هذا اليوم، وتفظيعاً لما يقع فيه من الأمور العظيم، والثواب الذي تشير إليه المواقع، ويعرف المرء فيه من أحية وأمنية وأبياته وصاحبه وبيته، يوم تذهب فيه الرضعة عما أرضعت، وتضع الحوامل أحلامها، وكمى بذلك هولا وشدة.

6- ولزيدت تأكيد الحكم قالوا: "(...الانيعاد..."). ومقصودهم من ذلك عرض كمال انتصارهم إلى الرحمة، وأنا المقصود الأسمي عنهم؛ ولاظهار ما هو عليه من كمال الطمأنينة، وقويلة البيتين بآيات الأخبر، لمزيد الرغبة استزال طائر الإباحة، وخلا هذا التأكيد لتوسيع لتمييز المرتبات المنزلة العدد، لقيام الأدلة الكثيرة على نفي هذا الارتباط.

7- ولما كان نفي الخلف في زمن العهد ومكانه أبلغ من نفي خلافه نفسه، عبر بالمفعول فقال: "(...النيعاد...").

وقد يكون التعبير باللمموض الموضح المضموم لـ "لاشعاع باستباع وصف الألوهية للمغفرة والرحمة"، كما في قوله تعالى: "فَلَمْ تُنْعَمُّوا بِاللهِ فَتَجْأَمُوا بِاللهِ وَلَا تَجْعَلُوا لَهُ جَمَاعٍ رَجَمًّا". (1)

يقول أبو السعود: "ووضع اسم الجليل- أي في قوله تعالى:

...(الله غفور رحيم)"- وضع الصغير، للإشعار باستباع وصف الألوهية

---


(2) انظر: نظم الدور: 4 / 251.

(3) آل عمران آية: 31.
لمغفرة والرحمة (1).

١ وحملة "...وَاللّهُ غُفُوْرٌ رَّحِيمٌ..." تذيل مقرر لمضمون ما قبله، مع زيادة وعده بالرحمة، ولم يذكر متعلق الصفين "...غُفُوْرٌ رَّحِيمٌ"؛ ليكون الناس ساعين في تحصيل أسباب المغفرة والرحمة (1).

وقد يكون التعبير بالمنظور موضح المضمون "لتعميم الحكم"، كما في قوله عز وجل: "فَإِذَا أطْعَعُوا اللّهَ الْرَّسُولَ فَإِنَّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ" (2).

فإن الإظهار على الإضمار في قوله تعالى: "...فَإِنَّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ"، لتعميم الحكم لكل الكفرة، والإشعار بعله: فإن سخط الله تعالى عليهم بسبب كفرهم، والإيذان بأن التولي عن الطاعة كفر، وأن محبته عز وجل مخصوصة بالمؤمنين (3).

١- وإثار هذا الإظهار على الإضمار بطريق الألفتات، وذلك لتعتيم حيثية الإطاعة، والإشعار بعله، فإن الطاعة المأمور بها طاعته، من حيث إنه رسول الله حنيفاً، لا من حيث ذاته، ولا ريب أن عنوان الرسالة من موجبات الإطاعة ودواعيها، وهناك لطيفة أخرى وهي: مشاكلة اللفظ للمعنى؛ وذلك لأن التولي هو الإعوان، ويناسب الإعراض عليهم في الخطاب (4).

٢- وتختم هذه الآية بذكر عدم محبة الكافرين؛ رداً للعجز على الصدر المتقدم، في قول الحق تبارك وتعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا..." (5)؛ ليكون نفي المجية عن جميع الكافرين؛ نفيًا عن هؤلاء المعينين.

(1) إرشاد العقل السليم: ٢/٢٥.
(3) آل عمران آية: ٣٢.
(6) آل عمران آية: ١٠٠.
وقد يكون وضع المظهر موضوع المضمر «لزيادة العظمة»، كما في قوله تعالى:

«ومكرروا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَآيَةُ الْمَكَّرِينَ»١.

لما كان المقام في الخطاب الرباني لزيادة العظمة، أوثر الإظهار على الإضمار، فقال: «...وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكَّرِينَ».

١. والمكر فعل يقصد به ضر أحد في هيئة تخفى عليه، أو تلبيس فعل الإضمار بصورة النفع.

والمراد هنا: تذير اليهود لأخذ المسيح، وسعفهم لدى الحكام ليمكؤوهم من قتلهم، ومكر الله هم هو تمثل لإفشال الله تعالى مساعيهم في حال ظنهم أن قد يبحثون مساعيهم، وهو هنا مشاكلة، ويبرز إطلاق المكر على فعل الله تعالى دون مشاكلة، كما في قول الحق بارك وتعالى: «أَفَأَمَّتُوا مَكَّرَ اللَّهَ؟»٢، وبعض العلماء يطلقون على ذلك مشاكلة تقديرية.

وحقيقة «المشاكلة» هي: ذكر الشيء بلطف غيره; لوقوعه في صحته تحققاً أو تقديراً٣، فكانه قال، وأخذهم بمكرهم؛ لأن الله تعالى لا تستعمل في حقه لفظة توضيح الشناعة، وهو كثير شائع في القرآن، و منه في الشعر قول عمرو بن كيلوم٤:

____________________

(١) آل عمران آية : ٥٤ .
(٢) الأعراف آية : ٩٩ .
(٣) المفتاح : ٤٣٤ ; الإيضاح : ٤٩٣ - ٤٩٤ ; وبينظر: المصباح : ١٩٦ .
(٤) هو: أبو الأسود، عمرو بن كيلوم بن مالك بن عتاب، من بني تغلب، شاعر حافظ، من الطبقة الأولى، وفارس شجاع ذو حميمة، ساد قوه، وهو فني، وكان يرور عمرو بن هند ملك الحبشة، وبشهد الشعر، ولكن لم يدخله، فقال في العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ: عتمر بن هند، عمرو بن كيلوم شاعر مقبول، مطبوع، وأشهر شعره معلقته.

(الشعر والشعراء : ١٣٤/١) ; المؤلفات ابن سلام : ١٥١ ; كتاب الطنون : ٨٠٣ .

١٥٦
فنجعل فوق جهل الجاهلية."

أي: فنجازبه على جهله، فجعل لفظة "فنجهل" موضوع فنجازيه للمشاكلة.

وقد يعبر بالظهر بدلًا من المضمّر "إشارة إلى علة الحكم ومراعاة لرؤوس الآي"، كما في الله جل ذكره: "بلى من أتى بعده وآتى فـإن الله يجب المبَّقين".

وقبل بيان العلة في وضع الظهر موضوع المضمّر في الآية، لابد ممّن أن أعرض للضمير في قوله: "...بعده..."، لأن في بيان مرجه جلاه للأمر، وبيانًا له فمرجه، قال: "...فمن..."، وقيل: يعود إلى الله سبحانه وتعالى، فـهو على الأول مصدر مضاف لفعله، أو لفاعله، ولاـبـد مـن ضمـير يعود على "...فمن..." من الجملة الثانية، فإنا أن يقام الظهر مواقف المضمر في الربط إن كان من "...المبَّقين من..."، وإمّا أن يجعل عمومه وشموله رابطًا إن كان المبَّقين عامًا.

وإمّا وضع الظهر موضوع المضمّر، تسجيلاً على المبَّقين بالعهد بالنقوٍة، وإشارة إلى علة الحكم، ومراعاة لرؤوس الآي.

وبلى..." غير مختصة بجواب الاستفهام المفتي، بل يجاب بما عنـد قصد الإبطال، وأكثر مواقفها في جواب الاستفهام المفتي، وجيء بما في الجواب بحكم عام.

(1) البيت من { الوافر }، وهو لعمر بن كثيم من معقلته الشعيرة.
(2) انظر: "نظام الدور" 5 / 418 - 419.
(3) آل عمران آية: 76.
(4) انظر: الذكر المنصوص 2 / 144 روح المعاني: 3 / 203.
ليشمل المصوّد وغيره؛ تفويتاً للمعنى، وقصدًا في المجمل، فقال: «...من أوقى بعدهة...» أي لم تحن؛ لأن الأمانة عهد، «...وأتقن...» ربه، فلم ينكر حق غيره. «...فإن الله يحب المتقين»، أي الموصوفين بالتقى، والمصوّد نفي محبة الله
ضد المذكور بقرية المقام.(1)

وقد يوضع المشهد موضع المشهد "للتوكيد ولقصد الاهتمام بالمذكور"، كما
في قوله تعالى: «وَأَن هُمْ لَفِرَاقٍ يَبْعُونَ أَلسَنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِّبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»(2).

فمن ينظر في هذا النظام القرآني المعجز يلاحظ أن الحق بارك وتعالى قال في:
...يَبْعُونَ أَلسَنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ...(3)،
وقال: «...وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عَنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عَنْدِ اللَّهِ...»، حيث كرر لفظ الكتاب ثلاث مرات، فلو قام على الأصل لقال في الأولى: يَبْعُونَ أَلسَنَتَهُم بالكتاب؛ لتحسبوه منه، وما هو منه، وفي الثانية: ويقولون: هو من عند الله وما هو من عند الله، ولكنه عدل عن الإضمار إلى الإظهار للتأكيد، وتصريحاً بتحديد نعم-root;
ولتهور ما أقدموا عليه من القول؛ أو للاهتمام بالذين، وهذا يؤدي إلى الاهتمام
بالمخرج المتعلق بهما والمتعلقات به.(4)

١- وَلَا كَأَن كَلاَمِ اللَّهِ سَبِحَاتِهِ وَتَعَالَى لَهُ مِنَ الحَلاَلَةِ الجَمِيلَةِ وَالْعَظِيمَةِ فِي النِّفَٰسِ
بِحِيْثْ لا يُنْتَسِقُ بِغَيْرِهِ مِنَ الكَلاَمِ إِلَّا عَلَى ضِعْفِ العَقْلِ وَنَقَافٌ القِطْرَاةِ، عِبَّر
بِالْخِبَاسِ تِنْفِيرًا عَنِ السَّمَاعِ مِنْهُمْ، وَتَنْبِيَّةً عَلَى بَعْدِ ما يُسَمِّعْهُ الْإِنسَانُ مِنْ غِيرِهِ فَقَالَ:

(1) انظر: التحرير والتندور : 3 / 289.
(2) آل عمران آية : 78.
2. والتعبير بالمضارع في تلاِّك الأفعال: «...يَلْتَخَسْبُونَ...»،
و(3) ويقولون...»؛ للدلالة على تجدد ذلك، وأنه دأبه وهمراهم.
3. ويحتمل أن يكون الله في قوله: «...يَلْتَخَسْبُونَ أَلْسِنَتَهُم مَّكَانَاتَهُم...»
بجارًا عن صرف المعنى إلى معنى آخر، كقولهم لوى الحجة، أي: ألقَى بها على غير وجهها، وهو تجريف الكلمة عن مواضعه بالتأويلات الباطلة، والأقباسة الفاسدة،
والموضوعات الكاذبة، ويضيفون ذلك إلى الله جل قدره، وأيامًا كان، فهذا اللَّهُ
يعضدون منه التمويه على المسلمين(1).

وقد يكون الإظهار في موضوع الإضمار لزيادة الاعتناء بالملطهر، كما في قول الله
جل جلاليه: «وَلِيَمْسَحَّنَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْسَحَّنَ الكَافِرِينَ »(2).
فاظهار لفظ الجلالة هذا مع تقدم ذكره في آخر الآية السابقة في قوله تعالى:
«...وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ الطَّالِبِينَ »(3)؛ لإبراز مراد الاعتناء بشأن التمحيص.

وقد يكون الإظهار في موضوع الإضمار، للغنة والمدح، كما في قوله
تعالى: «وَكَأْثَرَ مِنْ بِيِّنِينَ رَبِّيْنَ كَبِيرَانِ كُلِّهَا وَهُمَا لَنَا أَصَابُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَمَا ضُعِفُوا وَمَا أَسْتَكَانَا وَاللَّهُ يُجِبُّ الصَّابِرِينَ »(4).

فاظهار لفظ «...الصَّابِرِينَ» الصابرين، وكان الأصل أن يقال: والله يحبهم؛
وذلك للتنية على الربيبين بحسن الصبر، والإشعار بعلاة الحكم.

1- والتعريف في الصابرين: إما للهد، أي: الذين عهد منهم الصبر، وقد
يكون مرادًا به الجنس، وهم داخلون في ذلك دخولاً أولاً، والجلمة تدليماً لما قبلها.

(1) انظر: التحرير والتدوير: 3 / 292.
(2) آل عمران آية: 141.
(3) آل عمران آية: 140.
(4) آل عمران آية: 146.
2- وقوله : ((...كثير...)) وعت بالصفة لـ ((...وحنون...))، وجيء بـ
مفردًا مع أن الموصوف هنا جمع؛ لأن لفظ كثير وقيل يعامل تعبيرًا. وعامة يعامل
شيء. أو عدد قال تعالى : ((...وابث متهملًا رجلًا كبيرًا ونساء...)) (1). (...).  
3- والجمع في هذه الآية الكريمة بين الوهن والضعف في قوله : ((...فَمَا وَهَنُوا
لَمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعَفُوا...))، مع أنهما متقاربان قربًا يكاد ينقاد
من التراب.  
قال الرحمن : قلة القدرة على العمل، وعلى النزول في الأمر، والضعف ضد القوة
في البدن، وهما هنا مجازان، فأول أقرب إلى حور العزيمة، ودَيْنُ يَسِى إلى
النفس والفكر، والثاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة، وأما الاستكامة
فهي الخضوع والذلت للبدو، ومن طباقتها هنا أنها حالت في الذكر مرتبتة خسب
ترتبها في الوقوع؛ فإنه إذا حارب العزيمة فشلت الأعضاء، وجاء الاستسلام؛ فثبعته
الذلت والخضوع للبدو. (2).
4- وجاجت هذه الآية الكريمة على هذا النظم البديع الصالح لحمل الكلام على
تبني المسلمين في حال الهزيمة، وفي حال الإراجف بقتل النبي ﷺ.
قد يكون الإظهار في موضع الإضمار «ليلان أن ما وقع من المخاطبين هو من
باب الإحسان»، كما في قوله تعالى : ((...فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الْذَّلِيدَا وَحْسَنَ 
تَوَابَ الْأُخْرَى وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّالِحِينَ)) (3).  
ففي الآية وضع الظاهر موضيم للمرهودين؛ وذلك للإشعار بأن مـاحكي
عنهم من الأقوال والأفعال من باب الإحسان.

(1) النساء آية : 1.  
(2) أنظر : الإرشاد : 2 / 69. روح المعتق : 4 / 84.  
(3) أنظر : التحرير والتنوير : 4 / 119.  
(4) آل عمران آية : 148.  
160
1- والتعريف في «المُحسِّنين» قديم يكون مرادًا به العهد، والمعهوحن من حونوا تلك الصفات الخيرة، وقد يكون للجنس، وهؤلاء داخلون فيه دخولاً أوليًا، وهذا أسباب بمقام ترغيب المؤمنين في تحصيل ماحكي عنهم من المنافاب والصفات الجليلة، وهذا من أكبر الأدلة على أن «آل» الجنسية إن دخلت على جميع أبطلت منه معنى الجمعية، وأن الاستعراق المفاد من آل إذا كان مدحوها مفرداً وحيلة سواء 1.

2- وحيلة 2... واللّه يُحبُّ المُحسِّنين» تدليل مقرر لمضمون ما قبله؛ فإن صحّة الله للعبد ورضاه عنه، وإرادة الخبر به غاية كل إنسان ومنه 3.

وقد يكون في وضع الظهر موضع المضمر «تربيبة للمهابة»، كما في قوله جلّ ذكره: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ النُّقِيَّةِ الجَمْعُ» إنما استرِلَّهم الشيطان بعُضْفٍ ساَكِسَمًا وَلَقَدْ عَفَّا اللَّهُ عَنْ هُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ 4.

أعيد لفظ الجلالة في الآية الكريمة في قوله: «...إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» مع تقدم ذكره قبل ذلك بقليل في قوله: «...وَلَقَدْ عَفَّا اللَّهُ عَنْ هُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» وكان يكفيه أن يقول: وهو غفور الرحيم، أو هو الغفور الرحيم، وذلك لتربيبة المهابة، وتأكيد التعبد 3.

1- واشتملت هذه الآية الكريمة على أدب رفع مع الله سبحانه وتعالى، وذلك عندما لم تنسب المعاصي لله سبحانه وتعالى، وإنما نسبت إلى الشيطان؛ تأدياً مع الله سبحانه، وهذا دأب القرآن الكريم، كما في قول صاحب موسى: 5...وما أَنْسَانِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذَكَّرُهُ...» 5 مع أن النمسي له هو الله سبحانه وتعالى،

---


3 (3) آل عمران آية: 155.

4 (4) انظر: الإرشاد: 2/ 103.

5 (5) الكهف آية: 33.
وهذا مذهب أهل السنة في عدم نسبة الشر لله سبحانه وتعالى.

2 - وأعيد العفو في الآية الكريم، ونص عليه في قوله: «ولقد غفَّ الله عِنْهُمْ...» (1)

وكذلك وضع الظاهر موضوع الضمير في قوله تعالى: «ما كَانَ اللَّهُ لِيَذَّرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُبَيِّنَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَّرَ عَلَى الْخَبِيثَ وَلِكَانَ اللَّهُ يَجْتَبِي مِنْ رَسِيلِهِ مِنْ يَشَاءُ قَانُوا بِاللَّهِ وَرَسْلِهِ رَبَّكُمْ فَإِنْ تَوَهَّمُوا وَقَتَمُوا فَلَكُمُ أَجْرَ عَظِيمٍ» (2) «لتوبيка المهابة، حيث أظهر الاسم الجليل» في هذه الآية في الموضعين: «ومَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَّرَ عِنْهُمْ...» (3)

وَلَكِنَّ اللَّهُ يَجْتَبِي مِن رَسِيلِهِ مِنْ يَشَاءُ...» (4)، كما أسلفت لتوبة المهابة. فالمعنى ما كان الله ليترك المخلصين على الاختلاف بالمنافقين، بل يرتب المبادئ حتى يخرج المنافقين من بينهم، وما فعل ذلك بإطالعهم على مايقاربهم من الكفر والانفاق، ولكنه تعالى يوصي إلى رسوله فيخبره بذلك مما ظهر منهم من الأقوال والأفعال حسبما حكى عنههم بعضه.

1 - ولما كان ترك التمييز بين الخبيث والطيب غير محمود، عبر بفعلاً الوذر: «لَيْذَرُونَ...» (5) وأظهر في موضع الاضمار، لإظهار شرف الوصف تعظماً لأهلِهـ

أهل الإيمان، فقال: «لَيْذَرُ الْمُؤْمِنِينَ...» (6).

2 - والتعرض لإيمان هؤلاء المخاطبين: «لَيْذَرُ الْمُؤْمِنِينَ...» قبل الخطاب، وذلك للإشعار بعلة الحكم، وهو التمييز، والمراد بما هم عليه) (7)

3 - والتعريف في: «الخبيث...الطيب...» قد يكون مماداً به الجنس،

(1) انظر: التحرير والتبوير: 4/ 141
(2) آل عمران أيه: 176
(3) انظر: تطهير الدنر: 5/ 135، الإرشاد: 2/ 119
(4) انظر: الإرشاد: 2/ 118

162
هو الأقرب، أي الذي حيث والذي طاب، فيشمل كل من انطابقت عليه هذا الوصف، وقد يكون مراداً به العهد، وذلك إذا كان المعهود في ذلك الوقت، وقت نزول الآية أن الخبيث هو الكافر، والطيب هـ هو المؤمن، كما قال تعالى:

"الطيبات للطيبين..." (1)

وأفرد («الخبيث...») و («الطيب...») مع تعدب ما أريد بكل منهما، وذلك بعد ذكر ما أريد بأحدهما، أعني: المؤمنين بصيغة الجمع، وذلك لإلزام أن مدار تميز أحد الفريقين من الآخر، هو اتصافهما بوصفهما لاذاهما، وتعداد آحادهما (2).

وإذا عبر جمل ذكره بالجمع، فقال: («رسِلِهِ...») ولم يقل: ورسوله؛ لدقيقة، وهي أن الطريق الذي يتوصل به إلى الإقرار بنبوة الأنبياء عليهم السلام ليس إلا المعجزة، وهو حاصل في حق نبينا محمد ﷺ، فوجب الإقرار بنبأة كل واحد من الأنبياء، فهذه أوثر التعبير بالجمع («رسِلِهِ...») والمضمون الذي يرمي إليه الذكر الحكيم، التنبه على أن طريق إثبات نبوة جميع الأنبياء واحد، فمن أثر بنوبة واحد منهم، لزم الإقرار بنبوة الكـل، وما أمر سبحانه بذلك: («يَقُولُوا إِلَيْهِ وَرَسُلِهِ...») قرن به العهد والtheses («وَإِنْ تَوَادُوا وَتُفْقِرُوا فَلْكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» (3).

ومعقول: («يَبْشَأُ...») مخفو، وتقديره: من بين إطلاعه على الغيب، وحذف المعقول مع فعل المشيئة حذراً من التكرار، وهذا من بدائع النظـم القرآني الكريم.

وحرف («والَّآئِي...») في قوله: («أَلَمْ يَا أَلَّمْ عَلَيْهِمْ...»)؛

---

(1) البقرة: 26.
(2) انظر: الإرشاد: 119 / 2.
لاستعمال الأجانيز، وهو التمكن من بحورها 

وقد يكون التعبير بالمنظور بدلًا من المضمور «لكمال العناية بالمنظور»، كما في قوله تعالى: «أَلَيْنَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قَيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جَوْنُبِهِمْ وَبَيْنَ كُرُونِهِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَآا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سَبِّحَانَكَ فَقِينَ عَذَابَ الْعَآبِ».

حيث لم يتعرض النظام هنا لاختلاف الليل والنهار، ولم ينظم في سلك التفكير كما سلك في الآية السابقة؛ لعل السبب في ذلك؛ لإيجاد بظهور اندراجه في حلقة السماوات والأرض لما أن ذلك من الأحوال التابعة لأحوال السماوات والأرض، كما أشير إليه.

وإما للإشارة إلى مساراتهم إلى الحكم بالنتيجة، ومجرد تفكيرهم في بعض الآيات من غير حاجة إلى بعض آخر منها في بعض المطلوب.

١ - وانظر للإجاز البديع في قوله: «...وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...»، حيث انطوي تحت هذا الإجاز كل ما تمجن عنه العلم من روائع المكتشفات، وبدائع المستنبطات.

٢ - والتقدم، والترتيب بين القيام، والقعود، أو حالات الاضطلاع على الجنوب في قوله: «أَلَيْنَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قَيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جَوْنُبِهِمْ...» قد يكون مرعاة للحالة التي يكون الذكر فيها أخف، فالذكر في القيام أخف على الإنسان، ثم يليها حالة القعود، فالذكر فيها فيه نوع من القول على الإنسان؛ وذلك لأن الإنسان لا يعقد في الغالب إلا في حالة الفراغ من الشواغل، ثم انتقل بعد ذلك حالة الذكر حال الاضطلاع؛ لأن الذكر فيها أشد مما قبل؛ وذلك لما عهد عن الاضطلاع مسن كونه هيئة استراحة وفراغ من الشواغل كذلك.

(1) انظر: التحرير والتوضيح، ص 178.
(2) آل عمران الآية: 191.
(3) انظر: الإرشاد، ص 130.
وقد يكون ترتيب التقدم مراعاة لما هو أقصر زمناً في الغالب، فسأبداً بالقيام، وذلك إذ زمانه في الغالب أقصر من زمان القعود، ثم بالقعود إذ زمانه أطول، وبالإضطلاع إذ زمانه أطول من زمان القعود.

٣- وانظر إلى حسن حوارنة المفكرين، فهم حاطبوا الله تعالى

«ربنا يا مهاجرون،» وهي إشارة إلى أنه راعهم أصحهم وهماءهم للعبادة، فأخبروا أولاً

بنتيجة هذا التفكير، وهو قولهم: «ربنا يا مهاجرون،» ثم سألوا الله

سأبهان أن يقيهم عذاب النار بعد تزويجه عن النقاص: «سَيَفْحَبُكُمْ فَيُقَسَّمُ الْعَذَابَ

التارى.»

٤- والإشارة إلى قوله: «فَهَذَا...» في قوله: «ربنا يا مهاجرون.» للتعليم، أي: تعليم المشار إليه، كما في قوله تعالى: «إِنَّ هَذَا

القرآن...» هو كنذة عن المخلوق يعني ما خلقته هذا المخلوق العجيب باطلأ. 

٥- وفي قوله: «فَهَذَا...» إيا عنه بالذيف، حيث حذف

الموصوف، وأقيمت الصفة، أي: خلقاً باطلأ (١).

٦- ولما كان الاقتصار على هذه الدار مع ما يشاهده من ظهور الأشرار نقصاً

ظاهرةً، وخلالاً بيناً، نزهو عنه، فقالوا: «سَيَفْحَبُكُمْ...» وفقه عليهم العباد

لأدب من آداب الدعاء، وهو يقدم الثناء قبله، وتنبيه للعبد على أنه كلمة غَزَرت

معرقته زاد خوفه فراد تضرره، فإنه يحسن منه سبحة وتعالى كل شيء من تعذيب

الطائع وغيره، ولولا ذلك لكان الدعاء بفعله عيناً.

٧- ويجيء بالنيلان التقيب في حكاية قولهم: «فَقَنِّيَنَّا غَذَابَ النَّارِ...»

لأنه ترتيب على العلم بأن هذا الخلق من جملة الحق أنه لا يستوي الصحيح والطالح،

١- انظر: البحر المجيد: ٣٥١٩.

٢- انظر: التفسير الكبير: ٣٢٩٩.
والطيب والعاصي، فعلموا أن لكل فريق مستقراً يناسبه، فسألوا أن يكونوا من أهل الخير، وهم من ضمن النار وحسن القرار(1).

ويستناد هذه اللفظية من لطائف النظم في هذه الآية الكرمة أختم هذا المبحث من مباحث الفصل الثاني، من أباب الأول.

(1) انظر: التحرير والتدوير: 198.
المبحث الثالث:
التعبير عن الماضي
بالمستقبل، والعكس
التعبير عن الماضي بالمستقبل وعكسه

من المعلوم لدى دارسي اللغة وغيرهم، أن الفعل يدل على: حدث، وزمم. فالفعل الماضي، يدل على أن الفعل وقع في الزمن الماضي، والفعل المضارع، يدل على أن الفعل واقع في الحان، أو سيقع في المستقبل، وهذا هو الأصل فيهما. فإن جاءت الأفعال على هذا الأصل، كان الكلام جارياً على مقتضى الظاهر، فـإن خالف ذلك، وعبر عن المضارع بلفظ الماضي، أو عن الماضي بلفظ المضارع، كان الكلام جارياً على خلاف مقتضى الظاهر، وهذا الأمر لا يكون في كتاب الله سبحانه وتعالى، خصوصاً إلا لسر، أو نكتة بلاغية يقتضيها المقام.

وتبقي بعض البلاغيين، كـ"العلوي" صاحب "الطراز"، و"ابن الأثير" صاحب "المقل السائر"، يجعل مقتضى الظاهر في صيغ الأفعال مـبـاب اللفظات الذي سيأتي الحديث عنه، إذ يرون أن اللفظات: هو العدل من أسـلوب في الكلام إلى أسلوب آخر، مختلف للأول، ويكولون: إن هذا أحسن من ظهور على العدو من غيبة إلى خطاب، ومن خطاب إلى غيبة، أي: من مـبـابه إلى مـبـابه.

ومثل هذا الخلاف، لا فائدة فيه؛ لأن المهم هو أن تعرف هذه الصـور التي خالفت مقتضى الظاهر، والوقوف على ما وراءها من مزايا وأسرار بلاغية، أما جعلها من اللفظات، أو جعلها صوراً مستقلة عنه، فإن ذلك لا يفيد المدارس.

نعم، فالخلاف في كون هذا الأسلوب من اللفظات، أو من غيره، للعائل منـ
ورائه؛ لأن هذا كثيراً من الباحثين المحدثين يضرون عنه صفاً.

فتوبي بالمضارع مكان الماضي؛ لإحضار صورة الفعل أمام السامع، حتى لكونه

(1) انظر: علم المعاني دراسة بلاغية ونقده. 1/ 297، 168.
يشاهده، وليس بمقدور الفعل الماضي تصوير الحدث، وإحضاره في ذهن السمع.
لأن سامعه قد يتهيأ بأن يتخيل فعلًا قد مضى، وربما لا يستحضر صورته، أو
تكرره؛ تأمل في كلمة (تُنَلُّو...» من قول الحق تبارك وتعالى: (ذُکَّرَ تَنُلُّوَ عَلَبَةٌ مِنْ اثْنَاءِ وَالْذَّكَرُ الْحَكِيمُ» (1)، حيث عبر بصيغة الاستقبال
(تَنُلُّو...»، ولم يقل: تُنَلُّو، مع أن الفعل قد وقع في الزمن الماضي؛ وذلك
لأن القرآن يريد إحضار الصورة في أذهان المستمعين قاسيًا مما يشاهدهمها.

1 12 أضاف الحق تبارك وتعالى التلاوة إلى نفسه، مع أن التالي هو حبر
تشريفًا له، حيث جعل تلاوة الأمور تلاوة الأمر.
2 12 واسم الإشارة (ذُکَّرَ...» إشارة إلى ما سلف من نبأ عيسى، ومانية
من بعد؛ للدلالة على عدم شأن المشار إليه، وبعد منزلته في الشرف، وعلى كونه
في ظهور الأمر، وباحة الشأن بعثة المشاهد المعاين.
3 12 و ((...الْحَكِيمُ) معنى المحكم الحقن نظمه، أو المسنود من الباطل، أو
صاحب الحكمة، وحينئذ يكون استعماله لما صدر عنه فيما اشتمل على حكمته، إما
على وجه الاستعارة التبديلية في لفظ ((...الْحَكِيمُ)، أو المجاز العقلي بأن أسند للذكي
ما هو لسببه وصاحبه، وجعله من باب الاستعارة بالمفاهمة التحليلية بأن شبه القسس
بناطيط بالحكمة، وأثبت له الوصف ((...الْحَكِيمُ) تحيلاً، فيه تكلف ظاهر لأنه
موج إلى تكلف مجهول في دفع شبه ذكر الطرفين حينئذ.(1).
وتأمَّل كذلك كلمة ((...فَيَكُون...» من قول الحق تبارك وتعالى: (إنَّ فَيَكُون
عَيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلٍ آدمٍ خَلْقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كَنَّ فَيَكُونَ» (2)، حيث عبر

(1) آل عمران آية : 58.
(2) الظاهر: روح المعاني : 3 / 185 ; التحرير : 3 / 262.
(3) آل عمران آية : 59.
الحق حلق ذكره في هذه الآية بصيغة المضارع المقترن بالفاء دون الماضي حيث قال:

«فإذا قُتِّيْتُونَ» دون «فكان»، وإن كان هو المبادر إلى الذهن في أول الأمر، وذالك لاستحضار صورة تكونه، إشارة إلى أنه كان مع الأمر من غير تحليف، ولا يحمل المضارع في مثل هذا إلا على هذا المعنى، وذلك كقوله تعالى: «وَاللَّهُ الْمَلِيَّ</p>
</div><div class="content">(1) وحمله على غير هذا المعنى لا وجه له. وتناول كذلك كلمة «إذا تحسوْتُهم» من قوله تعالى: «وَلَقَدْ صَدْقَكُمُ اللَّهُ وَغَدَّتْ إِذْ تَحْسُوْتُمْ بِهِ «إِذْ قَامْتُونَ» وَتَنُّزُعُونَ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْنِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ أَوْ أَرَادُوكُمْ مَآ أَنْتُمُونَ مِنْ ظُلْمِ الْئَلَّةِ وَمَنْ كَفَّارَ الْأَخْبَرَةَ نَمْ صَرَفْكُمْ عِنْهُمْ يَتْلُونَكُمْ وَلَقَدْ غَفَّاً عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذَٰلِكْ عَفَا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (2)»، حيث «إذا... إذا...» للمضي، وأتى بعداها بالمضارع «إذا تحسوْتُهم»، وذلك لافادة التحديد، أي: لتحدد الحس في الماضي، وكذلك لتصويره، وإحضاره في النفس، والحس: يفتح الحاء القتيل، كذا قال أكثر أهل اللغة (3)، قبل القتال الذريع، كذا قال صاحب اللسان (4).

و«إذا... إذا...» في قوله تعالى: «...إذا قَضَيْتُمْ» اسم زمن، وهو في الغالب للزمان المستقبل، وقد يخرج عن أنه الزمان مطلقًا، كما في هذه الآية الكريمة، ولعل نكتته في ذلك أنه أريد استحضار الصورة العجيبة، تبعًا لقوله:

«...تَحْسُوْتُهم...» (5)»
</div><div class="notes">

(1) فاطر آية: 9.
</div>
١ - والفشل والتنازع: التخلف.

والمراد بالعصابان هما عصابان أمر الرسول ﷺ، وقد رتب الأفعال الثلاثة في الآية 

«فَشَّلْهُمْ وَتَنَازَعَّهُمْ فِي الْأَمْرِ وَغَصَّبْهُمْ...» على حسب ترتيبها في الحصول؛ إذ كان الفشل، وهو ضجر بعض الرماة من ملازمة موقفهم؛ للطمغ في الغنيمة؛ قد حصل أولًا فنشأ عن التنازع بينهم في ملاءمة الموقف، وفي اللحاق بالجيش للغنيمة،WNتشاً عن التنازع تصميم معظمهم على مفارقة الموقف الذي أمرهـ الرسول ﷺ بملامته، وعدم الانصراف عنه، وهذا هو الأصل في ترتيب الأخبار في صناعة الإنشاء، ما لم يقيض الحال العدول عنه.


٣ - والقول عن ذكر الغنيمة باسمها الصريح، والتعبير عنها بالأسم المر寸ول

«مِنْ تَغْطِيَةِ مَا آرَكُمْ مَا لَحَبُّونَ...»؛ تنبهها على أغلب عجلُوا في طلب المال المجهوب، والكلام على هذا تمهيد لبسط المعدرة؛ إذ كان فشلهم وتنازعهم وعصبُهمم عن سبب من أغراء الحرب، وهو نيل الشهادة في سبيل الله، وهو إحدى الخضنين.

٤ - والمقعدة في قوله تعالى: «مِنْ تَغْطِيَةِ مَا آرَكُمْ مَا لَحَبُّونَ...» التنبه

على عظم المعصية؛ لأهم ما شاهدوا أن الله تعالى آركهم بإتخاذ الوعد، كان مـحقِّهم أن يمتعوا عن المعصية، فلم أقدموا عليها، لا حرم سلبتهم الله ذل الإكـرام، وأذاهم وبال أمرهم.

٥ - وتأتي الجار في قوله: «مِنْ تَغْطِيَةِ مَا آرَكُمْ...»؛ تصويرًا للمخالفـة،

بأخها كانت عقب رؤية النصر سواء، وتبشيرًا بزواها.

(1) انظر: التفسير الكبير: 9 / 37.
(2) انظر: التحرير والتحوير: 4 / 128.
(3) انظر: التفسير الكبير: 9 / 37.
6- وقوله: 

وَبَعْضُكُمْ مُنَبِّئُونَ مِنْ يَوْمِ الْقَدْسِ وَبَعْضُكُمْ مَنْ يَوْمِ الْآخِرَةِ...،

تحلُّل لما أجمل في (وَبَعْضُكُمْ مُنَبِّئُونَ، وَبَعْضُكُمْ مَنْ يَوْمِ الْآخِرَةِ...،)

وتأتي في (وَبَعْضُكُمْ مُنَبِّئُونَ، وَبَعْضُكُمْ مَنْ يَوْمِ الْآخِرَةِ...،)

وتحث في (وَبَعْضُكُمْ مُنَبِّئُونَ، وَبَعْضُكُمْ مَنْ يَوْمِ الْآخِرَةِ...،)

وتحمل على مثابرة المحتملين المتزامنين؛ إذ الذين أرادوا الآخرين ليسوا

بعاصميين؛ ولذلك أخترت هذه الجملة إلى بعذاق الفعل، وكان مقتضى الظاهرة أن

يجب أن يعقب بما قوله: (وَبَعْضُكُمْ مُنَبِّئُونَ، وَبَعْضُكُمْ مَنْ يَوْمِ الْآخِرَةِ...،) وفي هذا المنتشر للجملة ما أخبر عن

ذكر ثلاث جمل، وهذا من ابتداء وجهة الإعجاز.

7- والطعن به (وَبَعْضُكُمْ مُنَبِّئُونَ، وَبَعْضُكُمْ مَنْ يَوْمِ الْآخِرَةِ...،) في قوله تعالى: (وَبَعْضُكُمْ مُنَبِّئُونَ، وَبَعْضُكُمْ مَنْ يَوْمِ الْآخِرَةِ...،)

ليثبتكم...؛ لا استعداد الهمزة، بعدما رأوا النصر.

8- وقوله: (وَبَعْضُكُمْ مُنَبِّئُونَ، وَبَعْضُكُمْ مَنْ يَوْمِ الْآخِرَةِ...،) أي: ليعاملكم معاملة من يعذبهم، ليسوا

أمركم وثباتكم على الإيمان، فهذا الكلام جار على سبيل الاعتقاد التمثيلي؛ وذلك

لأن الامتحان مجال على الله تعالى، وذلك لعلم الله تعالى بما انتجت عليه القلوب.

9- وإنظر في هذا النظم كيف يتجلى نطق اللطيف المجهر، حيث عقب الملامسة

في هذه الآية الكريمة بقوله: (وَلَقَدْ عَفَّا عَنْهُمْ...،) تسكينًا لخواطرهم، وفي

ذلك تلطف معهم على عادة القرآن الكريم في تجريف المؤمنين، وأعظم من ذلك تقديم

العفو على الملاءم في ملام السبيLOGIC في قوله: (عَفَا اللَّهُ عَفَا لَهُمْ لَمْ يَذَّنَّ لِهُمْ...،)

فتلك رابع أشر من رتبة تعقيبة الملاءم بذكر العفو، وفيه أيضًا دالًا على صدق

إيمانهم؛ إذ عدل لهم الإعلام بالعفو، ولكي لا تثير نفوسهم رهبة وخوفًا من غضب

الجبار سيخانه عليهم.

10- وإظهار لفظ (وَلَلَّهِ دُوَّارُ الْقُوَّةِ) في قوله: (وَاللَّهُ دُوَّارُ الْقُوَّةِ)

المؤمنين)؛ للتعويض، وتعليق الحكم بالوصف.  

(1) انظر: التحرير والتنوير: ١٢٩/ ٤.
(2) التوبة: آية: ٤٣.
(3) انظر: التحرير والتنوير: ١٣٠/ ٤.
وتأمل هنا في قول الحق تبارك وتعالى: "ألَّذِكَ سَمَعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَخَ陛َ أُعْبَدُونَ سَمَكَتُبَ ما قَالُوا وَقَلِلهُمْ الأَلَّذِينَ بَعْضِهِ حَقٌّ وَقَلَفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ"، حيث قال: "لَذِكَ سَمَعَ..."، ثم عبر بالمضارع فقال:

"...سَمَكَتُبَ..."، مع أن المناسب للمقام التعبير الماضي «ولقد كتبنا». والسر في ذلك _ والله أعلم _ أنه لما ذكر السماع أولاً مؤكداً بالقسام:

"لَذِكَ سَمَعَ اللَّهُ..."، ثم قال: "...سَمَكَتُبَ..." على جهة الوعيد، ومعنى:

لن يفوتنا أبداً إثبات ما تفوه به أولئك المكابرُون؛ من إخوان القُرْدَة والخنازير، وتدوينه؛ لكونه في غاية العظم والهول، كيف لا، وهو كفر بالله تعالى، واستهزاء بالقرآن العظيم، والرسول الكريم، كما لن يفوتنا قتلهم الأنياب قريبة نه بأحلي في العظم أخوان، وأن هذا ليس بأول ما ركبو من العظام، وبأحم أصلاء في الكفر، وهم فيه سواقي، وأن من قتل الأنياب، لا يستبعد منه الاحتراء على مثل هذا القول.

قال «الزمخشي»: "فإن قلت: كيف قال: "لَذِكَ سَمَعَ..."، ثم قال: "...سَمَكَتُبَ..." وهلا قبل: "ولقد كتبنا"؟ قلت: ذكر السماع أولاً مؤكداً بالقسم، ثم قال: "...سَمَكَتُبَ..."، عليه الوعيد، معنى: لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه، كما لن يفوتنا قتلهم الأنياب، وجعل قتلهم قريبة له، إذناً بأحلي في العظم أخوان، وأن هذا ليس بأول ما ركبو من العظام، وبأحم أصلاء في الكفر، وهم فيه سواقي، وأن من قتل الأنياب، لا يستبعد منه الاحتراء على مثل هذا القول".

1_ والسين في "...سَمَكَتُبَ..." ؛ للتأكيد، جيء بما ها ؛ للدلالة على قرب تحقيق هذا الوعيد؛ وذلك للبحث على الثوب قبل ختم رتب الشهادة.

2_ والتعبير بالسماع في قوله: "لَذِكَ سَمَعَ اللَّهُ..."؛ بالإشعان بأنه من الشناعة.

 آل عمران آية: 181.
(1) الكشاف: 646-447، ونظر: أنوار التزف: 57.
(2)
والسماحة بحيث لا يرضى قائله بأن يسمعه سامع.

وتأكيد هذا السماع بالقسم ؛ للتشتديد في التهديد ، والبالغة في الوعيد(1).

3_ والذوق في الحقيقة إدراك الطعوم ، واستعمال هذا مجازاً مرسلاً في الإحساس بالعذاب ، فعلاقته الإطلاق ، ونكته أن الذوق في العذاب يستثنى تكير ذلك الإحساس ؛ وذلك لأن الذوق يتبع الأكل ، وهذا الاعتبار يجوز أن يكون في قوله : 

»...دُوقوا...» استعارة مكية.

4_ وفي قوله : »...دُوقوا غذاب الحريق» مبالغة في الوعيد ، حيث ذكر فيها العذاب ، والحريق ، والذوق المتبع عن الجهل (2).

5_ وانظر للطابع بين : فقيه ، وأغنياء في قوله : »...إن الله فقير وطحْنٌ أغنياء...».

وقد يكون الأمر على العكس من ذلك ، وذلك بأن يعبر عن الفعل المضارع بالمستقبل ، كما في قوله تعالى : »يألَّاهِ اللَّهُ أنَّهُنَّ لَا تَكُونْنَ كَذَٰلِكَ نَفْسَنَا وَقُلْنَا لِإِخْوَانِنَا إِذَا ضَرَّبُوا فِي الْأَرْضِ أَوُ كَانُوا غَرَّى لَو كَانُوا عَنْهَا مُجَاهِدًا وَمَا قَبَلُوا لِيُجْلِبَ اللَّهُ ذَلِكَ حُسُرًا فِي قُلُوبِهِمْ وَلِلَّهِ يَسْتَغْلِبُ وَيُبَشِّرُ وَلِلَّهِ بَشْرَاءُ...» (3) ، حيث قال : »...إِذَا ضَرَّبُوا فِي الْأَرْضِ...» فـ: »...إِذَا...» ظرف للمستقبل ، وقد جاء متعلقًا بـ »...وَقَالُوا...» ، وهي فعل ماضى ، وكان ظاهر الكلام يقضي بالإتيان بالفعل المضارع بعدها ، وإذا لم يكن ذلك علم ان النظائر الكريم يهدف من وراء ذلك لفائدة ، لا تتحقق إلا بهذا السياق .

فيمكن أن يكون الفعل »...وَقَالُوا...» تقديره : » يقولون » ، فكأنه قال : لا تكونوا كالذين كفروا » ويقولون لإخوائكم كما كذا وكذا ، وإذا عبر عن المستقبل

(1) انظر : إرشاد العقل السليم : 121.
(2) انظر : روح المعاني : 142.
(3) آل عمران آية : 156.
بلفظ الماضي لفائدتين:

إحداهما: أن الشيء الذي يكون متحقق الواقع في المستقبل، فقد يعذر عنه بأنه حدث أو هو حادث، كما في قوله تعالى: "أَنْ تَأْمُرُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْحَقَّ إِلَّاَمَوْ Attend..."(1)، فهذا لو وقع التعبير عنه بلفظ الماضي، لم يكن فيه مبالغة. أما لما وقع التعبير عنه بلفظ الماضي، دل ذلك على أن جدهم واجتهادهم في تقدير الشبيهة، قد بلغ الغاية، وصار بسبب ذلك الجدد هذا المستقبل كالكيان الواقع، وهذا على سبيل الاستعارة التعبوية التصويرية في الفعل الماضي، ولهة الإيمان في المستقبل بالإثبات في الماضي بجامع التحقق في كل، فكانه استعار للمستقبل لفظ الماضي تعظيمًا للتعبير عن تحقيق الواقع للضرورة، فتأتي هنا معنى سياسات لا محل.

وثانيهما: أنه تعالى لما عبر عن المستقبل بلفظ الماضي، دل ذلك على أنه ليس المقصود الإخبار عن صدور هذا الكلام، بل المقصود الإخبار عن جدهم واجتهادهم.

وقد يكون الكلام قد خرج على سبيل الحكايـة الماضي، واستحضارها في الذهن، وفاداها استمرار الزمان المنظم للحال والذي يدور عليه الحـدث إلى زمن التكلم، ولمعنى: أن إخراجهم إذا ضربوا في الأرض، فالكفارون يقولون: لو كـانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا(2).

1 - وجوهر الشرط في قوله تعالى: «...إذا ضربوا في الـأَرَضِ أو كـانوا غَزِيَّا...»، مخوف ، يدل عليه قوله بعده: «...لَوْ كَانُوا عَنْدَنا مَا مَاتُوا وَقُتِلُوا...»، وتقديره: إذا ضربوا في الأرض، فماتوا، أو كانوا غزيا، فقتلوا.

وهذا إنجاز بجذف، يغي عن تكرار الكلام، وإطالة من غير طالب(3).

(1) النحل أية: 1.
(2) انظر: الكشاف : 431 _ 430 _ التفسير الكبير : 95 / 95.
2 - وأفرد الغزو بالذكر مع اندراجه تحت الضرب في الأرض، إذا ضربوا في الأرض أو كأنوا غزياً...»، لأنه المتضمن بيانه في المقام، وذكر الضرب في الأرض طولة، وتقديم الضرب في الأرض على الغزو، لجنة وقوعه، على أنه قد يوجد بدون الضرب في الأرض، وإذا المراد به السفر البعيد، وإنما لم يقل: أو غزوا، الإذان باستمرار بعنوان كونه غزاة، أو بالقضاء ذلك، أي: كانوا غزرا فيما مضى.  

3 - وفي قوله: ۵۹۹»ما ملأوا وما قيلوا...» فحكم بلغ بقوله المنافقين، وذلك لأن إطلاق هذا القول منهم لاسيما على هذا التأكيدي، يلزم منه ادعاء أنه لا يوجد أحد في المدينة، وهذا لا يقول به عاقل.  

4 - وفي قوله تعالى: ۶۰۰»وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ...» طبق بين الحياة والموت، وهذا من أوجر الحديث، وأصدقه، وأعدته في الدلاله على المعنى المراد، فإنه سبحانه تعالى قد يحي المسافر والغازي مع اقتحامهما موارد الملكة، ثم يعيد المقيم والقاعد، مع أخذهما بأسباب الحيطة والحذر، ورضي الله عن سيف الله المسلم أي سليمان عالد بن الوليد، حين قال: «ما في موضع شير إلا وفيه ضربة، أو طمعة، وهاذذا أموت كما مبوت الغير»، فلا نامت أعين الجناء.  

5 - وفي حكم الآية الكريمة بـ ۶۰۱»وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا تَجْدِيدًا يَبْلِغُ للمؤمنين، على أن يماثلوا المنافقين في فعلهم الشنيع، وقرئ: ۶۰۲»بَصِيرًا تَجْدِيدًا يَبْلِغُ ...»، وما تعملون عام متناول لقوتهم الذكور آنفاً والدافع لقوهم هذا، وهو اعتقاذهم، ولما يترتب على ذلك من الأعمال؛ ولذلك تعرض لعنوان البصر دون السمع.

(1) انظر: التفسير الكبير ۹/ ۴۴، إرشاد العقل السليم ۲/ ۱۳۳.  
(2) انظر: نظم الدور ۵/ ۱۰۳.  
(3) سير أعلام النبلاء ۱/ ۳۸۲.
وإظهار الاسم الجميل في موضع الإضمار؛ لenerimaهة المراهنة، والقائه الروعة، والمبالغة في التهديد، والتشديد في الوعيد. 

ومتى هذه اللطيفة البديعة التي ختمت هذه الآية الكرمة، أهتم هذا المبحث.

(1) انظر: إرشاد العقل السليم: 2/104، روح المعاني: 4/23، 197.
المبحث الرابع
الاتفاقيات
البحث الرابع

الأنفاس

أرى واجباً عليًّا فئ الحديث عن أسلوب «الأنفاس» في هذه السورة "سورة آل عمران"، أن أتحدث قليلاً عن وقفات الأقدمين على هذا الأسلوب وأسلوب «الأنفاس» من الأساليب العربية في اللغة العربية، فقد ورد عند كثير من الشعراء الجاهليين في قصائدهم، وقد كتب في القرآن الكريم، وفطن كثير من العلماء الأقدمين لهذه الأسلوب، وإن اختلفت تسميتها عندهم، فقد أشار إلى "الفراء"، وذكره "أبو عبيدة" في "مجاز القرآن"، حيث يقول: "ومن مجاز ما جاءت مخاطبة مخاطبة الشاهد، ثم تركت وحولت مخاطبة هذة إلى مخاطبة الغائب، قول الله تعالى: "...حتى إذا كنت في القلوب وجرحى بهمٍ بريح طيبة..." (1) أي بكم" (3).

وفي "الأصمعي" هو أول من أطلق هذه النسمة، فقد ذكر "أبو هلال" عن "يجي بن محمد الصولي"، قال: قال "الأصمعي": أتفرع التفاتات "جوهر"؟ قلت: لا، فما؟! قال: أنتى إذ تدعنا سليمي بعوً بشامٍ، سفي الشام" (4).

(1) انظر: معاي القرآن: 1/105.

(2) بنجح اللغة، وفون الأدب، فلبياً، متكمل، عام بأيام العرب وأخبارها، ولد بالكوفة سنة 144 هـ، ودرس اللغة والقرآن على الرؤاسي، ويوس بن حبيب، والكسيائي، وانقل إلى بغداد، وأتلهف به التلاميذ، فكان أكثر مقامه بها، وسمي بالفراء؛ لأنه كان يفبر الكلام توبي سنة 169 هـ، ومن آثاره: "معاني القرآن".

(3) معاو، الأدباء: 1/2883، نزهة الألباب: 48، البداية والنهاية: 10/1، معاي، المفسرين: 2/730،

(4) معاو، القرآن: 1/111، معاو، القرآن: 1/111، معاو، القرآن: 1/111.
ألا تراه مقبلًا على شعره، ثم النفت إلى البشام، فدعا له.
(1)
فـ"الأصمعي" يطلق الالتفات على نوع من التعبير، وهو ذلك الكلام الذي يظنه المتكلم أن محدثه قد فرغ منه وانتهى من معناه، وسيترك هذا المعنى، ويجوزه إلى معين آخر، فإذا به ينفت إلى المعين الذي فرغ منه، فيذكره وغير ما تقدم ذكره به.
وذكر "ابن المعتز" في كتابه "البديع" أن الالتفات على نوعين: نوع يصرف فيه المتكلم عن المحاطة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المحاطة، وما يشبه ذلك، وهذا هو الالتفات الذي اصطلح عليه البلاغيون، ونوع يصرف فيه المتكلم عن معين يكون فيه إلى معين آخر (2)، وهذا يرد به تلوين العبارة، ويمكن أن يدخل فيه الاستطراد.
ثم بدأ الالتفات يأخذ معين دقيقًا، بعد أن استقرت علوم البلاغة.
وقد عرفه "الفخر الرازي" بقوله: "إنه العدول عن الغيبة إلى الخطابة، أو على العكس" (3).
وأدخله "السكاكيني" بعد أن ذكر أحوال المسند إليه في "علم المعاني"، وقال: "إن هذا النوع - أي نقل الكلام عن المحاكاة إلى الغيبة - لا يختص المسند إليه، ولا هذا القدر، بل المحاكاة، والخطابة، والغيبة ثلاثين ينقل كل واحد منها إلى الآخر، ويسمي هذا النقل الثفناً عند علماء "علم المعاني" (4).
وترجع فائدة الالتفات في الأسلوب العربي - كما ذكر "الزمخشي" - إلى أنه أحد طرق العرب في التfen في الأسلوب، لجذب الانتباه، وإيقاظ النفس وطريقتها.

---
(1) انظر: الصناعتين: 392.
(2) انظر: البديع: 152، 153.
(3) خطبة الإخبار: 203.
(4) مفتاح العلوم: 191.
وبعث النشاط فيها، وهذا هو ما يريد المتكلم.

لكنّ «ابن الأثير» لم يرد هذا التعليق، فقام برد، وبين أن العلة في الألفات ليس كما ذكره «الزمخشري»؛ لأن الانتقال من أسلوب إلى آخر إذا لم يكن إلا تطرية للسماع، وحذب انتهاه، فذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد.

وهذا فيه قدح في كلام المتكلم، لأنه لو كان حسنًا لما مله. ولو سلمنا لـ «الزمخشري» بذلك؛ لكن اللفات مقصورة على الكلام المطول، ولكن الأمر يختلف ذلك، حيث نجد اللفات في الكلام الموجز كذلـك، وهو كثير في القرآن الكريم.

وأوضح «ابن الأثير» كذلك أن مفهوم الانتقال عند «الزمخشري»، يستعمل لقصد المخالفة، لا ذهابًا للأحسن، وعلى فعل وح단ا كلامًا قد استعمل في جميعه الإيجاز أو الإطناب، ولم يتلقت عنهما، وكان كلاهما واقعًا موقفه، قلنا: هذا ليس بحسن؛ إذ لم يتلقت فيه من أسلوب إلى أسلوب، وهذا قول فيه مايذه.

ثم يستنكر على «الزمخشري» ذهابه إلى هذا التعليق، ويقول: «وما أعلم كيف ذهب على مثل «الزمخشري» مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة».

ثم يذكر «ابن الأثير» تعليمه المرتضي لحسن اللفات، ويقول: «والذي مني في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب، لا يكمن إلا لفائدة اقتسمه، ونكل الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غـير أرجـا لاحظ بـعد، ولا تضبط بـضباط، ولكن يشار إلى الموضوع فيها ليقاس عليها غيرها»(1).

وقد ذكر «ابن أبي الحديد» هذا الاعتراض، وقام بتفديده، ويمكن إجمال رده في النقاط التالية:

(1) انظر: الكشاف: 14/1.
(2) المخطط السائر: 2/182، وما بعدها.
أولاً: أن ملل المستمع الكلام الملقى إليه، لا يستلزم ردئته، بل على العكس من ذلك، فالملل لا يكون إلا من الملقى، لا تراهم يقولون: قد مللت من أكل الحلويات؟ ولأن الأشياء الكريهة لا تقال بها: مللتها.

ثانيًا: لما كان مراد الواضع إفهام السامع، وهذا الأمر لا يكون إلا بالإصغاء احتلال الواضع لتحصيل الإصغاء بقليل طريق، فكان من تلكلم الطرق الالتفات بشئين طرقة: ليجد السامع ما يوقعه، ويتحبه على الامتثال، ولفتة الانتباه بالإفهام النجدة يقع في قصيرة الكلام وطويلة حسب ما تقتضيه المصلحة.

ثالثًا: أن «الخضيري» ما جعل حسن الكلام مقسورة على الالتفات، ولكنما قال: إن الالتفات ما تستعمله العرب، ووجه استعماله أنه يحصل منه نوع تنبه ما للسامع، وتحديد لنشاطه إلى سماع الخطاب، فلا يلزم من ذلك أن كل خطاب الالتفات فيه فإنه لا يكون حسنًا، كما إذا قلنا: إذا حسن استعمال الالتفات والتحnis في الشعر لكذا وكذا، لا يلزم من أن يكون كل شعر لا تجنس فيه ولا مطابقة غير حسن.(1)

وكلام «ابن الحديد» وحيه، ولا غبار عليه.

وإذا ماستثنينا «ابن الأثر»; فإننا نجد البلاغيين والمفسرين، متفرقين على الأثر الفني، الذي ذكره «الخضيري». هذا الأسลอง، وإن اختلافوا حول مفهوم الالتفات، فجمهور البلاغيين يقترونه على الانتقال من الحكاية، والخطاب والغيزة إلى كل منهما، والسكاكي ومن سار على مجهه مبتدون به، ويوسعون فيه، فجعلون الانتقال من أسلاك إلى آخر، أو حين التعبير على نحو لم يكن حسنًا يقتضيه الظاهر.

ولو شك أن مذهب «السكاكي»، ومن تبعه أكثر اتساعًا، من مذهب الجمهور.

(1) انظر: الفلك الدائر: ۲۰۰۹، وما بعدها.

۱۸۲
وعلى هذا فكل النفاث. عند الجمهور. هو النفاث عند "السقاكي"، وليس كـ 
النفاث عند "السقاكي" النفاث عند الجمهور.

هذا والفائدة التي ذكرها "الزمخشي"، فائدة عامة في كل النفاثات، ورضا تميز
كل النفاثا بزوايا خاصة به بالإضافة إلى الفائدة العامة التي أشارنا إليها سابقاً.

هذا وقد يكون اللفظات "المبالغة في التهديد والزجر من يزدجو"، كما في
قول الحق تبارك وتعالى: "إذ قال الله ياجعسا إلى متوقيك ورافعك إلى 
من الذين كفرن وجاءهم الذين يغورون وذوق الذين كفرن إلى يوم القيامة ثم لا
مرححتم فاحكم بينكم ما كنتم فيه تخالفون" (1)، حيث قال سبحانه مخبراً
بالخمر، والبعث: "فلو أتينا مرححتم" (2)، ومعنى إلى حكمي، وهو من
اللفظات من الغيبة إلى الخطاب، وذلك لأنه سبحانه وتعالى سبق ذكر مكذبه، وهم
اليهود ومن آمن به وهم الحواريون، وأعقب ذلك قوله: "وأما الذين ي трубون
وقوع الذين كفرن..." على أساليب الغيبة، فلو جاء على هذا النمط، لكانت
التركيب: ثم إلى مرجعهم، ولكنه النفث على طرق الخطاب للجميع لبكون
الإيحاب أبلغ في التهديد، وأشد زجو لمن يزدجو.

1 ـ وتقديم الجار والمحور (.. إليني..) من قوله: "فلو أتينا
مرححتم..." للحصر المفيد لتاكيد الوعد والوعيد.

2 ـ وذكر لفظة (.. إليني..) و (.. فاحكم..) بضمير المتلكل، ليعلمه
أن الحاكم يوم الجزاء والحساب من لا تخفى عليه حافيةه في الأرض ولا في السماء
 سبحانه وتعالى.

3 ـ وتقديم الجار والمحور (.. فيه..) على متعلقه (..تخالفون..) من
 قوله: "فلو أتينا مرححتم.." فيما كنتم فيه تخالفون" للاهتمام بالقدم والتشويق

(1) آل عمران آية: 55.
للمؤخر إلى جانب رعاية الفواصل.

ومن لطائف النظم في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُ اللَّهُ ﻲَعُيُّسَى إِنَّ ﻲَمْتَعَفُّنَّكَ وَرَأْفَعَكَ إِلَيْهِ وَمَطَّرَكَ مِنَ الْذِّيْنِ كَفَرُوا وَجَاعَلَ الْذِّيْنِ ﺑُحْوَكُ فَوْقَ الْذِّيْنِ كَفَسَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةَ...﴾.

١- النداء في قوله: ﴿...يَعُيُّسَى إِنَّ ﻲَمْتَعَفُّنَّكَ...﴾؛ للاستناد؛ ولكون الأنباء عليهم السلام، يخيرون قبل قضي أرواحهم، بين الرفيق الأعلى ومجاورة الحي القيوم، أو الخلد في الدنيا، كما خبر نبينا محمد ﷺ، فاختار الرفيق الأعلى ومجاورة الحي القيوم سبحةه وتعال.

٢- وإطلاق النوم على النوم استعارة، حيث شبه النوم بالوفاة بجماع المسكون وعدم الحركة والإدراك في كل من النوم والوفاة، وحرف المشبه وهو النوم، وأنقى المشبه به، وهو النوم على سبيل الاستعارة التصريحية.

٣- قوله: ﴿...يَعُيُّسَى إِنَّ ﻲَمْتَعَفُّنَّكَ...﴾ كتابة إعثائية؛ وذلك لأن عصمة نبي الله من قتل الكفار من لوازم الموت حتف الأنف.

وأما قول حار الله «الزمخشري»: «أي: مستوف أجملك، ومعناه: إن يعانينا من أن يقتل الكفار، ومؤخره إلى أجل كتبه لك، ومبني حرف ألف نقـ، لا قنـل لأبيهم له؛ ليكون كتابة تاريخية عن العصمة من القتل؛ لأنها ملزمة لتأخيره إلى الأجل المكتوب، والتأخير ملزم للمموت حتف الأنف» (١)، فهي دعيسة احتفال؛ وذلك لأنه على مذهب المتزلج القاتل قاطع لأجل المقبول المكتوب (٢).

و«البيضاوي» (٣)، لم يتفطن لهذه الدعيسة؛ فلمحظ أنه ساء في ركب» الزمخشري«، وقال: بما قال به، كعادته.

١٨٤
وكذُلِّكُمَّ في نزوله تعالى: "...إِذْ يَقُولُونَ لَوْ أَفَاعُكَ إِلَّيْ..." تقديم وتأخير ؛ إذ
الأصل: رافعُكُمَّ ورَفَاعُكُمَّ شَيْءًا" ... ثم ينزل قيام الساعة
حَكَمَ عَدْلًا ، يحكم بملمة محمد .

1 - قوله تعالى: "ولمَّا صَرَبَ الْيَوْمَ الْمَرْيَمَ مِنْهُ إِذَا قَوْمَكُهُمْ يُصَدِّقُونَ" إلى
قوله: "وَأَلْبِنَ لِلْيَوْمِ الْيَوْمَ السَّاعَةَ" (1) ، فهذه الآيات جاءت في الكلام على عيسى عليه
وجاجة في آخره قوله تعالى: "وَأَلْبِنَ لِلْيَوْمِ السَّاعَةَ" ، أي: ننزل عيسى قبل يوم
القيامة: علامة على قرب الساعة: ويدل على ذلك القراءة الأخرى: "وَأَلْبِنَ لِلْيَوْمِ السَّاعَةَ"، يفتح العين واللام، أي: علامة وأمارة على قيام الساعة: وهذه القراءة
مروية عن "ابن عباس" و"مجاهد" وغيرهما من أئمة التفسير (2).

روى الإمام أحمد بن سعدة إلى ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية:
"وَأَلْبِنَ لِلْيَوْمِ السَّاعَةَ" قال: "هو خروج عيسى بن مريم قبل يوم
القيامة" (3).

2 - قوله تعالى: "وَقُولُهُمْ إِنَّا قَنَعْنَا الْمُسَيِّحَ عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا
قَتَلُوهُ وَمَا صُبِّحُوهُ وَلَكِنْ شَيْءًا لَهُمْ..." إلى قوله تعالى: "وَأَلْبِنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَبِينَانِي به قَبْلَ موْتِهِ وَبِيَوْمِ الْقِيَامَةَ يُكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا" (4) ، فهذه الآيات كما تُسَدَّد
على أن اليهود لم يقتلوا عيسى عليه السلام: ولم يصبوه: بل رفعه الله إلى السماء: كما

في هذه الآية، التي تتحدث عن نظمهما: فإنهما تدل كذلك على أن من أهل الكتاب

(1) الزخرف الآيات: 58 , 59, 60, 61
(2) الاصغر: جامع البيان: 95 / 160, 451
(3) المفسر: رقم (2921)
(4) النساؤ الآيات: 156, 157, 158, 159
من سبمن بعيسى ﷺ خير الزمان، وذلك عند نزوله، وقيل موطئ، كما جاءت
بذلك الأحاديث الحديثة الصحيحة.

١ـ ما رواه الشيخان عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي
نفسي يبهد، ليشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً.) فيكر الصليب،
ويقتل الخنزير، ويعض الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون
السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها.

قال أبو هريرة ﷺ: (إن أقنعوا إن شتم: "إن من أهل الكتاب إن لا يؤمن بيه
قل فولي وويل القيامة يكون علهم شهيداً).)

٢ـ وروى الشيخان أيضاً عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ:
(كيف أتمن إذا أنزل ابن مريم فيكم وما لكم منكم.)

٣ـ وما رواه مسلم في صحيحه عن جابر ﭶ، قال: سمعت النبي ﷺ
يقول: (لا تزوال طائفة من أمي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة، قال
فيزل عيسى بن مريم ﷺ، يقول أميرهم: صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم
على بعض أمواء، تكرمة الله هذه الأمة).

والآثار الحديثية الدالة على نزول عيسى ﷺ كثيرة جداً ولولا خوف الإطالة,
لأتيت بها.

والواو في قوله تعالى: "...إِيَّكَ مَتَّوَفِّيكَ وَرَافعِكَ إِلَيْهِ..." لمطلق الجمع، فلا
تقتضي ترتيباً، وبذلك ندرك الخطأ والحطل الذي وقع فيه "الطاهر بن عاشور".)

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه: رقم (٢٠٧٥) ؛ ومسلم في صحيحه: رقم (٤٤٦).
(٢) الحديث رواه البخاري في صحيحه: رقم (٣٣٧٧) ؛ ومسلم في صحيحه: رقم (٣٤٦).
(٣) الحديث رواه مسلم في صحيحه: رقم (٣٥٠).
(٤) انظر: التحرير والتشويق: ٣/٢٥٩.
رحمه الله، حين نفى أن يكون في الآية تقدم أو تأخير، ونفى على ضوئه نزول عيسى عليه السلام. حيث اشتهر بأن نزول عيسى لم يرد إلا في حديث واحد وراء أبو داود في سنة عن أبي هريرة، وأن قول أبي هريرة: «ثم يتو في قضائي عليه المسلمون» بأنه مدرج من راوي الحديث أبي هريرة(1)، قوله هذا وهم ترده الآياتان اللتين: أوردهما، والأحاديث الصحيحة التي قمت بإبرادها.

وقد يكون تقدم التوفيق على الرفع للاهتمام بالمقدم وهو الوفاة، حيث يعتقد النصارى أن عيسى عليه السلام لم يمت، وكذلك يقسمون بقوهم: والمسيح الحي، ونحو ذلك.

أو الراد مستوى أجل، وممكن حتى نفكل، لا أسلط عليك من يقتلك، فعالك كتابة عن عصمه من الأعفاء، فليس في العبارة تقدم ما حقه التأخير.

5 - والتعبير بالوصول، الذي هو كتابة عن اليهود، والإياب بالظاهر بـ: من المنصرفي قوله: «ومتمهَّطُن من الْمَلَكِينَ كَفَرُوا...» إشارة إلى علة النجاسة، وهي الكفر.

6 - وحذف المتعلق من <الْمَلَكِينَ كَفَرُوا...> ؛ لظهوره، أي: الذين كفروا بك، وهم اليهود.

7 - والتعليق بـ: <يَوْمَ الْقِيَامَةِ...> في قوله: «وَجَعَلُ الْمَلَكِينَ يَفْتُرُوْنَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...»، للتأريخ، كما في قوله: ماذامت السماء، ومدار الفلك؛ بناء على طن أن عدم انتهاء علو المؤمنين، وذللا الكافرين، إلى ذلك اليوم، موجب هذا الجعل.

8 - وهذه الأخبار الأربعة: "إِنَّ الْمُتَوْفِقَةَ وَرَافعَةَ إِلَى وَمُطْهَّرَاتِ مِنْ...

(1) الحديث ليس في سنة أبي داود، كما نوهم، بل هو في مسند أحمد: رقم (9502)، وصحيح ابن حيان: رقم (7707)؛ ومضمون ابن أبي شيبة: رقم (33315).
(2) انظر: روح المعان: 183ـ 184.
الذين كفرؤا وجعل... جاءت مرتبة ترتبیاً بديعاً، حيث بدأ أولاً بإحباره عسيب
فليس للماكرین به تسلط عليه، ولا توصل إليه، ثم يشربه ثانياً برفعه
إلى سماه، وسكنها مع الملائكة وعبادته فيها، وطول عمره في عبادته ربه سبحانه
وتبعه، ثم ثالثاً برفعه إلى سماه بتطهیره من الكفر، فعم بذلك جميع زمانه حين رفعه
وحين ينزله في آخر الدنيا، فهي بشاره عظیمة أنه مظاهر من الكفر أولاً وآخرًا، ولما
كان التوفی والرفع، كل منهما خاص برمان بدئهما، ولما كان التظهیر عاماً يشمل
سائر الأزمان أخر عنهما، وما بشره هذه البشائر الثلاث، وهي أوصاف له في نفسه
بشره برفعة أتباعه فوق كل كافر ؛ لتقر عينه ونصر قلبه لذلك.
ولما كان هذا الوصف من اعتلاء تابی عیسی عليه السلام على الكفر من أوصاف
تابیه، تأحر عن الأوصاف الثلاثة التي لنفسه ؛ إذا أبداً بالأوصاف التي لنفسه
أهم، ثم أتبع ذلك بالوصف الرابع على سبيل التبشر بذلك تابیه في الدنيا ؛ ليكمل
بذلك سروره وما أودی، وأوتي تابعه من الخير .(1)

وقد يكون الانتفاس «ليبيان مابین مصدری : التذيب، والإثابة من الاختلاف
من حيث الجلال والجمال»، كما في قوله تعالى : «فأقام الذین كفرؤا فأعتنی بهم
عذاباً شدیداً فی الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرین وآمر الذین تمسوا وعملوا
الصالیحات فی قویتهم أجزؤهم وآللله لا يحب الظالیفين » .(2)
ففی هذا النظم الانتفاس مین التفكک إلى الغیبة في قوله : «...یقویتهم
أجزؤهم ...»، وهذا الانتفاس ... كما أسلفت ... للإیذان بما بین مصدری التذيب
والإثابة من الاختلاف ... ففی الأولى الإیذان، وفی الثانیة التكررة ورفعم القدر، وليبيان
فیاقة حرم هؤلاء الكفرة ... حيث إن الجبار سبحانه وتعالی ليبيان لهم أنه هو الذي
یتلی تعذیبهم ... حتى إنه لیقرو به آذانهم إهانة لهم، بخلاف ذكر جزاء المؤمنین .

(2) آل عمران آیتا : 55 - 57.
1. وقد بدأ الحق ببارك و تعالى وأولاً ذكر الكفار؛ وذلك لأن ما قبله من ذكر حكمه تعالى بنبيهم هو على سبيل التهديد والوعيد للكفار، والإخبار بجزائهم، فناسب الباء بهم؛ ولأنهم أقرب في الذكر بقوله: «فَوَقُّ الَّذِينَ كَفَرُوا»، َوَلِبَاسُ الْكَلَامِ مِنْهُمْ كَفَّرُوا...»، ويكون الكلام مع اليهود الذين كفروا بعيسى، وسواهم في قتله، ثم أتى ثانياً بذكر المؤمنين، وعلق هناك العذاب على مجرد الكفر، وهنا على توفية الأجر على الإيمان، وعمل الصالحين؛ تنبهًا على درجة الكمال في الإيمان ودعاء إليها.

2. ووصف العذاب بالشدة «فَأُعَذَّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا...»); لضاعفته، وازدياده.


4. وإيراد الظلم في قوله: «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْظَّالِمِينَ»، للإشارة بذلك بأخذهم بكفرهم متعدون متجاوزون الحدود، وأعبدو للكفر مكان الشكور والإيمان، وجعلته «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْظَّالِمِينَ» ، تذيل لما قبله مقرر لمضمونه.

5. وهذه الآية الكريمة من الاحتباس، وأصل الآية الكريمة: فوفينهم لأننا نحبهم، والله يحب المؤمنين، وذنيهم ظلوا بحذت أعمالهم، لأننا لانحبهم، «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْظَّالِمِينَ» ، فتوفية الأجر أولًا ببنيها ثانياً، وإثبات الكراهية ثانياً بثبت ضدها أولًا.

وقد يكون الالتفات «للإنكار»، كما في قوله تعالى: «وَلَا يَأْمَرُكَمُ أَنْ
تُجَعَّدُوا المَلائِكَةَ وَالْمَلْكِيَّاتَ أَئِمَّةَ أَيْمَرَكُمْ بَالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنَّمَا مُسْلِمُونَ

(1) حيث النذف النحاس الكريم من العتبة في قوله: «...ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ كُلَّهُمْ عِبَادًا لَّيْنَ دُونَ اللَّهِ...»؛(2) إلى الخطاب في قوله: «وَلَا يَأْمُرُكُمْ...»؛ وذلك للإنكار على الذين زعموا أن عيسى عليه السلام قال لهم كونوا عبادًا لِّي مُنْ دون اللَّهِ، ولمواجحتهم بالخطاب.

1 ـ قد قال: نفي الأمر أعم من النهي، فهذا قبل: وَبِيَّناكُمْ، ويمكن الإجابة على هذا بأن التعبير بـ<وَلَا يَأْمُرُكُمْ...>، مشاكلة لقوله: «...ثُمَّ يَقُولُ للنَّاسِ...»؛ وذلك لأنهم زعموا أن المسيح قال: إنه ابن الله، فلما نفى أنه يقول ذلك، نفى ما هو مثله، وهو أن يأمرهم باتخاذ الملائكة أربابًا، أو لأهم لما كانوا يدعون التمسمك بالدين، كان سائر أحوالهم معمولة على أهم تلقوا منهه<...>، أو لأن المسيح لم ينههم عن ذلك في نفس الأمر؛ إذ هذا مما لا يخطر بالبال أن تنسب به أمة متدينة، فاقتصر في الرد على الأمية بأن آثاريهم، لم يأمورهم به.

2 ـ ولذا نرى الحق تبارك وتعالى، أكد المقول بـ<...ثُمَّ يَقُولُ للنَّاسِ...>، المزيدة لتشكيد النفسي في قوله: «مَا كَانَ لِيَشْرُوْنَ...»، ومعنى: «مَا كَانَ لَيَشْرُوْنَ...» أن يعتقدوه الله، وينصبه للدعاء إلى اهتماص الله بالعبادة، وترك الأنداد، ثم يأمر الناس بأنه يكونوا عبادًا له، وبأمركم...».

3 ـ عقب بالاستفهام الإنكار، وبالظروف المفيد مزيد الإنكار على ارتكالهم هذه الحالة، وهو أتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا من دون الله، فقال: «...أَيْمَرَكُمْ بَالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنَّمَا مُسْلِمُونَ».

(1) آل عمران آية : 80 .
(2) آل عمران آية : 79 .
(3) انظر: التحرير والتوثير : 296 - 297.
وقد يكون الاتفاقات؛ لـ «لحث على الإقرار، وذلك حين الموا جهة بالامر»، كما في قوله تعالى: «وأذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيكم من كتاب وحكم للذين جاؤكم رسول مصدق لما معمك أن تؤمنن به وتستعدهم قال أفرءكم وانذركم علّى ذلك إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وان ذكرون من الشاهدين فمن تولى بعده ذلك فأولئك هم الفاسقون» (1)، حيث التفت الخطاب الرقابي الكريم من الغيبة في قوله: «وأذ أخذ الله ميثاق النبيين...» إلى الخطاب في قوله: «...لما أتيكم...».

قالاية الكريمة جاءت في بيان الميثاق الذي أخذ الله على الأنبائك من لدن نوح عليه السلام، ومن جاء بعد من الأنبائك من ذريته أنه ما من شيء يمكن العثور عليه، كما وسع بعض النبيين الخروج على شريعة غيرهم من الأنبائق الذين يعذرون في عهدهم، كما ساء للخصب الخروج على شريعة موسي عليه السلام، ولهذا تكرّم لدينه محمد ﷺ، إذ إنه يَارب، إنما أتيك الذكر لم يروا من ينذرهم من أنبائك في عهده، كما خطر أن يبعث الكريمة عليه السلام، وفيما كذلك بيان لرفعة منزله بأبي هو وأمي ﷺ، ولنا جاء النظام القرآني هذا مذكراً أمم أولئك الأنبائك، بما أخذ على أنبيائهم من العهد الموائدي، لكنه يذعن لنا ما أذعن له أنبياءهم عليهم السلام، فهم قدوته؛ فهؤلاء آمنوا به، ففيهم رضاء الدارين، وكم لا عدلاً، وهذا نرى النظام الرقابي الكريم يؤكِّد هذا الأمر، فيذكرهم بما الميثاق بطريق الاتفاقات، لكي يسارعوا إلى الإقرار فقال: «...لما أتيكم...».

1 وقد يكون الميثاق الذي أخذ؛ إما أخذ على أمم الأنبائك عليهم السلام، فيكون في قوله تعالى: «وأذ أخذ الله ميثاق النبيين...» إجاز حذف، حيث حذف المضاف، وأقيم المضاف مقامه، فيكون التقدير: ميثاق أمم النبيين، أو أتباع، ويؤيد هذا الوجه قوله بعده: «...ثم جاؤكم رسول...»، فيكون هذا.

(1) آل عمران: آية: 81، 82.
الميثاق قد أخذ على الأمم عندما كانوا في ظهر أبيهم آدم ﷺ.

ولكي يفهم التفاصيل النقية الكرم على وجه الله تعالى لابد من تفقد إضمار آخر في هذا النص الشديد على قوله: «...لما آتيكم...» فيكون تفقد الأية الكرم: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لتلغن الناس ما آتيكم من كتاب وحكمه، إلا أنه حذف تلغن، وذلك لدلالة الكلام عليه، لأن لام القسم إذا بيع على الفعل، فلا يدل هذه اللام على هذا الفعل حذف اختصاراً، وهذا من بديع الإجازات.

3_ والضمير في قوله: «...قال أقرن...» من قوله: «...قال في نفسي...» يعطي أن يكون عائداً للحق تبارك وتعالى، وهو الظاهر والمباشر لله تعالى مسند أول وهلة، ويعود أن يكون عائداً للنبي الذي هو واحد النبيين، حاتر بذلك أمره، ومتعلق الإقرار معرفة أن أقرن به ذلك كله.

فعلى التقدير الأول يكون الاستفهام قد خرج عن معناه الأصلي إلى التفزيز والتوكيد عليها؛ واستحكاله في حق الباري سبحانه وتعالى، وعلى التقدير الثاني يكون الاستفهام حققاً.

4_ وأشير بأداة البعد وميم الجمع في قوله: «...ذُلكم إصرى...» لتعيين العهد، والبالغة في فتحته.

5_ وفي قوله: «...قالوا أقرننا...» إجابة بالالتفات، والمذكور هنا جملة، حذفها للكلام ما تقدم عليها؛ إذ التقدير: أقرننا، وأخذنا إصرك على ذلك كله.

6_ وانظر كيف ختمت هذه آية الكرم بهذا الخاتمة البديعة: «...قالاً فاشهدوا وآتنا ماعظم من الشاهدين»، والتي اشتملت على التأكید، وتقديم الإبلواص، مما يدل على مكانة النبي ﷺ عند الله حتى أخذ على تلك الأمم هذه المواقع المعلقة، وأشهد نفسه وغيره عليهم سبحانه وتعالى، وهنا قد يقول قائل: إن الحكمة بارك و تعالى ليس محتاجاً للإشهاد، فهو سبحانه وتعالى، لا تخفي عليه حاجة، فلم أشهد غيره.

192
ويمكن الإجابة على هذا السؤال بأن الحق أشهد غيره لضرب من المصلحة ، وهي هنا تعليم الناس هذا الأدب في معاملاتهم ، فهو مع غناه عن هذا الأمر إلا أنه يشهد ، فإذا كان الغني الجميل يفعل ذلك ، فنحن أولى بذلك ، وما ضاعت حقوق المخلوقين إلا بسبب تركرهم هذا الأدب من أدب المعاملات ، أضاف إلى ذلك أن الشهود هنا أمـم النبيين ، فهي ذلك إقامة للحجة على أنفسهم .

وقد ضم الحق تبارك وتتعالى إلى هذا التأكيد تأكيداً آخر ، فقال : «فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونِ» (1) ، يعني : من أعرض عن الإيمان بهذا الرسول الكريم ، ونصرهه بعد تقدم الدلائل الواضحة ، كان من الفاسقين.

١- «فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ» شرط ، والفعل الماضي يقبل مستقبلًا في الشروط والجزاء ، فالوعد شاملاً لمن تقدم من الأمة قبل بعثة النبي ، ومن سبئيين بعده إلى أن يبرث الله الأرض ومن عليها .

٢- والإشارة بالबعيد هنا «فَذَلِكَ» ؛ لتعظيم العهد الأخذ على الأَمـم وأنبيائها ، أي : من بعد أحد الأعهد المعظم عليه .

٣- والإثان بأسلوب القصر «فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونِ» ، وقصر الفسق على من أخِذ هذا العهد ، دليل أكيد على عظم هذا العهد ، وبأنه عهد مستقل ، ودليل كذلك على عظم الإيمان بمحمد ، وأنه من الله تعالى بالمثلى العظمى .

وقد يكون الالتفات إلى "لتعظيم" ، كما في كلمة "نُداوْلُهَا" . مـن قوله تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ يَسَسَّكُمُ اللَّهُ قَوْمًا فَقَدْ مَسَّ الْقُوْمَ قَوْرًا فَأُولَٰئِكَ الْآيَاتُ مُنْتَجَةُ بِنَبَأِ الْمَلَائِمَ" (1) ، فالأنفشت الخطاب الرـبـائي في قوله : "فَنُداوْلُهَا..." مـن الغيـبة في "إِنَّ..."

(1) آل عمران آية : 82 .
(2) آل عمران آية : 140 .

١٩٣
١ - والتعبير عن أصاب المسلمين بصيغة المضارع (إنَّكَّمْستَكمِمْ)... ؛
لقربه من زمن الحال ؛ وذلك لأن الآيات نزلت بسببها ، بينما عَمَّ أصاب
المشركين بصيغة الماضي (فَقَدّ مَسَّ... ) ؛ لعبَة ؛ لأنه حصل يوم بدر ، وإِمَّا
جاء الحديث عنها لأخذ العمرة والعظمة منها ، وهي لا تكون إلا بما سلف من الأمور.
٢ - وقرأ الأعشى : (إنَّكَّمْستَكمِمْ... ) بالتداء ، وضَّح القاف مِن
(فَرَجَّ... ) بالجمع ، وعلى هذا القراءة ، يكـُون في الآية إِيحـاز حذف ،
والخذف هنا جواب الشرط ، ويكون التقدير : فتأسوا ، فقد مس القُـوم فَرَجَ ؛
وذلك لأن الماضي معنى يمتنع أن يكون جواباً للشرط (١) .
٣ - وقد يكون الفرج مستعماً في غير حقيقةه ، بل هو استعارة للهزيمة ، فـإن
الهزيمة تشبه بالثلجة والانكسار ، فشهدت هنا في هذا النظم بالفرج حين يصيب الإنسان
أو جسده ، ولا يصح حمل الفرج هنا على الحقيقة ؛ لأن الجراح التي تصيب الجمجم لا
يعبِّأ بها ؛ إذا كان معها النصر ، فلا شك أن التسليه وقعت عما أصابهم من الهزيمة .

(١) أنظر : البحر الحبيط : ٣٥٤ / ٩ ; الدار المصون : ٢ / ٣١٧ .
إضاف فضائل البشر : ١ / ٤٨٨ .
١٩٤
و- التعرف باسم الإشارة في "...وتَلَكَ الْآيَاتُ..."، ليس للتعظيم كما
عهد منه، بل هو هنا بمثله ضمير الشأن، وينقص به هنا الاهتمام بالخبر، وهذا الحرف
مكتن به عن تعليق للحوام المنخوف، المدلول عليه بجملة "...فقد مس القوم قرَّح..."
ملته...؟، وتقديره: فاعترنوا فقد مس القوم قرَّح ملته.
و- التعبير بالضارع في قوله: "...نَبَوَّلُهَا..."، للدلالة على التجدد
 والاستمرار ؛ للايذان بأن المداوله سنة مسلوكة فيما بين الأمم قاطعة، وفي هذه
 العبارة ضرب من التنسلية لهذه الأمة المحمدية؛ حتى لا يدخلها الخوار القنوط من رحمه
الله سبحانه وتعالى؛ ولكن تعليم أكثر لهم في ذلك سلف.
و- ومن بنعم النظر في قوله تعالى: "...وَيَلِعَّلُمُ اللَّهُ الَّذِينَ أَمَنتُوا..."،
يلحظ أن المعطوف عليه هنا قد حذف، وتقديره: واتبع الأيام نداوها بين الناس ؛
ل يكون كيتو وكيثي، وليعلم الله، وإما حذف المعطوف عليه للإيذان بأن المصلحة
في هذه المداوله ليست واحدة؛ ليس لهم عمل جزاء؛ وليرفعهم أن تلك الواقعه،
وان شاء(_, فيه من وجهة المصالح مالو عرفوه لسرهم؟)
و- والعلم قد يكون متعدياً لمفعول واحد، كما تقول: علمت زيادة، أي:
علمت ذاته، وعرفته، وقد يتعدى إلى مفعولين، كما تقول: علمت زيادة كريماً،
والعلم في الآية متعداً لمفعولين، وتقدير الاتمة الكريمة على ذلك: وليعلَّم اللَّهُ الَّذِين
آمنوا متيمرين عمل يدعو الإيمان من غيرهم، أي: الحكمة في هذه المداوله أن يصير
الذين آمنوا متيمرين عمل يدعو الإيمان، بسبصيرهم وثوابهم على الإسلام.
وعلى فرض إعراب العلم متعدياً لمفعول واحد، ويكون معين معرفة الذات،
والتقدير باباً على ذلك: وليعلَّم اللَّهُ الَّذين آمنوا لما يظهر من صبرهم على جهاد
عذوه، أي: ليعرفهم بأعابهم، إلا أن سبب حدوث هذا العلم حذف هنا، ولا

(1) انظر: التحرير والتدوين: 49/49.
(2) انظر: الكشاف: 8/419; التفسير الكبير: 16/684; آثار التراث: 2/85.
يتم كشف أن الخذف في هذه الآية الكريمة فيه إنجاز بديع، أكسب النظام إجلاهم ومياءة في النفس.

وأما جاء الالتفات فيه لـ "لتنظيم" أيضاً قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِتَفْقِيْسٍ أَنْ تَمْوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَكَانَ مَعَكَ نَافِعًا وَمَن يُرِدْ نَواَبَ الدُّنْيَا لَمْ يُؤْتُهُ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ نَوَابَ الْآخِرَةٍ لَّمْ يُؤْتُهُ مِنْهَا وَسَيَسْتَجِيَ السَّاكِبُونَ) (1)، حيث النفت الحق ببارك وتعالى في هذا النظام الكرم من الغيبة إلى التكلم في (وَنُؤْتُهُمْ...، وفي (وَسَيَسْتَجِيَّرِي...)

لتنظيم المستفاد من نون العظمة.

(1) قوله: (وَإِذْ أَذْلِكَ اللَّهُ)...، استثناء مفرغ من أعم الأسباب، أي: ومكان الموت حاصلًا لنفس من النفس بسب من الأسباب إلا بمشيئة الحق سبحانه.

وتعالى، على أن الإنسان يجاز فيها؛ لكوفوها من لوازمها، أو إلا بإذن سبحانه وتعالى من قبض روحها.

وسبي الكلام مساق التمثيل بتصوير الموت بالنسبة إلى النفس بصورة الأفعال الاختيارية، التي لا يمكن للفاعل إيقاعها والإقدام عليها وحلبها للنفس بـ: دون إذنها تعالى، أو ترتيب إقدامها على مبادئ القتال مرتبة الإقدام على الموت مباعرة في تحقيق المراد، فإن موت النفس، حيث استحال وقوعه عند إقدامها عليه، أو على مبادئه وسعيها في إيقاعها، فإن يستقبل ذلك عند عدم ذلك أولى وأظهر، وفي جميع النظام على هذا السياق تجريض على القتال، وفيه داله على ب znalazه القرآن، حيث التفني في أساليب الإفتاء.

ومن نظر في الواقع، يرد إِكْمَانًا وتصديقاً بهذا القرآن الكريم، وقيل ذلك بالإله العزيز، الذي أحله بكل شيء عالماً، فكم من إنسان رغب في إخاء حياته عن طريق الانتحار بشيء الوسائل، ولكن مساعاً لم يفلح، وذلك لأن الله لم يأذن له بالموت.
فسيحانه من إله عليم قدير.

١- وجملة «...وسنتجزأ الشاكرين...»، اعتراض مقرر لضمن ما قبله، ووعد بالزيادة، وفي تصدير الجملة بالسنين، وإيقام الجزاء من التأكيدي والدلالة على فخامة شأن الجراء، وككونه من الفخامة والعظمة بحيث يقصر عنه البيان.

٢- وجيء في هذا الحكم بصيغة الجدد (وما كان ينفض...؟) للمبالية في اتفاء أن يكون موت قبل الأجل.

وقد يكون الانتفاضات «زيادة في النكال، وتأكيداً للوعيد والإنذار»، كما في قوله تعالى: «والَّذِينَ يَلْهَوَنَ بَيْنَ آتِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ بِلَدٍ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيِّئَاتٌ فَلَا يَجِلُّوا بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ اللَّهُ مَيْرَاتُ السَّمَٰئُّسَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ بَيْنَهُمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا»، (١) فالنظام الكريم النفت من الغيبة إلى الخطاب في قوله: «...يَعْمَلُونَ...»، وذلك _ كما أسفلت _ زيادة في النكال، وتأكيداً للوعيد والإذن والإنذار، ولأن منصب النبي الشريف في غاية الراحلة، صرف الخطاب إلى الأتباع، وهذا على قراءة الجمهور، وأما على قراءة «ابن كثير وأبي عمرو» يباهي الغيبة: «...يَعْمَلُونَ...»، فلا النفتات (٢).

١- وتقدم الجار والنحور (...بيتُ يَعْمَلُونَ...؟) للاهتمام بالمقدم، وهو ما يعملنه ظنًا لاستدعاء المقام ذلك.

٢- وإظهار لفظ الجلالة (...وَالَّذِينَ بَيْنَهُمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا) في موضع الإضمار، وذلك لتقدم ذكره؛ لتربية المهابة.

٣- وفي قوله تعالى: «والَّذِينَ يَلْهَوَنَ بَيْنَ آتِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ بِلَدٍ».

(١) انظر: إرشاد العقل السليم: ٣ / ٩٤.
(٢) آل عمران آية: ١٨٠.
خيرًا لهم... »، إجاز بالذكاء، فمن قرأ بالراء: »ولأحسن بينهم...«، وهي قراءة حمرة قدر مضافًا محدودًا، أي: لا تحسن بين الذين يدخلون هو خيراً لهم. ومن قرأ بالباء، وهي قراءة الجمهور، فعل فعل يحسن ضمير رسول الله ﷺ، أو أحد، ومن حكيل فعله الذين يدخلون، كان المفعول الأول عنه محدودًا تقديرًا: ولا يحسن الذين يدخلون بحلهم »...هو خيرًا لهم...«، والذي سوّغ حذفه دلالًا.

»...يدخلون...« عليه (1).

وقوله: »...بل هو شر لهم...« تأكيد لنفي كونه خيراً، كقول امرئ الخمس:

إططر يركض غريب شنّ كالة أسانع ضبي، أو مساوِيَّك إسْحَلي (3).

على أن قوله: »...بل هو شر لهم...« في هذا المقام، أفاده نفي توهيم الواسطية بين الخير والشر.

(2) المبر العصو: 2/ 778.
(3) الحديدي آية: 7.
(4) البيت من: { الضوئ }.
(5) وهو في: ديوانه: 17; وجمهرة اللغة: 363; 543; وشرح الفصل: 6/ 92.
واعظ الباحثين وغيرهم: بأن المال مال الله سبحانه وتعالى، وما من يخيل إلا وسيده م، ويرك ماله، والمتصرب في ذلك كله هو الله، فهو له ميراث السماوات والأرض وما تضمنته تبعاً لله، وهو سبحانه، وتعالى علم بما يعمل الناس من اجت، وإنفاق فبالأية فيها. وعد ووعيد، وعد للمنفقين، ووعيد للباحثين.

وأختير الحديث عن هذه الآية الكريمة، بالحديث عن الطلاق بين خبر وخبر في قوله تعالى: "...هو خير الرهبة بل هو شريك لهما..."، وبين السماوات والأرض في قوله: "...وَلله ميراث السماوات والأرض..."، فالكلام هنا إذن طلاق، وقد كسا هذا الطلاق المعين جمالاً وروثاً.

وقد يكون الانتفاس لـ«اظهار كمال الاذاعة بمعنى النفت إليه»، كما في قوله تعالى: «فاستekaً لِله مَعِيَّنٌ أَلَى أَفْضَلُ عَمْلٍ غَالِبٍ عَلَى مَنْ كَفَّرَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْسَى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَلَدَنَّ هَاجِرُوا أَوْ غَرَّوْا مِنْ دَبَارٍ هُمْ وَأَوْذَاً فِي سِبْيلٍ وَقَاتَلُوا وَفَيْلَوْا لَا أَكْفَرُونَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا يَخْلُقُونَ جَنَّاتٍ تُجَرَّبُ مِنْ نَحْجِيِّهَا الْأَلْهَارُ ثَوَابًا حَسُنَّ النَّوَابَ (1)»، حيث النفت النمط الكريمة في قوله: "...أَلَى أَفْضَلُ عَمْلٍ غَالِبٍ عَلَى مَنْ كَفَّرَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْسَى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَلَدَنَّ هَاجِرُوا أَوْ غَرَّوْا مِنْ دَبَارٍ هُمْ وَأَوْذَاً فِي سِبْيلٍ وَقَاتَلُوا وَفَيْلَوْا لَا أَكْفَرُونَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا يَخْلُقُونَ جَنَّاتٍ تُجَرَّبُ مِنْ نَحْجِيِّهَا الْأَلْهَارُ ثَوَابًا حَسُنَّ النَّوَابَ (1)»، حيث النفت النمط الكريمة في قوله: "...أَلَى أَفْضَلُ عَمْلٍ غَالِبٍ عَلَى مَنْ كَفَّرَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْسَى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَلَدَنَّ هَاجِرُوا أَوْ غَرَّوْا مِنْ دَبَارٍ هُمْ وَأَوْذَاً فِي سِبْيلٍ وَقَاتَلُوا وَفَيْلَوْا لَا أَكْفَرُونَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا يَخْلُقُونَ جَنَّاتٍ تُجَرَّبُ مِنْ نَحْجِيِّهَا الْأَلْهَارُ ثَوَابًا حَسُنَّ النَّوَابَ (1)»، حيث النفت النمط الكريمة في قوله: «...أَلَى أَفْضَلُ عَمْلٍ غَالِبٍ عَلَى مَنْ كَفَّرَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْسَى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَلَدَنَّ هَاجِرُوا أَوْ غَرَّوْا مِنْ دَبَارٍ هُمْ وَأَوْذَاً فِي سِبْيلٍ وَقَاتَلُوا وَفَيْلَوْا لَا أَكْفَرُونَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا يَخْلُقُونَ جَنَّاتٍ تُجَرَّبُ مِنْ نَحْجِيِّهَا الْأَلْهَارُ ثَوَابًا حَسُنَّ النَّوَابَ (1)»، حيث النفت النمط الكريمة في قوله: "...أَلَى أَفْضَلُ عَمْلٍ غَالِبٍ عَلَى مَنْ كَفَّرَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْسَى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَلَدَنَّ هَاءِدُوا أَوْ غَرَّوْا مِنْ دَبَارٍ هُمْ وَأَوْذَاً فِي سِبْيلٍ وَقَاتَلُوا وَفَيْلَوْا لَا أَكْفَرُونَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا يَخْلُقُونَ جَنَّاتٍ تُجَرَّبُ مِنْ نَحْجِيِّهَا الْأَلْهَارُ ثَوَابًا حَسُنَّ النَّوَابَ (1)»، حيث النفت النمط الكريمة في قوله: "...أَلَى أَفْضَلُ عَمْلٍ غَالِبٍ عَلَى مَنْ كَفَّرَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْسَى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَلَدَنَّ هَاءِدُوا أَوْ غَرَّوْا مِنْ دَبَارٍ هُمْ وَأَوْذَاً فِي سِبْيلٍ وَقَاتَلُوا وَفَيْلَوْا لَا أَكْفَرُونَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا يَخْلُقُونَ جَنَّاتٍ تُجَرَّبُ مِنْ نَحْجِيِّهَا الْأَلْهَارُ ثَوَابًا حَسُنَّ النَّوَابَ (1)»، حيث النفت النمط الكريمة في قوله: "...أَلَى أَفْضَلُ عَمْلٍ غَالِبٍ عَلَى مَنْ كَفَّرَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْسَى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَلَدَنَّ هَاءِدُوا أَوْ غَرَّوْا مِنْ دَبَارٍ هُمْ وَأَوْذَاً فِي سِبْيلٍ وَقَاتَلُوا وَفَيْلَوْا لَا أَكْفَرُونَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا يَخْلُقُونَ جَنَّاتٍ تُجَرَّبُ مِنْ نَحْجِيِّهَا الْأَلْهَارُ ثَوَابًا حَسُنَّ النَّوَابَ (1)»، حيث النفت النمط الكريمة في قوله: "...أَلَى أَفْضَلُ عَمْلٍ غَالِبٍ عَلَى مَنْ كَفَّرَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْسَى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَلَدَنَّ هَاءِدُوا أَوْ غَرَّوْا مِنْ دَبَارٍ هُمْ وَأَوْذَاً فِي سِبْيلٍ وَقَاتَلُوا وَفَيْلَوْا لَا أَكْفَرُونَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا يَخْلُقُونَ جَنَّاتٍ تُجَرَّبُ مِنْ نَحْجِيِّهَا الْأَلْهَارُ ثَوَابًا حَسُنَّ النَّوَابَ (1)»، حيث النفت النمط الكريمة في قوله: "...أَلَى أَفْضَلُ عَمْلٍ غَالِبٍ عَلَى مَنْ كَفَّرَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْسَى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَلَدَنَّ هَاءِدُوا أَوْ غَرَّوْا مِنْ دَبَارٍ هُمْ وَأَوْذَاً F...
غير موجبة للثواب، حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها؛ لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستقبل صدوره عنه من القبائح، وإبراز الإثارة في معرض الأمور الواجبة عليه مسبحة.

إذا فإن القيم: القوم طلوا أولاً غفران الذنب، ثانياً إعطاء الثواب، فقالوا:

«...أّلي لآ أضيع غمّل عمّل منكم...»؛ إجابة لهم في إعطاء الثواب، ف فمن

الإجابة في طلب غفران الذنب؟

ويمكن الإجابة عن هذا التساؤل بأنه لا يلزم من إسقاط العذاب حصول

الثواب، لكن يلزم من وصول الثواب سقوط العذاب، فصار قوله: «...أّلي لآ أضيع

عمّل غمّل منكم...»؛ إجابة لدعائهما في المطلوبين(1).

3- والفرق بين الإجابة والاستجابة، إن الإجابة عامة، والاستجابة خاصة.

بإعطاء المسئول، وما كان قبلها سؤالاً عبر بالاستجابة، وهذا دليل على بلاغة هذَا

النظام الكريم، الذي يعني كل موطن حقه من الألفاظ والتراكيب.

4- وال تعرض لعنوان الربوبيه في هذا النظام الكريم «...رَبِّيَّه...»، المبنية عن

التيلى إلى الكمال مع الإضافه إلى ضميرهم فيه تشريفهم، وإظهار اللطف لهم.

5- وحالة «...بَعْضُكمْ مِن بَعْضِ...» معرضاً مبيناً لسبب النظام النسائى في

سلك الرجال في الودع، فإن كون كل منهما من الآخر؛ لتشعبهما من أصل واحد،

أو لفترات الاتصال بينهما، أو لاتفاقهما في الدين والعمل، مما يستدعي الشركة

والاتحاد(2).

6- وحالة «...فَأَلْقَائِمَ هَاجَرْوا...» وما أبعدها، تفصيل لما أجمل في العمل،

وتعد لبعض أحسن أفراده، وهي: الهجرة، والإخراج من الديار حفاظاً على


2) انظر: إرشاد العقل السليم: 2 / 134.


200
الدين، والإيذاء في سبيل الله، والقتال في سبيل الله، والاستشهاد في سبيله، على
وجه المدح والتعظيم.

و لما كان للوطن منزلة في القلب، وفي الإخراج منه مفارقة لأثر الأشياء نبض
الله سبحانه وتعالى عليه، قال: «فَأَلِذَّينَ هَاجَرُوا وَأَخْرَجُوا مِنَ الدِّيَارِهِمْ...»
وهي آثر المواطن عندهم بعد أن باعوا أهلهم، وهم أقرب الخلق إليه، وقد قرر
الله تعالى الإخراج بالقتل في كتابه، قال: «وَلَوْ أَنَّا كَبَيَّنَا عَلَيْهِمَّ أَنْ أَقْتَلُوا أَنْفُسَهُمْ
أَوْ أَخْرَجُوا مِنَ الدِّيَارِ هَذَا فَعَلْتُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ—لَكِنَّ
خَيْرًا لَّهُمْ وَآيَةً لِّأُيُبَيِّنُونَ» (1)، في هذا دلالة على عظم مكانة الأوطان في النفوس.

وقوله: «...وَقَاتَلُوا وَقَتَلُوا...» ورد فيه ثلاث قراءات:

· إحداهما: قراءة «عَاصِمُ، وَعَافَ، وَأَيُّ عَمْرِي»، وهي التي تقرأها.
· والثانية: قراءة «ابن كَبِير، وَابن عَامِر»: «...وَقَاتَلُوا وَقَتَلُوا...» بـ التَّـشَـدِّيد.
· والثالثة: قراءة «حِرْمَةُ، وَالكَسِيَّينِ»: «...وَقَاتَلُوا وَقَتَلُوا...» بتَّقَدِّمِ الـمـمِـيـ
لمفعول أَلْغَبَ مَعْنِيَ؛ لأَلَا أَنْتَ تَرْغِبِي في الإقحام عَلَى الْعَدَّةِ؛ لَأَنَّ مِنْ استِقْتَالِ أَقْدَم
على الغمرات إِقَدَامِ الأَمِّد، فَقَتَلْ، أَحْصَى مِنْهُ، وَلَمْ يَقِفْ أَحَدُ إِمَامَهُ؛ فَكِبَّارُهُ قَبْلِ
وَأَرَادُوا القَتْلُ، هَذَا بِالنَّظَرِ إِلَى الإِنسَانِ نَفْسِهِ، وَيَجِزُ أنْ يكونَ الخَطَّابَ لِلْمَجْمَعِ،
فيكون المعين: وَقَاتَلُوا بَعْدَ أنْ رَأَوا كِتَّابًا مِنْ أَصْحَابِهِم كَفَّ قَتَلْ.

و النَّسَمَةُ آيَةً 9 66، 165 166 498 499 62؛ التَّـقَدِّيـرُ:
و هَذَا مِن بَيْعِ إِجْهَازِ الْحَدِِّفِ، وَذَلِكَ لِإِضْفَاءِ المُهَايَةِ عَلَى النَّظَرِ الْقَرآنيَّ.

وِيَ فِي خَصْمِ الآيَةِ بِقِيَّةٍ تَعَالَ: «...وَاللَّهُ عَيْنَاهُ حَسْنَ الْثَّوَابِ»،

(1) إِنْ تَأْكَرِّنَّهُ: مَحْذُوْرُ وَتَقْدِيرُ وَاللَّهُ لَا كَفْرُونَ
وَهَذَا مِن بَيْعِ إِجْهَازِ الْحَدِِّفِ، وَذَلِكَ لِإِضْفَاءِ المُهَايَةِ عَلَى النَّظَرِ الْقَرآنيَّ.

(2) إِنْ تَأْكَرِّنَّهُ: مَحْذُوْرُ وَتَقْدِيرُ وَاللَّهُ لَا كَفْرُونَ
وَهَذَا مِن بَيْعِ إِجْهَازِ الْحَدِِّفِ، وَذَلِكَ لِإِضْفَاءِ المُهَايَةِ عَلَى النَّظَرِ الْقَرآنيَّ.

(3) إِنْ تَأْكَرِّنَّهُ: مَحْذُوْرُ وَتَقْدِيرُ وَاللَّهُ لَا كَفْرُونَ
وَهَذَا مِن بَيْعِ إِجْهَازِ الْحَدِِّفِ، وَذَلِكَ لِإِضْفَاءِ المُهَايَةِ عَلَى النَّظَرِ الْقَرآنيَّ.

(4) إِنْ تَأْكَرِّنَّهُ: مَحْذُوْرُ وَتَقْدِيرُ وَاللَّهُ لَا كَفْرُونَ
وَهَذَا مِن بَيْعِ إِجْهَازِ الْحَدِِّفِ، وَذَلِكَ لِإِضْفَاءِ المُهَايَةِ عَلَى النَّظَرِ الْقَرآنيَّ.

201
إطناب، وهو ما تعارف عليه البلاغيون بإطناب التذييل.
وهي هذه اللطيفة أختم هذا البحث.
الباب الثاني:

خصائص التراكيب في سورة آل عمران

الفصل الأول: التوكيد وأنواعه.
الفصل الثاني: طرق التعبير بالجملة عن المعنى المراد.
الفصل الثالث: الفصل والوصول.
التوصية:
هو مجموعة منسقة من الوحدات اللغوية تؤدي معنى الكلام.
كالجملة الاستماعية، أو الفعلية، أو الجزء من الجملة الذي يؤدي دلالة ما، والجملة لا تكون جملة إلا إذا اشتقت على ركيزين أساسيين هما: «المستند»، و«المستند إليه»، وهذه الركائز «لا يغطيما واحد منهما عن الآخر، ولا ينحدر الكلام منه بدأ، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه، وهو قولك: "عبد الله أخوك"، و"هذا أخوك".
ومثل ذلك قولك: "يجدهم زيد"، فلا بد للالفعل من الاسم، كما لم يكن
للاسم الأول بد من الآخر في الابتداء.
» و"المبتدأ لم يكن مبتدأ؛ لأنه متروك به أولاً، ولأنه مذكر بعد المبتدأ، بل كان المبتدأ مبتدأ؛ لأنه مسند إليه ومشتت له المعنى، والجزء خيراً، لأنه مسند ومشتت به المعنى.
والإسناد في عرف البلاغيين: ضم كلمة، أو ما يجري ميلاها إلى أخرى، بحيث يفيد الحكم بأن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى، أو منفي عنه.
ومنه "لا نستطيع أن ندرك من اللغة غرضاً، ولا أن نفدي منها معناً، إلا إذا ارتباط كلماته بعضها بعض، وصارت كل فلقة مترابطة ب―الأخرى نوعاً من الاتصال، وفي ضوء هذا الترابط، وهذه الصلات تمكن المعاني والأفكار، التي تحتويها النصوص اللغوية، وتحافظها في بنائها الحي؛ تراثاً حساناً، وفكرةً حياً، وشعراء نابضاً، ومهراء الأدب، ونبوع الشاعر، وعبقية اللغة، كل هذا يكس
(1) انظر: مجمع المصطلحات العربية في اللغة والأدب: 96.
(2) الكتاب: 23/1.
(3) دائم الإعجاز: 183.
فيما بين الكلم من ترابط وصلات »(1)«، وهذا هو معنى النظم والتركيب والترتيب في لغة الأدب، وعلى المعول في البلاغة والبيان.

(1) دلالات التركيب : ٤٩.
الفصل الأول:

التوصِّيح وأنواعه

المبحث الأول: أحداث التوصِّيح.
المبحث الثاني: التوصِّيح بالتحاور.
mبحث الثالث: القصر وطrtype. 
التوكيد

وكَدَّ العقد والوعيد، وأكدُه، معنى وثقه، والتوكيد أفضى من التَاكيد، وإن كانا معنى واحدٌ (1)، والواو والكاف والدال: كلمة تدل على شد واحكام، وأوّلُ عقده، أي: شهد، والوكيد حبل تشد به البقرة عند الخلب، ويقولون: وّكَدَّ وّكَدْهُ، إذا أمه، وعلى أبيه (2).

فهذه المادة تدل على ممكن المعنى وتقويته في الذهن، وذلك من خلال أدوات واساليب بلجأ إليها المتحدث أثناء كلامه.

ويمكن تلخيص مفهوم التوكيد بأنه صورة بلاغية، الغرض منها إعطاء أهمية خاصة لكلمة، أو عبارة ليست لها هذه الأهمية عادة (3).

وقبل الدخول في تضاعيف هذا الأمر، لا بد من طرح سؤال مفاده: هل التوكيد مقصور على أحوال المحاطب الثلاثة الإبداني والطلي والإنكاري، بحرييد الأول من علامات التأكيد، وتأكيد الثاني مؤكد، وزيادة المؤكدات في الثالث بناءً على قوة الإنكار؟

وقد أجاب عن هذا السؤال أحد الباحثين بقوله: «لقد ضاقت صدرى بحديث المتأخرن حينما أداروه – أي: التوكيد – حول مواجهة إنكار المحاطب التحقيقى، أو الاعتبارى، وكان حوار (أبي العباس البخورى) على سؤال الكدي التفلسفة، كان محيطاً بدواعي التوكيد وأسواره في هذه اللغة، فجاء كلامهم ترديداً أو شرحاً لهذا الجواب، وهذا قصور كثير في فهم هذهخصوصية، التي هي من أدق الخصائص البلاغية، وأكثرها صلة بالحس والشعور، وأكثرها شعورًا في الكلام كله. وقد ذكر (الزمخشري) دواعي كثيرة للتوكيد تجاوزت هذا الأفق الذي حددته».

(1) انظر : القاموس المحيط : 417 ; لسان العرب : 416 - 417 « وكد ».
(2) معجم مفاسد اللغة : 138 / 6 « وكد ».
(3) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : 85.
إجابة "أبي العباس المبرد"؛ منها أن التوكيد قد يكون لتقرير المعنى في نفس المخاطب، وضعته، وإن كانت خالية من كل أثر للإنكار أو الشك، كما في قوله تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نُؤْنِيُّ الْقُرْآنَ نَزْيَلاً" (1)، ومنها أن التوكيد قد يكون لتحقيق المعنى عند المتكلم، وهو يريد أن يوطن نفس المخاطب للفقه وقبوله، كمثلاً قوله تعالى: "أَلَيْ أَنْشُثُ نَارًا لَّكُمْ عَلَى هُدْيَتِيَ" (2) إلى غير ذلك من المواضع التي أشار إليها "جار الله" في كشفاته، ويضيق المقام عن حصرها.

وخاصية الأمر أن الكلام إذا أكد تقرر في الأذهان، وأصبح حقيقة لأمراء فيها، وصار قوله حقيقة مسماً بها، ولا يرده إلا من أشرب قلبه حب المكابرة والعناد (3).

وتوكيد كم هو معلوم لذوي الاختصاص له صـور عـدة، فقد يكون بـ"أدواته" المشهورة، وقد يكون بـ"التكرار"، وقد يكون من خلال أسلوب القصر"، ومستناول أسلوب التوكيد في سورة "آل عمران" من خلال هـذه الأساليب الثلاثة.

(1) الإنسان آية : 93.
(2) طه آية : 10.
(3) البلاغة القرآنية في تفسير الشافعي : 134، وما بعدها.
(4) انظر : أساليب التوكيد في القرآن : 14.
البحث الأول
أدوات التوقيد
إن كل من وقف مع البلاغة، ولم بشيء منها، وعرف مقامها، لابد أن يكون على دراية بالأساس الذي وضعه البلاغيون لجودة الكلام، واستحثائه لأن ينظر في سلك الكلام البلاغي، وهي مراعاة الكلام مقتضى الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، لهذا نرى علماء البلاغة قد اهتموا اهتماماً كبيراً بأحوال المخاطبين، أثناء حديثهم عن أضرب الخير.
إذا كان المخاطب حاليّ الذهن عن مضمون الخبر، فإن الكلام يساق خالياً من أي مؤكد، ويسمي هذا الضرب «ابتدائياً»، أما إذا كان لديه علم بمضمون الخبر، وهو يتعدّد في قوله، فإن الكلام يؤكد له بمقدم واحد، استحساناً، دفعاً للتردد والشك عند المخاطب، وهذا الضرب يسمى «طليباً»، فإذا كان المخاطب يعرف مضمون الخبر ويتكبره، فإنه يؤكد له بأكمل من مؤكد واحد ووجوبًا، وحينئذ يسمى "إنكارياً"، وقد يكون التوقيد لغير ماذاك، كما قالنا سابقاً.
وأدوات التوقيد كثيرة، وقد حملت سورة «آل عمران» التي نحن بصدد الحديث عنها بيكثير منها، خاصة وأن المخاطبين هذه السورة كثر، وتوجهت في كثير من أيامها لمخاطبة الأمم الأخرى من يهود ونصارى ومشركين، وكلاً هؤلاء لا يسلمون للحصول العبء من أول ولهة، فلهذا يلجأ هذا الحتم للتأكيد، لتقرير كثير من الأمور التي تحدث عنها.
وسواء أنتواج بعض أدوات التوقيد بالتحليل والعرق، وفق ترتيب الآيات في السورة الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى: "إذ قالت امرأة عمران ربِّ إني نذرتُ لِكِنَّ ما في بطنِي مُحرَّماً فتقبلِ مني إِلَّا أَلَّا السُّمِّيعُ الْعَلِيمُ"(1).

(1) آل عمران آية 35.
WHEREAS this clause of the verse encompasses the necessity of a verification, and from what has been mentioned:
1. Verification of the verse by "الن" as a guarantee of the correct meaning; to ensure the understanding of the words of the verse.
2. Interpretation of the verse as a guarantee of the correct meaning; to ensure the understanding of the words of the verse.
3. Interpretation of the verse as a guarantee of the correct meaning; to ensure the understanding of the words of the verse.
4. Verification of the verse by "الن" as a guarantee of the correct meaning; to ensure the understanding of the words of the verse.
5. Verification of the verse by "الن" as a guarantee of the correct meaning; to ensure the understanding of the words of the verse.

1. (Ref: الالتباس والتدريس: 2/331 - 332)
2. (Ref: تفسير: 4/301)
عدة بالكلية؛ مبلاغة في الصراع والابتهال.

6- وتحت هذه الآية الكريمة بعض الوصفين: «..السيّبٍ العليم»؛ لأنها اعتقدت النذر، وعقدته بينها، وتلفظت به، ودعت بقبوله، فناسب ذلك ذكر هذين الوصفين (1).

وقد قوله تعالى: «فَلَمَّا أَخَسَّ عِيسٍ عِيسى فِيهِمُ الْكُفَّارُ قَالُ مِنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالُ الْحُوَارِيُّونَ تَحْنُنَّ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَا بِاللَّهِ وَآشْهَدْنَا بِأَنَّ مُسْلِمَنَّ» (2)، حيث استعمل نظام هذه الآية الكريمة أيضاً على جملة من المؤكدات منها:

1- التعبير بـ«..أَخَسَّ» دون «علم»، أو «أخير»، أو غيرها من الألفاظ؛ وذلك لبيان عظم حرص الأنبياء على السلام على أمهم، وتفدهم لأحوازهم، حتى أتم ليدركون الأمور التي تكاد تعصف بأمهم، ويعسوها قبل أن تخرج وتتبوأ، وتتصبح معلومة لكل أحد، بل أمهم محمدر الإحساس، يقومون بعلاجها، ووصف العلاج الناجح لها، كما في هذه الآية الكريمة، التي بين كيف أن بي الله عيسى عليه السلام أخس منهم الكافر قبل خروجه، فأطلق كلمته التي يستحبها بها، فقال: «..مِنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ..»، فكان الجواب: «..تَحْنُنَّ أَنصَارُ الْلَّهِ ..»، وكذلك في التعبير بهذه اللفظة دون غيرها بيان لعظم الكافر والشنيذ، حتى إن الأنبياء يذكرون أمهم منه، بالإحساس دون الوقوع، فلا شك أنه لو وقع لكان التحذير منه أشد وأبلغ، وفي قوله: «..أَخَسَّ ..» استعارة مكينة؛ إذ لا يحسن إلا ما كان متحسساً، والكافر ليس محسوساً، وإنما يعلم ويدرك، كعلم ما يدرك بالحواس.

2- وتقديم الجرار والمخرور في هنّهم ..على المفعول الصريح ..الكافر ..»؛ كما ذكرت سلفاً، اعتناء بالمقصد، والتشويق إلى الموهر.

(1) انظر: البحر الغليظ: 3 / 114.
(2) آل عمران آية: 52.

211
3- واختيار كلمة توافق الصلاة في قوله: 

«من أنصارك إلى الله...»,

حيث لما كان المقصود ثبات الأنصار معه إلى أن يتم أمره؛ عبر عن ذلك بصلة ذلك على تضمين هذه الكلمة كلمة توافق الصلاة فقال: «...إلى...»، أي: سلائرين، أو واصفين معي بنصرهم «...إلى الله...».(1)

4- وتركز لفظ «أنصار الله»، والإيتاين به مظلمًا لا مضمّراً في قوله: «...قُلَّ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوْارِيْجُ تَحْنُنٌ أَنْصَارُ اللَّهِ...».

5- والتعبير بالفعل في قوله: «...آمنًا بالله...»، دون الاسم؛ ليبين أن إيمانها واقع، ومنحق.

6- وحتم الآية بطلب شهادة الله على ذلك في قوله: «...وَاشْهَدُوهَا...»، فيه تأكيد بلغ على أنهم لم يزلوا الإيمان قلوبهم، وإلا فكيف يطلبون من الله سباقاهان وتعالى، وهو الذي لا تخفيه خافية الشهادة على إيمانهم، مع أن قلوبهم تنطوي على أمر مختلف له ومضاد له، وهذا أمر لا يكاد يبكيه عليه عاقل، بله إنسان مؤمن بالله سبحانه وتعالى، وكفى بطلب الشهادة تأكيدًا على صدق إيمانهم.

7- وحتم الآية الكريمة بـ« أَنْ »، أسمية الجملة في قوله: «...بَالْمُسْلِمُونَ »، وفي هذا تأكيد، وأي تأكيد على ثابتم على الإسلام، وأنهم لم يتركوه طرفة عين، ولا أقل من ذلك ولا أكثر.

وقيل أن أطوي الكلام كشحاً عن هذه الآية الكريمة. هنا تساول يطرح نفسه، وفجوة: لم قال الله هنا في هذه الآية الكريمة: «...بَالْمُسْلِمُونَ »، بينما قال في سورة «المائدة»: «...بَالْمُسْلِمُونَ »، من قوله: «...وَاشْهَدُوهَا بَالْمُسْلِمُونَ».(1)

ويمكن الإجابة على هذا التساؤل: بأن آية «المائدة» لما ورد فيها التفصيل فيما

---

(1) انظر: نظم الدرر : ٤١٧ / ١٣١.
(2) المائدة آية : ١١١.
يرجى الإيمان به، وذلك قوله: "أين أُهمِي، بي؟ وَبَوْسُولِي..."، فجاء علَى أتم عباره في المطلوب، وأوافها، ناسب ذلك ورود "أيُها..." على أوق الحالتين، وهوالورد على الأصل. ولم يقع إقصاء هذا التفصيل في آية "آل عمران" حين قال: "قال احترامُون تُحنُّ أنصار الله آمنًا بالله..."، فلم يقع هنا "وَبَوْسُولِي..."؛ إجازة للعلم به، وشهد السياق، ناسب هذا الإجازة الإيجاز، كما ناسب الإمام في آية "المائدة" الإيام، فقيل هنا: "أين...، وأشهد بأيَّام مُسلمون"، وجاء كل على ما يجيب، ولو ورد العكس لما ناسب.(1)

أو لأن مافي سورة "المائدة" أول كلام الحواريين، فجاء على الأصل، ومافي هذه السورة تكرار لكلامهم، فحجاز التخفيف؛ لأن التخفيف في وع، والتكرار، فئرع، والفرع بالفرع أولى.(2)

وأما بدخل تحت هذا البحث قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بعَدَّ إِيَاهِنَّ مُؤَذِّنًا، أَزَادُوا كَفَرًا لَّنْ تُقَلَّ لَهُمْ وَأَوَّلَكَ هُمُ الَّذِينَ الصَّالِحُون".(3)

هناك استعمال نظام هذه الآية المكرمة على جملة من المؤكدات تناسب مع المخاطبين بهذه الآية المكرمة.

١ - فبدأت آية الكرامة بـ "إِن..." المؤكد، للاهمة unordered المكيدة، لكلاهم تمضمون الفكرة، التي تضمنها الآية المكرمة، والكلام في الآية المكرمة عن قوم أمموا بالله، واطمأنت قلوبهم به، وبعد ذلك انسابوا على أعقاءهم حاسرين، بل ولم يكنوا بذلك، بل أزدادوا في كفرهم وطيغمهم وعتوهم، ولا شك أن الذي آمن بالله ثم ارتد على عقبه أكثر جرأة من الذي لم يدخل الإيمان قلبه، وأكثر عناذا، ولا يرجى رجوعه إلى ساحة الإيمان.

(1) انظر: ملاك التأويل، ١٠/٣١٠.
(2) انظر: تراز التأويل وفترة التأويل، ٧٠/٤٣٨، أسائر التكرار في القرآن، ٥٠.
(3) آل عمران آية، ٩٠.
والأجل هذا نرى القرآن بين هذه الآية على التأكيد، فجمال استفتاحها مؤكداً به إن... أي هي أم الباب.

2- ثم صدرت الجملة بعد ذلك بالموصول، والتعريف به هنا لأن صلته هنا هي على مدار الحكم، وكذلك تثير الموصول في النفس الشوق إلى معرفة الخير، أضاف إلى ذلك أن الصلة هنا جاءت ممدهدة للخبير فالتعبير هنا لما أورد لفظ الكفر هنالك ثم أعقاب ذلك بأنه قد بلغنا مباغتاً عظيمةً فيه، لا شك أن هذا أحدث في نفس المستمعين تساؤلات عن مصير هؤلاء القوم، ومثل هذا لا يتحقق إلا بالتعبير بالموصول وصلته، وإن فيه إيقاظًا للعفالة من الناس والمساكن للنسبة للمبادرة إليها، وعدم النمو فهنا.

3- والتعبير به (ثم..) حيث ما كان الكفّار لفظاعته وقبحه وشناعته جديرًا بالتهنئة عنه، والبعد عنه، نبه سبحانه وتعالى على ذلك باستعداد إيقاعه فكيف بالتمادي عليه وبالارتداد منه، فعصر عن ذلك بآدة الأتراحي (ثم..)، فقال: (ثم ازدادوا كفراً..) أي: بأن تمادوا في ذلك، ولم يبادروا بالنوبة.

4- وكذلك الإتيان بالخبر (ألا تقبل توبتهم وأولبهم هم الصالون) مصدرًا بـ (أن) التي تفقي النفي في المستقبل، بل زعم المعتزلة وعلى رأسهم الإيجارشي، بأنها تفقي النفي على التأب، وهذا قول مرحوج، فهي لا تفقي التأب إلا إذا أردت به، كما في قوله تعالى: (وأي تصرف أبداً بما قدتم أبداً) 1، وهنا لم يردف النفي بالتأب، ولماذا لا تفقي التأب إلا إن ماتوا على الكفر، فعليه هذا فالإتيان بالخبر على هذه الشاكلة مخوف جداً، وبالغ مباغتاً كبيرًا في التأكيد، وعلى هذا يمكن أن يكون قوله تعالى: (ألا تقبل توبتهم..) كتابة عن

(1) البقرة آية: 95.

214
أهم لا يتوبون، فتقبل توبتهم، كقوله تعالى: "ف...ولا يقبل منهما شفاعة..."(1).

أي: لاشفاعة لها فتقبل، وهذا كقول امرئ القيس:

على لأخب لا يعترض بسائر الله سامع أن الحكيم جزيرة(2).

أي: لا منارة له إذ قد علم من الأدلة أن النوبة مقولة، إذ لم يغفر الإنسان,

أو تطلع الشمس من مغرماً، وبدل على ذلك الحصر، وهو هنا مستفاد من تعريف

الجزائر في قوله: «وأولئك هم الصالون»، حيث قصر الضلال على المشاير

إليهم بـ«وأولئك» دون غيرهم، وكأنه لا ضال غيرهم قسراً حقيقياً ادعاءاً، ثم

أكد بضمير الفصل.

وربما يكون قوله: «لن تقبل توبتهم وأولئك هم الصالون» في النبي

عن الاغتيار بما يظهرون من الإسلام نفاقاً، فلما رد بعدم القبول عدهم تصديقهم في

إمامهم.

وربما يكون الإخبار لبيان أن الكفء قد رسب في قلوبهم فصار لهم سجية.

ومثل هذا قوله تعالى: "إن أول بنى وُضع للناس للذي بِكَة مَبَارَكَ وَهَذَا

بلغالَمِينِ فِيهِ آيات بنى مفَاعِم إبراهيم وَمِن دَحَلَة كان آمنا وَلله على الناس جَعْلُ

أيَّتِم مِن استطاع إِلَيه سِبْيلَ وَمَن كَفَر فَإِن اللَّه غَيِّب عَن الغَلَامِينِ"(3).

حيث انطوى نظم هذه الآية الكريمة على أنواع من التوكيد، منها:

تصدير الخطاب الرباني في الآية الكريمة بـ«...إن...»، والتأكيد بما هنا مجرد

الاهتمام.

ومن خصائص «...إن...» إذا وردت في الكلام مجرد الاهتمام أن تغي غناء

(1) البقرة آية: 48.
(2) البيت من { الطويل }، وهو في: ديوانه: 89، والصحيح: 378.
(3) اللاحش: طريق الواضح... وساهه... وسور: 477... والعود: الديار الكبير الهرم.
(3) آل عمران آيتا: 96.
عن فائد التفريق، وتفيد كذلك التعيل والربط.

قال الإمام عبد القاهر: "...إنك ترى الجملة إذا هي دخلت ي يعني "إن"، ترتبط بما قبلها، وتألف معه، وتحتد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراً واحداً، وكان أحدهما قد سبك في الآخر? (1)

وقد عز الزكيد في هذه الآية الكرامة، اسمية الجملة المقتربة باللام: "...للّذي بُكِّيتُ بِمَّا رَأَيْتُ وَهَذَا لِلْعَالِمِينَ..."، فالمؤكدات إذا ثلاثة: "إن" والسلام، واسمية الجملة، وكل هذه المؤكدات أعطت الآية بعداً ضمنياً، وتوكيداً أكيداً.

1- وفعل بناء "...وضع..." للمحجول لعدم استدعائه الحديث هنا تبديلًا.

فاعل البناء، وإنما له هدف آخر هو ما سبق له الآية هنا.

2- والتعريف في "...للناس..." للعهد، والمهودون هم: أهل الكتاب: اليهود، والنصارى، والمسلمون، وكل هذه الأمم الثلاث تعترف بأصالة دين إبراهيم.

فأول معد بإجماعهم هو الكعبة، فيلزمهم الاعتراف بأنه أفضل مما سواه.

3- والعدول عن تعريف البيت باسمه العلم باللغة وهو الكعبة، إلى تعريفه بالموصولية "...للّذي بُكِّيتُ..."؛ لأن هذه الصلة صارت أشهر في تعيينه عند السامعين، إذ ليس في مكة يومئذ بيت للعبادة غيره، بخلاف الكعبة، فقد أطلق اسم الكعبة على المقص، الذي بناه الخديaña في ضعاء للمدين النصارى، ولقبوه الكعبة اليمانية، وهذفهم من هذا الأمر صرف الناس عن الكعبة، والمحج إليها (2).

المهم باء في كلمات كثيرة، وعدها بعض العلماء من الطرائف، مثل: "لازب" في "لازم"، وقيل: "...بُكِّيتَ..." بالباء اسم موضع البيت، وبالميم اسم بقيه.

1) دلائل الإعجاز: 316.
2) انظر: التحرير والتنوير: 14 / 4.
البحث...» مثبت من البك، وهو الادعاء (1).

4- ووصف البيت بال مصدر "هذي..." مياءة؛ لأنه سبب هدى، وجعل...

...هذى للعالمين..." كثيرون؛ لأن شهيرته، وتسامع الناس به، يجعلهم على...

التسؤل عن سبب وضعه، وأنه توحيد الحي الذي لا يموت، وظهور النفسوس...

من الشرك، فهو يهدي بذلك المهدي، ويرعى المتشكل.

ومن ضروب التكية في هذا النظم الر يكن، تقدم الجار والمحترر "وَلَّهُ...

على الناس حِجَّ الْبُيُوتِ..." الذي يفيد الخصر، فحج البيت عبادة بخصوص ما الله...

سبحانه، وهذا يعني أنه حق واجب لله في رقاب الناس، لا يفكون عن أدائه،

والخروج من عهدهته، وإيثر صبيحة الخير وإبرازه في صورة الجملة الإسهامية الدالة على...

الثبات والدوام على وجه يفيد كذلك أنه حق واجب الله تعالى في ذم الناس.

ومن ضروب التوكي في كذلك أنه ذكر لفظ "...الناس..." ثم أبدل عنه...

...من استطاع إلَّهٍ سِيِّبًا..."، وهذا فيه ضربان من التأكيد:

أحدهما: أن الإبدال تنفي للمراد، وتكرير له، وفي تكرار الشيء مرتين فيه...

اهتمام بالذكر، ومزيد عناية به.

__________________________
(1) السمل آية: 91
(2) انظر: التحرير والتوضير: 12 / 13 _ 16.
والثاني: أن الإيضاح بعد الإمام، والتفصيل بعد الإجابة، بإدراك له في صورتين مختلفتين تتم عن مزيد الحرص عليه، وتميز له في ذهن السامع حتى لا يغفل عنه، و"...ومن..." للعفقاء.

وكان التعبير بقوله سبحانه: «...ومن كفر...» مكان قوله: «ومن لم يحج» ؛ تنفيذاً وتخويفاً من ترك الحج، ولذلك قال الحبيب: (من ملك زادٌ، أو راحلة تبلغه إلى بيت الله، ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً، أو نصرانياً) (1)، ولاشك أن هذا أبلغ دليل وأكده على كفر من وحد سعة ولم يحج.

وكذلك كان التعبير أيضاً بقوله سبحانه: "...ومن كفر فإن الله غني..." ، لتعضيد ما سبق من التنبؤ والتخويف من ترك هذه الفرصة التي هي أحد أركان الإسلام العظيم، وقال: "...عن العُلَّمِينَ"، ولم يقل عنه، فيه من الدلالة على الاستغنا عنه ببرهة، لأنه إذا استغنى عن العلامة، تناول الاستغنا عنه لا محالة ؛ ولأنه يدل على الاستغنا الكامل، فكان أدل على عظم السخط، الذي وقع عبارة عنه، وفي ذكر الاستغنا كذلك رمز إلى تزوع سببان وليلة الحرم من أيديهم ؛ لأنه لما فرض الحج، وهم يجدون عنه، وأعلمنا أنه غني عن الناس، فهو لا يعجزه مـن يصد الناس عن مرامته(2).

ومن لطائف النظام في الآية الكرامة:

1- الإنجاز البديع، وهو إنجاز الحذف في قوله تعالى: "...فيه آيات بيّنات مقاتٍ إِبْرَاهِيمِ..." ؛ وذلك أن الحق تيارك وتعلام ذكر أن هذا البيت استعمل على آيات بيئات، ولكنه سببان وتعلام لم يذكر منها إلا آية واحدة، وهي مقات إبراهيم التراب، وطوى ذكر غيره من الآيات ؛ إما لكوه معلومة مشهورة، أو ليجعل

(1) الحديث رواه الترمذي في سنته: رقم 806.
(2) انظر: التفسير الكبير: 391 ; البحر الأخضر: 176.2 ; إرشاد العقل السليم: 2.33 ; الدرس المصون: 2.37.
المستمع يعمل الفكر في استنتاجها، حتى يحصل له الفرح بالنظر بالمطوي، وهكذا تفعل العرب في كلامها والقرآن كما هو معلوم يمشي على سنن العرب في كلامها.

يقول حريز:

"كنت حقيقة أثناً فلَّنهمُ من الغبيِّد، وثلث من موالِيها."

وقد لا يكون في الكلام حذف، ويكون المقام وحده بمثل آيات، وذلك لاشتماله على آيات، كاثر القدر في الصخرة الصماء، وغوصه فيها إلى الكعّبين، وبقائه على مر العصور حتى زمانه هذا.

و"مقام إبراهيم..." أصل المقام أنه مفعل من القيام، والقيام يطلق على المعنى الشائع، وهو ضد القعود، ويطلق على خصوص القيام للصلاة والدعاء فعليه الوجه الثاني فرفع مقام على أنه خبر لضمير مسند بعوض لدى ً"للذين يَبْاَكُهُمْ..."، أي: هو مقام إبراهيم، أي: البيت الذي يَبِكِه، وحذف المسند إليه هنا جاء على الحذف الذي صح به علماء "المعاني" بالحذف للاستعمال الجاري على تركه؛ وذلك في الرفع على المدح أو الذم أو الترحيم بعد أن يجري على المسند إليه من الأوصاف، قبل ذلك ما يبين المراد منه، يمكن إعرابه عطف بيان، أو مبتدأ حسره مسند، ولا شك أن الوجه الأول هو الراجح.

وقوله: "وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آتِيًا..."، عطف على مزايا البيت وفضائله من الأمن فيه على العوام، وامتنان لما تقرر في ماضي العصور، فهو خسير لفظًا مستعمل في الامتنان، فإن الأمن فيه قد تقرر واطرد، وهذا الامتنان كما امتننا الله على الناس بأنه خلق هم أسماء وأنصارًا، فإن ذلك لا ينقص من ولد أكمه، أو عرض له ما أرزى بعض هذه النعم.

ومن العلماء من حمل قوله: "وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آتِيًا..." على أنه خير

(1) البيت من { البسيط }، وهو في ديوانه: ٢٠٠.
(2) انظر: الكشاف: ١/٣٨٧-٣٨٨، البحر المحيط: ٣/٢٧٢.
مستعمل في الأمر بتأمين دخله من أن يصاب بأذى (1).

3- والتعبير بلفظ "...الناس..." في الموضوعين، وذلك للدلالة على الإحاطة والشمول، وذلك لذلك يدعي مفعمة خصوصية البيت بالعرب أو غيرهم، ولكني يتناسب هذا الشمول مع شمول الإسلام للناس جميعًا، أو بناء على أن الكفار محاطون بفروع الشريعة.

4- والمقصود بـ "...جح البيت..." زيارته زبارة عظيمة تلبق به، وتبنى بقدسيته من غير إلحاح فيه، أو أدى لسكته وزائه، والتعبير بالحج هنا، للتخصيص عليه، والتنويه بذكره، وتفخيمًا لقدرته، وعبر هنا بالبيت؛ لأنه في الزيارة، وعادة العرب زيارة معاهد الأحباء وأطلاعهم وأماكنهم، وأعظم ما يعبر به عـن الزيارة عندهم الحج والألف واللام في البيت للعيد؛ وذلك لتقديم ذكره (2).

5- والضمير في "...إليه..." قد يكون للبيت أو للحج؛ لأنه اتخذ عنه، وهو متعلق بالسبيل لما فيه من معنى الإفشاء، وقدم أي: الجار والمجرور - على السبيل للاهتمام بشانه (3).

6- ومن ينظر في نظام هذه الآية الكريمة، يلحظ أنها جاءت على أسـلوب الاحتكاب؛ وذلك لأن إثبات فرضه: أي: الحج - أولاً يدل على كفر من أبيـه، وإناث «...ومن كفر...» ثانياً يدل على إبان من حج البيت (4).

ومثل هذا أيضاً قوله تعالى: "فقد خللت من قلابكم ستين سيرًا في الأرض فأظهروا كيف كان عاقبة المكذبين" (5)، حيث حـي في هذا النظام البديع.

----

(1) انظر: التحرير والتنوير: 618 / 19.
(2) انظر: نظم الدور: 50 / 9.
(3) انظر: روح المعاني: 74 / 4.
(4) انظر: نظم الدور: 51 / 10.
(5) آل عمران آية: 37.
بـ«قد»... الدالة على تأكيد الخير؛ للاهتمام بخصوص الفكرة، أو الخير؛ لما ظهر عليهم من انكسار الخواطر من جراء الهزيمة الحاكمة لهم من المشتركون، مع أنم يقاتلون لنصر دين الله، وبعد أن ذاقوا حلاوة النصر يوم بدر، ففيه الله فهم أن الله جعل سنة هذا العام أن يكون الصراع فيه سجالاً ومدالاً، وذكرهم بأحوال الأمم الماضية، فقال: «قد خلت من قبلكم ستين...»، والله قادر على نصرهم، ولحسن الحكمة اقتضت ذلك للاختار من يأتي بعدهم من المسلمين، فيحسب أن النصر لهم، خاصة وأن الشرائع في ذلك الوقت لا تزال تنزّل({1}).

وفي قوله جل ذكره: «...فسيروا في الأرض...» مجاز مرسى، والعلاقة في هذا المجاز ما يوحي إليه أمر السير في الأرض، وتملي الآثار المعروضة، واستجلاء ماتركه الأولون من مخلفات ينبغي الاستبصار بها، و مثله قوله تعالى: «فَمَتََّمَّ رَحْمَةَ اللّهِ عَلَيْهِمْ وَ أَلْقَى عَلَيْهِمْ فَطَأْ غَبِيظَ الْقَلْبِ لِتَفْتَصُّوا مِن حَرَّمٍ قَالَوْا عَنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرُوْهُمْ وَ شَأَوْرُهُمْ فِي الْأَمْرِ فَ عَرَضْتَ فَ قَالَ اللّهُ ﻟِلْتوكل، فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنِّهُ يُحِبُّ الْمُتَوْكَّلِينَ»({1}), حيث زيدت «ما» للتوكل، والتنبيه والدلالة على أن لينه لهم ماكان إلا برجمة من الله، وهو ربطه على جاذبه، وتوقيقه للرفق هم؛ حتى اعتمهم بعد أن خالفوه({2}).


---

(1) انظر: التحري و التنوير: 6/96.
(2) ال عمار بن آية: 159.
(4) ال در المصن: 2/240; 105.
وقام «ابن الأثير» بالرد عليه بقوله: «وهذا القول لا أراه صواباً، وفيه نظر ... من وجهين:

أحدهما: أن هذا القسم ليس من الجناز، لأن الجناز هو دلالة اللفظ على غر موضع له في أصل اللغة، وهذا غير موجود في الآية الكرية، وإنما هي دالة على الوضع اللغوي المنطوق به في أصل اللغة.

والوجه الآخر: إن لم سلمت أن ذلك من الجناز لأنكرت أن لفظة «مساء» زائدة لا معين لها، ولكنها وردت تضخيمًا لآخر النهمة التي لان بما رسول الله ﷺ لهم، وهي محض الفصاحية، ولو غري الكلام منها؛ لم تكن له تلك الفخامة»، إلى أن يقول: «وايا «الغزالي» رحمه الله فإنه عندي معذور لأنه ليس فه، ومن ذهب إلى أن في القرآن لفظًا زائدًا لا معين له; فإما أن يكون جاهلاً بهذا القول، وإما أن يكون متسماحاً في دينه واعتقاده، وقول النحاة إن «ما» في هذه الآية زائدة، وإنما يعني به آنلا لا يمنع ما قبلها عن العمل، كما يسموها في موضع آخر كاففة، أي: أئدما تكف الحرف العامل عن عمله، وفي الآية لم يمنع عن العمل ...».

والأية في قوله: «فَقَبَّ رَحْمَتُهُنَّ الْيَتَّى»، قدبشـ عليه لإفادة القصر، وهو قصر إضافي، أي برحمة من الله لا يغفرها، وهذا القصر مفيد للتعبير بأن أحوالهم كانت مستوجبة الغفلة عليهم، ولكن نحن الله للققس رسوله ﷺ بمكم شكيمة علم الله في سياسة هذه الأمة، والذي اقضى هذا الحصر هو قدم ما حقه التأخير.

وبدلت زيادة «ما» على أن تكون «...رَحْمَتُهُنَّ ...» للتعظيم، أي: فبالرحمة العظيمة لا بغيرها «...ليثَّ لُهُمْ ...».

١) المثل السائر: ٠٨ // ٠٨، ويتصرف.
والفظ: الكريهة الخلق، وذلك مستعار من «الفظ»، وهو ماء الكوشر، وذلك مكروه شربه إلا في الضرورة، وقد كانت العرب عندما تريد قطع المفاوز، تملاً بطن الإبل بالماء، ثم ترطيب أفواها، وعندما ينفد ماعمهم من ماء تقوم بنحر تلك النواضح، واستخراج الماء من كروشها، وهذا الماء يطلق عليه الفظ، ثم أحد منه للرجل السه الخلق.
والعلة عند الرحمة، ويقال: عُلُقة، والعتيقة، أي: بالكسر والضم، وعن العلة تنشأ الفظاعة.

وهنا قد يتبادر للذهن سؤال مفاده: إن كانت الفظاعة تنشأ عن الغلطة، فلما قدمت عليها؟

ويجب على هذا التساؤل: بأن التنيد لما هو ظاهر للحس، على ما هو حاف في القلب؛ لأن الفظاعة الجفوة في العشيرة قولاً وفعلاً، والنظقة قصائد القلب، فعلسي هذا فتكون الفظاعة أظهر من الغلطة، فلذا قدمت.

4- قوله: «...لاَفْقَضُوا مِنْ حَوْلَكَ...» تمتيل، حيث شهدت هيئة النفور منه، وكراهية الدخيل في دينه بالانفصال من حوله، على سبيل الاستعارة التصرعية.

5- وظاهر الأمر في قوله: «...فاغتَفْ عَنْهُمْ...» للوجود.

6- وقد اتفق الأئمة عليهم رحمة الله أن كل أمر نزل فيه وحي، لم يجز للرسول أن يشاور فيه الأمة؛ لأنه كما قيل: إذا جاء النص بطل الرأي، ولهـ فـاعدة أصولية تقول: لا اجتهاد مع النص، وأما ما لا نص فيه فهنا تجوز المشاورة فيه في جميع الأشياء أو لا؟ قال كثير من العلماء هذا الأمر مخصص بالمشاورة في الحروب، وحجتهم أن

(1) انظر: مفردات الراغب: 240، 246.
(2) انظر: العلم المصور: 2، 246.
الألف واللام في «...الأمر...» ليسا للاستغراق؛ لما بين أن الذي نزل فيه الوحـى لاتجوز المشاورة فيه، فوجب حمل الألف واللام همها على المعهود السابق، والمعهود السابق في هذه الآية هو الحرب، ولقاء العدو، فكان قوله: «...وَشَأَرُوهُمْ فِي الأمَّر...» مختصًا بذلك؟

_ وحذف متعلق «...عَرْشُه...» لأنه دل عليه التفريغ عن قوله سبحانه وتعالى: «...وَشَأَرُوهُمْ فِي الأمَّر...»، وتقديره على ذلك: فإذا عزمت الأمـر، وقد ظهر من التفريغ أن المراد: «إذا عزمت بعد الشرى، أي: تبين لك وجه السداد فيما يجب أن تسلك، فعزمت على تنفيذه سواء كان على وفق بعض آراء أهل الشورى أم كان آلياً آخر لرسول الله ﷺ سداده، فقد يخرج من آراء أهل الشورى، وفي المثل: «ماين الرأين رأي»؟.

_ والتعبير بالমظهر بدلاً من المضمـر في قولـه: «...إن الله يُجْبِبُ المَتَوَكِّلِينَ» بعد قوله: «...فَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ»، وكان الأصل أن يقال: «إن الله يُجَبِّبُ المَتَوَكِّلِينَ»؛ وذلك لتربيبة المهابة، وتعييل للتوكـل والأمر به، لأنه عضوان الروبية الجامعة لجميع صفات الكلام مستندع للتوكـل عليه سبحانه وتعالى، والأمر به.

_ وقاله تعالى في خاتمة الآية الكريمة: «...إن الله يُجِبـبُ المَتَوَكِّلِينَ» تدويل لتقرير ما سبق وقد أكد هذا التدويل بـ; «...إن...»، ليستقر التوكـل في النفس؛ لأن التوكـل من الدين ممكن، فالتوكـل يقرر معين هذه الصفة في النفس، وإذا تكررت هذه المعاني في النفس، ابتُنِى منها العمل الصالح، المبني على أساس مكين.

_ ومن ينظر للنظرـم في هذه الآية الكريمة يلاحظ أنه روعي فيه حسن

---

(1) انظر: التفسير الكبير: 97/67.
(2) انظر: التحرير والفءور: 151/4.
الترتيب، وذلك لأنه أمر أولاً بالعفو عنهم فيما يتعلق بخاصة نفسه، فإذا انتهوا إلى هذا المقام أمر أن يستغفرهم ما بينهم وبين الله تعالى؛ لترح عنهم التبعات؛ ويفجر لهم الزولات، فلما صاروا إلى هذا أمر بأن يشأورونهم في الأمر إذ صاروا خالفين من التبعين، مُصْفَّين منها، ثم أمر بعد ذلك بالتوكل على الله، والانقطاع إليه؛ لأنه سبحانه السند الأقوم، والملجأ الأعظم الذي لا تؤثر الأسباب إلا به، ولا تقضي الحاجات إلا عند بابه نفسناه من إله ما أعظمه، وما أكرمها وما أرحمها وما أجملها!

وكلمة قوله تعالى: {كثبَّنَ في أُمرِ الكَتَابَ وَأَنزَلَ كُتُبَ مِنِّ الْذِّينَ أُخْرِجُوا الَّذِينَ مِنْ قِبَالِ يَوْمِ الْآثَامَ أُذُنَّبُونَ} (1) 

حيث أكدت الفعل بلام القسم، ونون التوكيد المشددة، حيث وقعت حوابة قسم مخزوف، أي: والله تتلون، أي: لتعملن معاملة المعتبر؛ ليظهر ما عندكم من البناء والأعمال الحسنة، وفائدة التوكيد؛ إما تحقيق معنى الإبلاء؛ هو بوّنا للخطب؛ وإما تحقيق وقوع المبتلى به مبالغة في الحث على ما أريد منهم من التهيأ والاستعداد.

1- ومن ينظر في هذا النظم الكريم يلاحظ أنه قد أفرم الموارد على الأنسى، ولعل السر في ذلك للترقي للأشرف، أو على سبيل الكثرة لأن الزوايا في الأموال أكثر من الزوايا في الأنسى، أو لأن المال كما قيل عديل الروح، وربما همان على الإنسان الوقت دون الفقر، المؤدي إلى الذلا بالشماتة والعار؛ بما تقصر عنده بفائدته من أفعال المكارم، وما أحصن ذكر هذه الآية إثر فصلة أحد البيتين، وقع فيها القتال بسبب الإقبال على المال، وكان ذكرها تعلية لبضعة أهل الكتاب وغيرهم من الكفار.

2- وما كان مراد الحق تبارك وتعالى في هذا النظم الكريم تسوية العالم بالجاهل.

(1) آل عمران آية: 186.
(2) أنظر: نظم الدور: 5، البحرين المحيط: 3، الرصد: 149/464، الإرشاد: 123/2.
في الذم ، نزع العلم عن الذكر ، فتبلى للمفعول قوله: «...أولئك الكتّاب...» ، ولا
كان إثناهم للكتاب لم يستغرق الزمن الماضي ، بل كان قبلهم أنباء ورسل وأمّهم
أدخل الجار <...من قُبْلَكُم...> (1) ، أي : من اليهود والنصارى 

_ 3_ والذّي هو الضر بالقول ، كقول الحق بيارك وتعالى <اللَّهُ يُصَبِّرُكُمْ إِلَّا
أذّى...> (2) ، كما تقدم أنفنا ; ولذلك وصفه هنا بالذكرى ، أي الخارج عن الحد
الذي تحمله النفوس غالبا ; وكل ذلك يؤدي إلى الفشل ، فأمرهم الله بالصبر على
ذلك حتى يحصل لهم النصر 

_ 4_ والإشارة بقوله : «...فان دُلِّكُم من عَزْمِ الأَنْفُور إلى الصبر والتقيّوى ،
والإشارة بالبعد ؛ لأنيدان بعلو درجتهما ، وبعد مرتلهما .
_ 5_ ومن ينظر في قوله تعالى : «...وَإِنَّكُ رَضِيْرًا وَقَرِيرًا فَان ذُلِّكَ مِنْ عَزْمِ
الأَنْفُور» ، قوله في سورة «لقمان» (6) . وأصح وَقَرِيرًا عَلَى ما أصابك إن ذُلِّك مِنْ
عَزْمِ الأَنْفُور» (3) ، يلاحظ أنهما بغير لام في حيّر <إن> في الآتيين ، بينما جاءت في
سورة «الشورى» بزيادة لام في حيّر <إن> (ولم يُصَبِّرَ وَقَرِيرَ إن ذُلِّك لَمَّا
عَزْمُ الأَنْفُور» (4) والسر في هذا التبليج والاختلاف في ذلك وتميز سورة «الشورى»
باللأم دون سورة <آل عمران> ، أو سورة «لقمان» ، اختلاف ما وقع الحفض
على الصبر عليه في هذه الآيات ، وأخبر إليه بذلك وأنه من عزم الأمور .
أما آية سورة <آل عمران> فإن قبلها <كَبِلْتُونَ فِي أَفْوَاهَكُمْ وَأَنْفَسَكُمْ
وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الْذَّلِّيْنِ أَوْلَى الْكِتَابَ مِنْ قُبْلِكُمْ وَمِنْ الْذَّلِّيْنِ أَشْرَكُوا أَذّىً كِبَيرًا...> (5) ،
وقع الإيحار بالابتداء في الأموال والنفس ، ومن أذى الكثير من ذكر ، فعرفوا

(1) انظر : نظام القدر : 149 _ 150 .
(2) آل عمران آية : 111.
(3) لقمان آية : 17.
(4) الشورى آية : 43.

226
بثلاثة ضروب ، وأمرًا بالصرح عليها ، وهي أربعة أشياء بالتفاوت التفصيلي في المسموع منه الأذى ، واعلموا أن الصريح عليها من عزم الأمور.

وأما آية « لقمان » ، فأشير فيها بذلك إلى أربع حسال أمر بها لقمان ابنه، ذلك قوله (فبكيتُ أن كان لأسمى وأمر بالمعروف وأن أصلح علّي مأصبة ،) وتبعت بقوله : (إن ذلك من عزم الأموات ،) ، والأربعة في الآتيين من العدد القليل ، وآية « الشورى » فإذلاله فيها بقوله : (إن ذلك إلى أثني عشر مطلوباً من لدن قوله تعالى : فما أريثم من شيء فماتاع الحديث الذاتي ،) وهذا إشارة إلى التزه عن ذلك ، ثم قيل للذين آمنوا : (وعلينا ربيهم يتناقلون ،) فإشارة إلى الإيمان والترك الترمث ذلك ثم قال : (والذين يحضون كأباي المائة والفؤادين ،) فإذا ما غضبوا هم يغفرون ،) فهذه الترابات الثلاثة ، ثم قال : (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى ببيعهم وسمى رزقاهم يتقون ،) ، وهذه الترابات أربع ، ثم قال : (والذين إذا أصابهم البغي هم ينصرون ،) فأشار إلى أن هؤلاء لا يظلمون أحدًا ، وإن أصقى مايقعون منهم الاكتبار من يظلمهم ، وذلك مباح لهم غير فحيد ، وقد قيل بقوله : (وجراء سبب سنة يشيها ،) ، ثم عرف في حال أهل من ذلك وأعمر علماً فقال : (فمن عفة وأصلح فأجزوه علّي الله ) .

(1) لقمان آية : 17.
(2) الشورى آية : 36.
(3) الشورى آية : 36.
(4) الشورى آية : 37.
(5) الشورى آية : 38.
(6) الشورى آية : 39.
(7) الشورى آية : 40.
(8) الشورى آية : 40.
واعلم أنه مع علم هذا الملتزم أن المنصرم من بعد ظلمه ما عليه من سبيل، وإنما السبيل إما هو على ظالم الناس والباغين، وبعد هذه الخصائص التي تزيد على العشر وقال تعالى: «إن ذلک لمن عزم الأمور»، فإنساب كصة هذه الخصائص الجليلة زيادة اللام المؤكدة في قوله: «إن ذلک لمن عزم الأمور»، ولم يكن في الآتيين قبلها، فإنساب عدم زيادة اللام على أن ما ختمت به آية الشهور من قوله: «فمن غفٍّا وأصْلَح فَأَجْرُهُ عَلَيۡلَهُ»، وهي الخصلة الشاهدة بكمال الإسلام للمنصف بما، فلم لم يكن قبل قوله: «إن ذلک لمن عزم الأمور» غيرها لكي كانت بمعناها أعم من الخصائص المذكورة في آية «آل عمران»؟ إذ تلك الخصائص داخلة تحت هذه الخصائص الجليلة ومن منظورها، فإنساب ذلك آثم المناسبة، ولم يكن العكس ليناسب (1).

ومثل قوله تعالى: «وَذَٰلِكَ أُخْدِعَ اللَّهُ مُبَارَكَ الَّذِينَ أَوْثَانُوا الْكِتَابَ كَبِيرُّهُمْ لِلْنَّاسِ وَلَلْقَوْمِ الْبَارِزُونَ»، حيث أكذب بلام التوكيد، وهي لام القسم، وهي واقعة في حواب القسم، والتقدير والله لتبينه، ولاكتئمته، وإنما قال: «ولَوْ تَكُمْتُمْ»، ولم يقل: ولا تكنتمه؟ لأن الوالاو والجلال دون واو العطف، ومعنى: لتبينه للناس غير كافين (2).

١- قد يقول قائل: البيان يضاد الكفان، فلما أمر بالبيان كان الأمر به في حق عن الكفان، فما الفائدة في النهي عن الكفان؟ ويمكن الإيجاب عن ذلك بأن المراد بالبيان ذكر تلك الآيات الدالة على نبوة محمد من التوراة والإنجيل، والمراذ من النهي عن الكفان أن لا ينفر فيها التأويلات

(1) الشرعي آية: 43.
(2) الميخر: ملاك التأويل: 1 / 326 - 328.
(3) آل عمران آية: 187.
(4) النادر: التفسير الكبير: 9 / 130.

٢٢٨
الفاسدة والشهابات المعطال.

وَلَمْ تَكُنَّ الحَيَّةَ مِنَ الْعَالَمِ أَشْنِعَةٌ، وَكَانَ ذَكْرُ الْعَلَمِ دُونَ تَعْيِينِ الْمَعْلُومِ كَافِيَّ

في ذلك بين الفعل للمجهول في قوله: {أَوْتُوا الْكِتَابَ...} (1).

وَفِي قَولِهِ: {ٍثَلَاثِيَّةٍ لِّلْقَابِلِ} التفتات من الغيبة في قوله تعالى:

{وَأَذ أَخَذَ اللَّهُ مِثْلَ الْذِّيْنَ أَوْتُوا الْكِتَابَ...} إلى الخطاب في قوله:

{ثَلَاثِيَّةٍ}، ثم عاد إلى الغيبة، والفائدة من ذلك زيادة التسجيل المباشر عليهم.

والنذير: الطرح والالقاء، وهو هنا مستعمر لعدم العمل بالعهد؛ تشبهاً للعهد بالشيء المبود في عدم الانتفاع به.

{وَ...وَرَأَهُانَظُهُورَهُمْ...} تمثيل للإضاعة والإهمال؛ لأن شأن الشيء المهم به المتنافس فيه أن يجعل نصب العين، ويجبر، ويشاهد قَالَ تعالى: {قَبْلَهُ بَعْضُهُمْ مُّسْتَيْثِينَ...} (2)، وأن الشيء المرغووب عنه أن يستدير، ولا يلتفت إليه، وفي هذا تمثيل ترشيح لاستعارة النذير لإخفاء العهد (3).

الاختراق هنا بجار في المبادلة، والشهم القليل هو ما يأخذونه من الشيء والجواز من أهل الأهواء والظلم من الرؤساء وال العامة، على تأييد المظلم والمفسد بالتأويلات الباطلة، وتأويل كل حكم فيه ضرب على أيدي الجلباء والظلماء بما يطلق أيداهم في ظلم الرغبة من ضروب التأويلات الباطلة، وتذويب أن الذين يصدعون بتغيير المنكر، وهذه الآية وإن كانت في أهل الكتاب إلا أن حكمها يشمل من يرتكب مثل صنيعهم من المسلمين لاتحاذ جنس الحكم والعالة فيه.

وأما كان الشهم الذي اشتهروه خسارة لا ربح فيها أصلاً على العكس مما باذالوه

على أنه مهن، وكان الشهم إذا نض زال مظلمة الربيع منه؛ عبر عنه بقوله:

---

(1) انظر: نظام الذكر، ١٥١ / ٥.
(2) الظاهر آية، ٤٨.
(3) انظر: روح المعاني، ١٥٠؛ التحرير والتنوير، ٤٢ / ٤، ١٩٢.
»...فَمَا...»، وزاد بيان سلفهم بقوله: »...قَلِيلًا...«، أي: بالاستكانة مَن المال والاستثمار للرئاسة، فكانوا ما عندهم من العلم هذا النبي الكريم ﷺ، وعليه، وهذا يكون التنكر للتحقير.

٦. والمخصص بالذم في قوله تعالى: »...فَيْضُنَّ مَا يَشْتَرُونَ« مصطفى ﷺ، أي: ببس شيئاً يشترونه ذلك الثمن.

وبهذه النكبة أختم هذا البحث.
الفِحْشُ الثَّانِي
القُرْآنُ بَيْنَ التَّوْكِيدِ بِالْكَيْدِ
المبحث الثاني
التوكيد بالتكرار
من الصور التي يأتي عليها التوكيد "التكرار"، وهو بعبارة موجزة: الإثنيان بعناصر متضمنة في مواضع مختلفة من العمل الفني (1)، أو بعبارة أخرى: دلالة النشاط على المعنى مردية (2).
وكتيرة ما يشتهي التوكيد بالتكرار بالإطناب، والبتكويل أخرى، وقد أزال هذا الاشتباهة "ابن الأثير" رحمه الله، وذلك بأن أحق التكرار المفيد بالإطناب، ومن لم يكن مفيداً منه بالتكويل (3).
ويشير "ابن الأثير" إلى الغرض البلاغي من التكرار يقول: "الملفورد من التكرير يأتي في الكلام تأكيداً له، وتشييداً من أمره، وإذا أضف ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كررته كلامك إما مبالية في مده، أو في ذمه أو غير ذلك" (4).
فالتكرار إذا أسلوب من أساليب العربية، يؤدي لتأكيد القول، وتقرر المعنى، وتبنيه في الذهن، وذلك حينما يستلزم المقام ذلك، ويتقضي، وهو كذلك أساس الإيقاع جمع صورة، فنجده في عناصر الجمل جميع صورها، حيث يجد أساساً لنظرة التلفيقية في الشعر، وسر نباح الكثير من المحسنات البديعية في الشعر والنثر.
وإذا جاء التكرار في النظم من غير غرض يقتضيه، فإنه يسهم في قلة قيمته البلاغية، ويصبح تطويلًا معيبًا. وبالطبع فإن هذا النقصان في البلاغة يرد في كلام البشر. أما كلام الحق تبارك وتعالى، فهو منه عن ذلك، مرتفع عنه؛ لأنه وإن كان من جنس كلام العرب الذين نزل القرآن على سننهم، وبخروفهم، وعباراتهم،

(1) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: 117.
(2) المثل السائر: 3/7.
(3) المثل السائر: 394.
إلا أن المتكلم به الله سبحانه وتعالى، الذي أحاط بكل شيء علمًا، فسبيحانه من إلهٍ
عليه حكم: "ألفا يَبْتَغُونَ الْقُرآنَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، لَوْ جَدُوا فِيهِ احْتِيَافًا
كبَيرًا".1

يقول ابن الأثير: "وبالجملة فاعلم أن ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره؛ فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر، فتأعم نظرك فيه، فانظر إلى
سواقه ولواحقه؛ لتنكشف لك الفائدة منه".2

وستناول في هذا المبحث بعض الآيات التي جاءت على هذا الأسلوب البليغ،
وأعرض لبعض النكات التي جاءت من خلال تلك الآيات.

فمن ذلك قوله تعالى: "يَوْمَئِذَ كُلُّ نَفْسٍ مَا غَيْبَتْ مِنْ خَيْرٍ فَخَضَرَ وَمَا غَيْبَتْ مِنْ سُوءٍ تُؤْتُوْنَهَا وَمَا يَلْبِسُ كَمْ اللَّهُ نَفْسَهَا وَاللَّهُ رَعُوفٌ
بِالْعَبِيدِ".3

وقيل أن أعرض للتكرار في هذه الآية، لابد أن أبين أصل النظم في هذه الآية
الكرامة، وذلك لأن كثيراً من قراء كتاب الله يخفى عليهم معنى النظم في هذه الآية
الكرامة، وذلك بسبب التقللم والتأثير الذي اعتُرِى نظم هذه الآية الكرامة.

وأصل نظم هذه الآية الكرامة: "تود كل نفس لو أن بينها وبين ما عملت من
سوء أبداً بعيداً، يوم تجد ما عملت من خير محضرًا". فقد قسم طرفيه على عامله على
طريقة عربية مشهورة الاستعمال في أسماء الرمان، إذا كانت هي المصمودة من
الكلام، فضاءة لحق الإيجاز بندع بديع؛ ذلك أنه إذا كان اسم الرمان هو الأهم في
الغرض المسوغ له الكلام، وكان مع ذلك دفعاً لشيء من علاقته، جيء به منصوبًا
على الظرف، وجعل معين بعض ما يصل منه مصوغًا في صيغة فعل عامل

1) النساء آية: 82.
2) المثل السائر: 16.
3) آل عمران آية: 30.
في ذلك الظرف (١).

وكرر قوله تعالى : «...وَيَحْدِرُوكَمُ اللَّهُ نَفْسَهُ...» في هذه الآية مع سبب ذكره
في قوله : «لا يُقَلِّدُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلَئِهَا مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ
قَلِيسٌ مِنْ اللَّهِ فِي سِيَّةٍ إِلَّا أنْ يَتَّقُوا مِنْهُمْ ثَقَافَةٌ وَيَحْدِرُوْكَمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاِلَّيْهِ اللَّهُ
الْمَصِيرِ» (٢)؛ للتوكيد والتحريض على الخوف من الله، بحيث يكون مثلي أميره
وفيه، وكذلك لإفادة ما يقيده قوله عز وجل : «...وَاللَّهُ رَعُوْفٌ بِالْعَبَادِ» مـن أن
تحذيره تعالى من رأته بِهِ مـ، لا تمنع تحقيق ماجدهم مـ من عقابه، وأن تحذيره ليـس
ميـا على تناسم صفة الرأفة، بل هو متحـق مع تحـقـها أيضًا، كما في قوله تعالى :
»يَأْتِيهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكُرِيْمِ« (٣)؛ فالفجـلة على الأول اعتراض، وعلى
الثاني حال.

ويجوز أن يكون الأول تحذيرًا من مولاية الكافرين، والثاني تحذيرًا من أن يجدوا
يوم القيامة ما عملوا من سوء عبـض (٤).

١- والإظهـار موضع الإضمار في قوله تعالى : «...وَاللَّهُ رَعُوْفٌ بِالْعَبَادِ» مع
تقدم ذكره آنفـاً في قوله : «...وَيَحْدِرُوْكَمُ اللَّهُ نَفْسَهُ...» ؛ لتبينة المهاية.

٢- والتعريف في «...بِالْعَبَادِ» ؛ للاستغراق ؛ لأن رأفة الله شاملا لكل الناس
مسلمـهم وكافرـهم (وَلَوْ يَوْاَخَذَ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوْا مَا تَرَهَا عَلَى ظُهْرِهَا مِنْ
ذَاتِهِ...» (٥)، وما وعيدهم إلا جلب صالحهم، وما تضيده بعد قوات المقصود منه
إلا لصدق كلماته، وانتظام حكمته سبحانه.

---

(١) انظر: التحريـر والتنوـير : ٢ / ٢٢٣.
(٢) آل عمران آية : ٢٨.
(٣) الافتـكار آية : ٦.
(٥) فاطـر آية : ٤٥.
ولكن أن يجعل «آل» عوضًا عن المضاف إليه، أي: يعبده فيكونون بشارة للمؤمنين.(1)

3- وحذفت لفظة «..مُحَصِّرًا...» في قوله: «...ومَا غيِّلَت مِن سوء...»؛ للاقتصاص بقرينة ذكره في الأول في قوله: «يَوْمَ تَجْدَدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عُمِلَت مِن خَيْر مُحَصِّرًا...».

وهما يدخل تحت هذا البحث قوله تعالى: «وَيَعْلَمُهَا الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَالسُّوْرَاةُ وَالْإِجْرَاءِ وَرُسُوْلًا إِلَى بُني إِسْرَائِيلَ أَلِي قُدْ جَنَّتَوْا بَيْنَهَا مَن رَكَّبَ آتَى أَخْلَقْ لَكُم مِن الطَّيْنُ كَهْيَاتَ الْطِّرْقَ الْقَافِرَ فِيهِ فِي كَونَ طَيْرًا بِذَٰلِكَ الْلَّهُ وَأَبْرَارُ الْأَكْمَةَ وَالْأَطْرُصَ وَأَحْيَا النَّبِيِّ يَاذَٰلِكَ الْلَّهُ وَأَنِيبْنِي بِهَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلوْنَ فِي بُوتَكُمْ إِنْ فِي ذلِكَ نَزْيَةً لَكُمُوْنُ كُنْتُمْ مُوحَصِّرُونَ» (2)، حيث كرر الحق تبارك وتعالى في هذه الآية قوله: «بِذَٰلِكَ الْلَّهُ» ؛ دفعاً لِمُن يَتَوَسِّهِم الباطلة، وكان «بِذَٰلِكَ الْلَّهُ» عقب قوله: «آتُي أَخْلَقَ لَكُمْ...» وعطف عليه «وَأَبْرَارُ الْأَكْمَةَ وَالْأَطْرُصَ...»، ولم يذكر «بِذَٰلِكَ الْلَّهُ» ؛ أكفاء به في الأمور العظيمة، وعطف عليه «وَأَنِيبْنِي بِهَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلوْنَ فِي بُوتَكُمْ يَاذَٰلِكَ الْلَّهُ» ؛ لأن إحياء الأموات أعظم من الإخبار بالمعابدات، فأكفاء به في الأمور العظيمة أيضاً، فكل واحد من الخوارج الأعظمين قيد بقوله: «بِذَٰلِكَ الْلَّهُ» ؛ ولم يتجه إلى ذلك فيما عطف عليه؛ لأكفاء بالأول؛ إذ كل الخوارج لا يكون إلا ياذن الله.(3)

1- قوله تعالى: «وَيَعْلَمُهَا الْكِتَابُ...» قرأ «نافع» و«عاصم».

(1) انظر: التحريج: 36 / 244.
(2) آل عمران آية: 48, 49.
(3) انظر: البحر المجيد: 3 / 167; أنوار التزيل: 2 / 209.

230
القراءتين، فمعنى هذه الجملة أوجه:
أحدها: أنما معطوفة على «َينَبَّأَرُكَ...»، أي: «...إن الله يُبَّأِرُكَ...» بِكَلمَّةِ مَنْهُ...»، وبعدها ذلك المولد المعبر عنه بالكلمة.
الثاني: أنما معطوفة على «َيجْلَقَ...»، أي: «...كَذَلِكَ الله يَجْلَقُ مَا يَشَاء...»، ويُعْلَمُهُ...»، وهذان الوجهان ظاهران على قراءة الياء، وأما قراءة النون، فلا يظهران إلا بتأويل «اللَّفَاتَ» من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم إلزاماً بالغامتة والتعظيم.
2- والتعريف في «...الكتاب...» قد يكون للجمس، وقد يكون مراداً به العهد، والمعهد التوراة والإنجيل، والأنسب في هذا المقام الحمل على العهد؛ لكون عيسى عليه السلام جاء مصدرًا للتوراة، ولكون شريعته جاءت مفسدة للتوراة الذي جاءت منه، كما في قوله: «ومَضْمَدًا ليَمَا بَيْنَ يَدِي مِنَ الْتُّورَاةَ وَيَأْجُلُ لِكَمْ بِعَضَ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمَ».
3- وهنا يرد سؤال مفاده: لما ذكر الضمير في قوله: «...فَأَفْلَحَ فِيهِ...» مع أن مرجعه مؤتثت، وتأتيه في سورة «المائدة» في قوله: «...فَتَفْلُحِ فِيهَا...» من قوله: «قال الله تعالى إني مَرَّمْتُكَ اذْكُرِ نُعَمَيْنَ عَلَيْكَ وعلى وَلَدَيْكَ إن أَبْنَاتُكَ بُروج الفَدْس نَكْمُّثُ الناس في المهم وَكَذَا اذْعَلْنَكَ الْكَتَابَ وَالْحَكْمَةَ وَالْتُّورَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلِقُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ كَهِيْنَةَ الطَّيِّبِ فَتَفْلُحُ فِيهَا فَتَكُونَ طَيِّبًا بَيِّنًا...» وَكَبَرَ آخِرُ الْكَتَابِ وَتَأْرَصُ يَقِينًا إذ تخرج الموتى قذفاً إذ كَفَّفتُ بَيْنَ إِسْرَأَيْلٍ عَلَّكَ إذ جَنِنُوهُم بَيْنَ الْبَيْنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَّرُوا مِنْهُمْ إن هذا إلا سَحْرٌ مَّيِّنِينَ».
مع أن مرجعه واحد وهو مؤتثت؟

---
(2) آل عمران آية: 50.
(3) المائدة آية: 110.
ويمكن الإجابة عن هذا التساؤل في الآية التي نحن بصدد الحديث عنها أنه ما كان الكاف اسمًا معنى المثل صحيح أن يرجع إليه ضمير... فيه... ، والمعنى: فَأَنَفَخ
في مثل هيئة الطير، والضمير المجرور في سورة المائدة راجع إلى الكاف التي هُس صفة للهيئة المخلوقة لعبس الله ، لا إلى الهيئة التي أضيف إليها الكاف ؛ لأنها ليست
من خلقه ، ولا من نفخه في شيء.

فمن هذا التعليل علل كل من «الزمخشري»(1) ، «والرازي» ، الذي قال بعد إيضاد
هذا التوجيه: «إذا عرفت هذا فقولون: الكاف تونث بحسب المعين ؛ لدلالتها على
الهيئة، التي هي مثل هيئة الطير، وتأكيد بحسب الظاهر ، وإذا كان كذلك جُد أن
يقع الضمير عنها ثارة على وجه التذكر ، وأخرى على وجه التأنيث »(1).

وقد تابع «الزمخشري» في هذا المعنى «ابن الزبير» ، وذكر توجيها آخر مفاده
أنه ورد قبل ضمير آية «آل عمران» من لدن قوله تعالى: «...وما كنت لدُبُّهم إذ
بُلْغُونَ أقوالهم أمَّن يَكُفَّلُ مَرِيِّمً...»(2) إلى قوله: «...فَأَنْفَخَهُ فِيهِ...» عَـَا مـِن
عشرين ضميرًا من ضمائر المذكر ، فورد الضمير في قوله: «...فَأَنْفَخَهُ فِيهِ...»
ضمير مذكر ليناسب ما تقدمه ويشاكل الأكثر وروداً قبله(4).

وقد ذكر ابن هشام توجيه «الزمخشري» ، وقام بالاعتراض عليه بأنه لم
كان كما زعموا لسمع «مرت بكالأسد» يعني دخول حرف الجر عليها ، ولم
يسمع ذلك(5).

ويرى مكي القيسي أن الضمير في آية آل عمران عائد إلى الطير، وفي

---

(1) انظر: الكشاف : 1 / 362 / 1 وينظر: حاشية زاده : 1 / 162 / 140.
(2) التفسير الكبير : 116 / 1.
(3) آل عمران آية : 44.
(4) انظر: ملاك الطويل : 1 / 303.
(5) انظر: مغني الليب : 1 / 180.

237
سورة «المائدة» عائدة إلى الهيئة (1)، وهو قول وجهه.

والرأي – والله أعلم – أن هذه التوجهات لا بأس بها، ولكن الذي تطمئن له النفس هو توجهٌ إسناد الزير بثنائي، الذي سبق ذكره؛ لدقة تعليله. وبعده عن التكلف، الذي يلاحظ في بقية التوجهات الأخرى.

4- وخص «الكمه»، و«الترص» بالذكر في قوله: «... وأبرًا الأكمة والترص...» دون بقية الأقسام؛ لأهما دان معضلان، لا يقدر على الإبراء منهما إلا الله سبحانه وتعالى (2).

5- وتكرر (...آية...) من قوله: «...ألن قد جنتكم تاءة من رككم...» للتفحص، دون الوحدة؛ لظهور تعدد الآيات وكثرة.

6- وظاهر قوله تعالى: «...إن فح دلّك تاءة لَكُمْ إن كُنتُم مؤمنين» أنه من كلام نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام. استنادًا صبيغة صيغة الخبر، ومعنى التوبيخ والتفرقة، وأشير بذلك إلى ما تقدم من جهل الطين ثريًا، والإسراء، والإحياء، وإلقاء، والإشارة بالبعد لبيان بعد منزلتها وعظمتها (3).

7- ووجوه الشرط في قوله: «...إن كنتُم مؤمنين» محدود للعلم به، وتقديره: انتموا به، مما يدخل تحت هذا المبحث قوله تعالى: «...وتصدقوا لما بين يدَي من الت보고رة ويا أحل لكم بعض الله حرم عليكم وجيتكم باينة من رككم فاقلوا اللة وأطيعون» (4).

(1) انظر: مشكل إعراب القرآن: ١ / ٢٤٤.

(2) انظر: البحر المحيط: ٣ / ١٦٥.

(3) انظر: البحر المحيط: ٣ / ١٦٧.

(4) آل عمران آية: ٥٠.
حيث كرر قوله تعالى: 
«...وَجَنَّكُم بَآيَةً مِّن رَّبِّكُم...» تأكيداً لقوله 
الأول في الآية السابقة: 
«...آَلِي فَدَّ جَنَّتَكُم بَآيَةً مِّن رَّبِّكُم...»، وإفراز عطف هذا 
بالواو، لأنه أريد أن يكون من حجة المتقدمة، ويحصل التأكيد بمجير تقديم مضمونه، 
فتكون هذه الجملة اعتبارات يحيلها إلى حياة جملتين، وليبين عليها التقريع مبقله: 
«...فَأَتَلَّقَول اللّه وَأَطِيعُونَ»(1). 

١- قوله تعالى: 
«...وَلَأَحَلَّ لَكُم...» معطوف على مصدر تقديمه: 
لأخفف عنك أو نحذ ذلك، والخذف في مثل هذا الموضوع يريد النظم جمالاً ورونقً. 
وخفامة؛ بالإضافة إلى الاختصار والإيجاز الذي هو غرض من أعراض البلاغة، 
وهدف من أهدافها.

٢- ومن قوله: 
«...لِمَا بَيْنَ يَدِي...» ما تقدم قبلي لتأتي المتقدم السابق. 
يشمل بين يدي الجاني، فهو هنا تمثل لخالته السبق، وإن كان بينه وبين زوجته 
أزمنة طويلة؛ لأنها لم تصل العمل بها إلى جعيه؛ فكأنها لم تتبعه برمض طويل، 
ويعمل بين يدي كما في المشاهد الحاضر(2).

٣- وتأخير المفعول عن الجار والمجرور في قوله: 
«...وَلَأَحَلَّ لَكُمْ بَعْضَ...» لما مر من المبادرة إلى ذكر ما يسر المخاطبين، والتشويق إلى ما آخر.

٤- قوله تعالى: 
«...بَآيَةً...» وردت في مصحف ابن مسعود. "آيات" 
على الجمع، فمن أفرد أراد الجنس وهو صالح للقبل والكثير، ويعين المراد القرآن 
اللغظة والمعنى والحلال، ومن جمع فعلى الأصل، إذ هي: آيات، وهي آية في 
نفسها، أما أو كفرأ، فيحمل أن يكون تم صفة محدودة، حتى يجه التقريع هذا. 
الشرط، أي: لآية نافعة هادية لكم إن أنتم، ويكون خطاباً لمن لم يؤمن بعد، وإن

(1) انظر: التحرير والتدوين: 325 / 253. ٢٥٣.
(2) انظر: التحرير والتدوين: 325 / 253. ٢٥٣.
كان خطابًا عن آمن فذلك على سبيل الشبيبة، وتطمين النفس، وهربًا.

وأما يدخل تحت هذا البحث قوله تعالى: {قل آمنا بالله وما أئرل علینا وما أئرل على إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والابناء ومن أوتي موسى وعيسى والبيكين من ربه لا تفرق بين أحدهم ونحن له مسلمون ومن يتبغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}.

حيث كرر الإسلام في هذا النظام الرمزاني كبيرًا، حيث جاءت بلفظ {أسلم}، كما في قوله: {ولله أسلم من في السماوات والارض}، و{ومسلمون}، كما في قوله تعالى: {وتحن لبكم}، و{ولله المسلمون}، كما في قوله تعالى: {ومن يتبغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه}.

1- وفي ترتيب الرد والخسارة على مجرد الطلب؛ دلالة على أن حال من تدين بغير الإسلام، واطمأن بذلك أقطع وأقبح، واستدل به على أن الإمام هو الإسلام؛ إذا لو كان غيره لم يقبل.

2- وقوله تعالى: {ومن يتبغ غير الإسلام}، علّف على حملة {أفيض دين الله يعوون}، وما بينهما اعتراض، وفائدة هذا الاعتراض تأسيس أهل الكتاب من النجاة في الآخرة، ورد لفظهم عن ملة إبراهيم، فنحن ناحون على كل حال.

---

(1) انظر: البحر المجنيح : 3 / 167.
(2) آل عمران آثما : 84، 85.
(3) آل عمران آثما : 83.
(4) انظر: تفسير الدير : 4 / 475.
(5) انظر: التحري والتشويق : 3 / 302، 303.
٣ ووحد الحق تبارك وتعالي الضمير في قوله: «قل.....»، وجمع في قوله: 
«...أنتِ...»؛ لاعتبارات ثلاثة:
الأول: أنه تعالى حين حاطب نبيه ﷺ إذا حاطبه بلطف الوحدان، وعلمه أنه حين يخاطب القوم يخاطبهم بلطف الجمع على وجه التعظيم والتفخيم مثل ما يتكلّم الملوك والعظام.
والثاني: أنه حاطبه أولاً يخاطب الوحدان، ليدل هذا الكلام على أنه لا ملبس لهذا التكليف من الله إلى الخلق إلا هو، ثم قال: «...أنتِ...»؛ تنبه عليه أنته حين يقول هذا القول، فإن أصحابه يوافقون عليه.
الثالث: أنه تعالى عينه في هذا التكليف بقوله: «قل...»؛ لظهور بنه كونه مصدرًا لما معهم، ثم قال: «...أنتِ...»؛ تنبهًا على أن هذا التكليف ليس مصنوعًا عليه، بل هو لأIRM لكل المؤمنين. ١

٤ وعدي «...أنتِ...» في هذه الآية بحرف الاستعارة «...عليه...»، وفيما تقدم منها في سورة «البقرة» في قوله: «قولوا آمنًا بالله وَمَا أنتِ إلَّي أن نَّكُون نَّفْسًا آنِئَل إِلَى إِبْراهِيم»؛ يحرف الانتهاء لوجود المعنيين جميعًا، لأن الوحي ينزل من فوق، ويستني إلى الرسول، فتجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر، ومن قال: «فإنما قيل: «...عليه...»»; يقوله: «قولوا»، و«...إليته...» يقوله: «قولوا»، تفرقة بين الرسول والمؤمنين، لأن الرسول يأتنه الوحي على طريق الاستعارة، وأنهم على وجه الانتهاء، فقد تعسف ألا ترى إلى قوله: «إذا أُنزّلت الإِلَهُ الْكِتَابُ بِالْحَقّ، لِتَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَوْرَكَ اللَّهُ وَلَا تَكَنْ يَلَعَانِيَينَ خَصِيبًا». ٢

---

١ أنظر: التفسير الكبير: ٨ / ١٢٤.
٢ البقرة آية: ١٣٦.
٣ النساء آية: ١٠٥.
4 - وقدم المنزل عليه عليه السلام عليه السلام؛ لأنه المعروف له، أو لعظيمه واعتنائه به (1).

5 - وما كان النظر هنا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر كوكباً سورة التوحيد الذي هو أحق به، وأغرق فيه وأكثر الناس معرفته به، نسب الإعراض عن التأكيد بما في البقرة، ونظر إلى الكل منهما واحدًا فقال: »,والنبيون«، أي: كافأ من الوحي والمعجزات؛ ليكون الإيمان بال المنزل مذكورًا مترين لشرفه (2).

6 - وفي قوله تعالى: »لا تفرج بين أحد من أهله« تعريض باليهود والنصارى الذين يفرقون بين أبناء الله ورسله عليهم السلام مع أن الإيمان بواحد منهم يقتضي الإيمان بالجميع، والؤمن يقتضي محققاً وهو المعتصم، وتقديره لا نفرق بين أحد وآخر.

7 - قوله: »وَتَحْنُونَ لَهُ مُسْلِمُونَ« يفيد الحصر، أي: إسلامنا لله تعالى لا لسوا.

وهما يدخلون تحت هذا المبحث قوله تعالى: »إن الذين اشتروا الكفر بإيمان يبيعوا الله شيئًا ولهما عذاب أليم« (3).

حيث تكرر قوله تعالى: »لا تنفر بين أحد من أهله« في هذه الآية الكرامة والنبي نزلها، قصد به بالإضافة إلى التأكيد إفاده هذا الخبر استقبالًا للاهتمام به، بعد أن ذكر على وجه التعليل؛ لتبليه الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي اختلاف الصليتين إما إلى أن مضمون كل صلة فيما هو سبب الخبر الثابت لغرضها، وتأكيد لقوله تعالى: 

(1) أنظر: أنوار النور: 69; إرشاد العقل السليم: 465; روح المعاني: 3.
(2) أنظر: نظم الدرر: 104.
(3) آل عمران آية: 177.

...إنهم لن يضروا الله...»(1) المتقدم، مع زيادة بيان اشتهارهم مضمون الأصلة(1).

١—والاشتراك مستعار للاستبدال على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وهذه الآية الكريمة، وهذه اللطيفة من لطائف النظم الكريم أعظم هذا البحث.

(١) آل عمران آية : ١٧٦.
المبحث الثالث:
القصر وطرقة
المبحث الثالث
القصر وطريقه

القصر فن يمتاز بالإيجاز والتملك، وهو من الفنون المحكمة الدقيقة، التي تعمّل
الأسلوب مصورةً قويًا يحوي إلى القارئ معانًا تبًا

جاءفي "مقاييس اللغة" لأحمد بن فارس: القاف والصاد والإراء، أصلان
صحيحان، أماهما يدل على ألا يبلغ الشيء مداه وفياته، والآخر عليّ الحبص،
والأصول منقاربين.

فالأول القصر خلاف الطول، تقول: هو قصير بين القصر... والقصر: قصر
المادة، وهو ألا يلزم لأجل السفر. قال تعالى: "فَلَا يُقَصَّرُ عَلَيْكُمْ جَنَاحٌ أَلَّا تَقْثُضُوا
من الصلاة إن خفتم أن يقتيم الذين كفروا".(1)

والآخر الآخر: وهو قلنا إما متقارب، القصر الحبص. يقال: قصرته إذا
حبسه، وهو مقصور، أي: محدود. قال تعالى: "جَعَّلْتُ مَقَاضِيْرَاتٍ فِي
الْحَيَاةِ".(2)

وعلى ذلك: فالآخر الثاني وهو ما ذهب إليه البلاطيون لتحقيق معناه في
قصر: إذ إن بيض يضيء شيء معناه: حبس شيء على شيء، أي: حبس
صفة على موصوف، أو موصوف على صفة.

والمراد بالصفة: الصفة المعنوية، وهي المعنى القائم بالغير المقابل بالذات، سواء
دلى عليه بلفظ النبت النجوي المعروف "أي التابع الذي يدل على معنى في مبوعه
كلفظ قائم، أو بغيره. كما فعل خو: "ما محمد إلا يكتب"، وليس المراد النبت

(1) النساء آية: 101.
(2) الرحمون آية: 72. وينظر: معاني القرآن للفارعي: 120/98.
(3) معجم مفاسد اللغة: 2/96-97.
النحوية

أما القصر في الاصطلاح؛ فقد تلاقت نظرية البلاغيين على أنه تخصيص شنيء بشيء بطريقة مخصوصة

والقصور والقصور عليه كما طرفا القصر، والمراة من قولهم: تخصيص شنيء بشيء: تخصيص موصوف بصورة، أو صفة موصوف.

يقول الدسوقي: «التخصيص يتضمن مطلق النسبة المستلزمة لمسوب ومنسوب إليه؛ فإن كان المخصص مرسوبًا؛ فهو الصفة، وإن كان منسوبًا إليه؛ فهو الموصوف، والمراة بتخصيص الشيء بالشيء الإيحاء بالثواب الشيء التالي للشيء الأول دون غيره».

فالقصر مطلقًا يستلزم النفي والاثبات.

القصر: اختلاط الظلام، ولا يبعد أن يكون التقبل منه؛ لأن في القصر الاصطلاحي اختلاط الحكم الإيجابي بالحكم السلبي.

وعله الإمام عبد القاهر هو أول من تحدث عن أساليب القصر حديثًا بلاغيًا فقد عرض له في كتابه القيم دلائل الإعجاز، وهو بصدود الحديث عن إن إذا اتصلت بها ما، فنقل عن أبي علي الفارسي قوله في الشعرات: أن ناسسًا من النحوين يقولون في قوله تعالى: قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر مثنا وما بطن، إن المعين: ما حرم ربي إلا الفواحش، أي: أن إنما يمعين

---

2. أنظر: شروح النحوي: 2 / 166، ملاحظات البلاغية: 2 / 137.
3. أنظر: شروح النحوي: 2 / 166.
5. الأعراف آية: 33.
ونقل الشيخ أيضاً ما استدل به «أبو علي الفارسي» على صحة قول النحوين، وعليه يقول: «لم يعْنِوا بذلك أن المعنى في هذا هو المعنى في ذلك بعينه، وان سبيلهما سبيل اللطفيين بوضعان لمعنى واحد، وفرق بين أن يكون في الشيء معين الشيء، وبين أن يكون الشيء الشيء على الإطلاق، فليس كل كلام يصح فيه «ما وإلا»، يصلح فيه «إما»، إلا ترى أن «إما» لا تصلح في مثل قوله: «وما من النّزى إلا الله»، ولا في نحو قولنا: ما أحد إلا وهو يقول ذلك - إذ لو قلت إما من إله الله، وإما أحد، وهو يقول ذلك، قلت ما لا يكون له معنى، وسبب ذلك أن فظ أحداً لا يقع إلا في النفي، وما يجري بجرى النفي - النفي والاستفهام، وأن من النزيه في وما من إله إلا الله، لاتكون إلا في النفي، وهذا دليل على أن «ما وإلا» وكما ليسا سواء؛ لأنهما لو كانا سواء، لكان ينبغي أن يكون في إما من النفي مثل ما يكون في «ما وإلا»، فنما يقال: «ما هو إلا درهم لا دينار»؟ لأن لا النافية لا تجامع النفي والاستثناء.

ثم مضى الشيخ «عبدالقاهر» يفصل قول في إما، فوضع مواضعها، وكذلك ما وإلا، وطريق العطف، والتقدم وغير ذلك، وتراه يحلم الأمثلة، وكمير الفرق بينها، كل ذلك بنون بلاغة دقيق، ثم جاء البلاغين بعدده فسهموا منهاه، وحاددوا القصر وقساموه، ولا زالت ألسنتهم تلهج بجدد إلى أن يشاء الله.

أما جار الله الرحمشري، فقد أطلق على ما يشبه الشيخ «عبد القاهر» اسم القصر، وقد تردد هذا المصطلح في مواضع كثيرة من الكشاف منها قوله في

(1) البلاطة تطور وتاريخ: ١٨٣ ١٦٢ فإن البلاطة: ١٦٢ ١٦٣ .
(2) آل عمران: ٦٢ .

ومنه انتقل هذا المصلح إلى «أي يعقوب السكاكي»، ومدرسته البلاغية، حيث أخذوا به، فنجد في كتابه «مفتاح العلم» يطلق على هذا الفن البلاغي مصطلح «القصر»، ويقول في ترجمته: «حاصل معنى القصر راجع إلى تخصيص المصوشف عند السامع بوصف دون ثان، كقولك: زيد شاعر لا منجم» لم نعتقده شاعراً، ومنجماً(3).

ويغلب على الظن أن «السكاكي» هو أول من أطلق هذا الأسم على مباحث القصر.

وكذ لأدقص «السكاكي» القصر في طرقة التالية: «النفي والاستثناء، وإنما، وتقديم ما حقه التأخير، والعطف بكل من لا، وبل، ولكن»(4)، وأضاف بعض البلاغيين طريقين آخرين هما: «ضمير الفصل، وتعريف ركين الجملة»، وهذا الطريق خاصان بالمسند، والمسمد إليه.

وطرق القصر كثيرة أوصلها السيوطي إلى أربعة عشر طريقًا(5) غير الطريق المتخفٍ عليها، ولكن هذا لم يلق رواجاً بين جمهور البلاغيين، بل نراه أضرباً عن ذكر هذه الطرق صفاً، واكتفوا بذكر الطرق الأربعة؛ لأنها دون غيرها في كوفها ثريّة.

---

(1) البقرة آية: 11
(2) السياق: 2 / 62
(3) مفتاح العلم: 288
(4) المفسر: مفتاح العلم: 288، وما بعدها
(5) انظر: الإتقان: 150 / 3
بالملاحظات والاعتبارات، التي تحتاج من الدارس إلى مزيد من العناية والاهتمام،
كى يقف عليها، ويكشف ما وراء هذه الطرق من معان وأسرار.
والقرآن الكريم غني بأساليب القصر، فقد وردت فيه جميع طرقه: «النفي»
والأستثناء، وإما «النقي»، والعريف، وتعريف ركبي الجملة، وتعريف بمضمار
الفصل»، ولكن طريق من هذه الطرق دلالة مختلفة عن دلالة الطرق الأخرى.
ولذلك يتجد القرآن الكريم يؤثر أساليباً منها في موضوع على بقية الأساليب الأخرى.
ولأن هذا الموضوع يقتضي هذا الأسلوب دون سواه، وهذا ما نراه في أساليب القصير
في سورة «آل عمران» التي سأعرض لبعض أساليب القصير في أياها مرتبة حسب
طريقها.

أولاً: طريق النفي والاستثناء:

من طريق القصير الذي جاءت عليها آيات هذه السورة طريق النفي والاستثناء،
وهذا الطريق من أبلغ طرق القصر وأقواها؛ ولذا درج القرآن الكريم على إبراده في
موقف الرد على المكذبين والطاعنين ومنكري آلوهية الله سبحانه وتعالى ورسالة سيدنا
محمد ﷺ. وهذا الطريق يقتضي أن تشمل الجملة على أدوات إحداها للنفي والأخرى
للاستثناء، وهذا هو قول جمهور البلاغيين دون من خالفهم كالمسكك رحمه الله
الذي يرى وقوعه أيضاً في الكلام الموجب، ويتعلق له يقوله: «قام الناس إلا
زيد» (1).

ومن الآيات التي جاءت على هذا الأسلوب في هذه السورة قوله تعالى: «اللّهُ
لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ الْقَيْمُ» (2).

فالآية الكريمة قصصت الآلوهية على الله سبحانه وتعالى، فالألوهية صفة، وهي

(1) انظر: عروس الأفراح: 191.2.
(2) آل عمران آية: 2.
مقصور في هو الأَحْيَىُ الْقُيُومُ موصوف ومقصور عليه، وهذا القصير حقيقي، فالألوهيَة الحقة لله سبحانه وتعالى، لا يمارى في ذلك أحد، حتى إن كفبار مكة على كفرهم وشركهم كانوا يقررون بألوهية الله وحده، وإنما كان التفاؤل إلى أصنامهم، فلكي تقرموا إلى الله وキンى يقول تعالى: (ما أعبدهم إلا لل قريبون إلى الله ولونى) (1).

وأما جاء على هذا الطريق أيضًا، قوله تعالى: (هو الذي يص وُرَكُم فِي الأَرْحَام كَأَنفُضَتْ نا إِلَّا إِنَّ هَوَ الأَعْزِيُ الْحَكِيمُ) (2).

حيث اشتملت هذه الآية الكريمَة على وجازما على أسلوبين، أو طريقين من طريق القصر:

أولهما: في قوله تعالى: (لا إِلَه إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، حيث جاء القصير بطرق النفي والاستثناء، حيث قصرت الألوهية في هذا الأسلوب على الحق سبحانه.

وعلالي، وهو قصر حقيقي حقيقي.

وبما كان المقام مقيم إثبات الألوهية لله وحده تكرر قوله تعالى: (هو...لا إِلَه إِلَّا هُوَ الْحَيُ الْقُيُومُ) (2)، وللدلالة على نفي الإلهية عن غيره تعالى، وأخصى فيها سبحانه وتعالى، توكيداً لما قبلها من قوله في أول السورة: (اللهُ لا إِلَه إِلَّا هُوَ الْحَيُ الْقُيُومُ) (3)، وردًا على من ادعى إلهية عصي القلعة، وناسب جهيبها بعد الوصفين السابقين من العلم والقدرة، إذ من هذا الوصفان له هو المنصف بالإلهية لا غيره.

وفي افتتاح السنة هذه الآيات التي منها هذه الآية الكريمَة براععة استهلال:

لتروها في مبادلة نصارى مهاران، والتي كانت تتأثر هذه السنة الكريمَة.

(1) الزمر آية: 3.
(2) آل عمران آية: 6.
(3) آل عمران آية: 2.
وللتقريع المخالفين من النصارى وغيرهم من المعاندين، نلاحظ أن العلماء الحكيمون سبحنوا وتعالية صرف الخطاب إلى الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوْرُكُمْ...﴾; وذلك لبعضهم تشبههم على ماهما في نظر المصور لهم على ماهما أو جهدهم عليه ما يشبهه، ولا يقيقونه، فقالوا: ﴿...يُصَوْرُكُمْ...﴾، أي: بعد أن كتمت نفاثةٌ.

قَالُوا: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوْرُكُمْ...﴾، والنصر هذا مفاد ممن تعريف الجرائين: المبتدأ، والخبر، أو المندب، والمسند إليه، حيث قصر صفة التصوير على الحق بbaar وتعالى، وهو نصر حقيقي؛ لأنه كذلك في الواقع؛ إذ هو مكروه أسباب ذلك التصوير، وهذا إما إلى كشف شبهة النصارى؛ إذ توجهوا أن خلقه سبحانه عسبه عيبه، بدون ماء أو دليل على أنه كثيف غير بشر، وأنه إله تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، بتهمة أن التصوير في الأرحام، وإن اختلفت كيمياءه لا يخرج عن كونه حقيقةً لما كان معدوماً، فكيف يكون ذلك المخلوق المصور في الأرحام إذاً!؟

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ إِلاَّ هُوَ وَأَحَدُ الْمَلَائِكَةُ وَأَوْلَاهُ الْعِلْمُ قَانِِبًا بِالْغِنْسِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(3).

حيث جاء إثبات الوحدانية في الآية، بأسلوب القطر بطرق النفي والاستثناء، وهذا الطريق كما عند البلاطيين من أقوى طرق القصر - كما أسفلت –؛ ولذا نرى الجبر سبحانه كثيراً ما يوجد هذا الطريق في إثبات كثير من الفضائل العقدية، وفي تنفيذ كثير من حجج أهل الصلح، أضحى إلى ذلك أن المصور والنصر عليه في هذا الأسلوب، يكون واضحاً غاية الوضوح لأمرية فيه ولأجداول، كما في هذه

---

(2) انظر: نظام الدور: 120 / 4
(3) آل عمران آية: 18

٢٥١
الآية الكريمة، فقد أثبت الحق سبحانه الألوهية وقصرا على نفسه قضاءً حقيقبًا
تحقيقيًا.
وقدمت الملائكة على أولي العلم؛ لأن فهم من هو واسطة؛ لإفادة العلم إلى
ذويه، وهم الرسل عليهم السلام، أو لأن علمهم كله ضروري، بخلاف البشر،
فإن علمهم ضروري وواكسابي.
وأعاد الحق سبحانه وتعالى قوله: «...لا إله إلا هوَ العزيز الحكيم» مرة
أخرى في هذا السياق لوجود:
النالأول: أن تقدير الآية الكريمة: «أشهد الله أنه لا إله إلا هو»، وإذا شهد
بذلك، فقد صح أنه «لا إله إلا هو»، ونظره قول من يقول: الدليل على وحدانية
الله تعالى، ومن كان كذلك صحب القول بوحدانية الله.
والثاني: أنه تعالى لما أخبر أن الله شهد أنه «لا إله إلا هو»، وشهدت الملائكة
وأول العلم بذلك، صار التقدير كأنه قال: يا أمة محمد قلوا أتم على وفق شهادة
الله، وشهدت الملائكة، وأول العلم «لا إله إلا الله»، فكان الغرض من الإعادة
الأمر بذكر الكلمة على وفق تلك الشهادات.
والثالث: فائدة التكرار: الإعلام بأن المسلم يجب أن يكون أبداً في تكرير هذه
الكلمة، فإن أشرف كلمة يذكرها الإنسان هي هذه الكلمة، فإذا كان في أكثر
الأوقات مشغولاً بذكرها وتكريها، كان مشغولاً بأعظم أنواع العبادات، فكان
غرض من التكرار في هذه الآية حث العباد على تكريرها.
والرايغ: ذكرت العبارة أولًا ليعلم أنه لا يستحق العبادة إلا الله تعالى،
وذكرت ثانية ليعلم أنه القائم بالفقط لا يجوز ولا يظلم (1).

(1) انظر: التفسير الكبير: 707.

٢٥٢
وما يبدع تحت هذا المعين قوله تعالى: "إن هذا نهر القصص الحق وما من إله إلا الله و إن الله و هو المتعال الحكيم فإن تولوا فإن الله عليم بجميع منسوبيين" (1)

حيث قصرفت الآية الكريمه الألوهية على الله سبحانه وتعالى بهذا الطريق، وهو طريق النفي والاستثناء في قوله: "وما من إله إلا الله"، على سبيل القصر الحقيقي التحققي، فالآلوهية لله لاتعداء لنفه، وصرفها لغيره شر شديد للعمل، وتعالى الذات العلية.

ومما يدخل تحت هذا الأسلوب كذلك قوله تعالى: "يأهلها الذين آمنوا القصوا الله حق حقته و لا تقوم إلا وهم مسلمون" (2)

ومن ينظر في ظاهر النظم الكريم، يلاحظ أنه جاء على أسلوب القصر بالنفي والاستثناء، وهذا النظم وإن كان هياً عن الموت المفيد بيده هو الكون على أي حال من غير حال الإسلام، لكن المقصود هو النهي عن ذلك القدر عند الموت المستترزم للأمر بضده، الذي هو الكون على حال الإسلام حينئذ، وحيث كان الخطاب للمؤمنين، كان المراد إجابة الشروع على الإسلام إلى الموت، وتوجهه إلى الموت للمبالغة في النهي عن قيده المذكور، فإن النهي عن المفيد في أمثاله هي عن القيد، ورفع له من أصله بالكلية، مفيد لما لا يفيده النهي عن نفس القيد، ولذل ذكره فإن قوله: "لاتصل إلا وانت خاطع"، يفيد من المبالغة في إجابة الخشوع في الصلاة ما لا يفيده قوله: "لا ترك الخشوع في الصلاة" لما أن هذا خبي عن ترك الخشوع فقط، وذلك في نفسه، وعما يقارنه ومنفده لكون الخشوع هو العمدة في الصلاة، وأن الصلاة بدونه حقها أن لا تفعل، وفيه نوع تحذير عمداً وراء الموت (3)

---

(1) آل عمران آية 63-62.
(2) آل عمران: 102.
ومن بندجو تحت هذا الطريق أيضاً قوله تعالى: { وَمَا مَحَمَّدَ إِلَّا رَسُولٌ ۛ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفْوَانُ مَاتٍ أَوْ قَيْسُ الْقَلَبِ ۛ عَلَى أَعْمَابَكُمْ ۛ وَمَنْ يَتَقَلِّبُ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنَّ يُضَرُّ اللَّهُ بِهِ ۚ وَسَيَجْرِي اللَّهُ الَّذِينَ الشَّاكِرِينَ } (1)

حيث قصر النبي أمي محمدٍ عليه صفة الرسالة قصر موصوف، ووصف الرسالة قصر موصوف، ووصف الرسالة قصر موصوف، ووصف الرسالة قصر موصوف

والطاهر أن جملة { قد خلت من قبله الرسل } صفة لـ { الرسول } فتكون هي محط القصر، أي: ما هو إلا رسول موصوف بخول الرسول قبله، أي: هلاكم.

وهذا الكلام مسوق لرد اعتقاد من يعتقد انتفاء خلو الرسول من قبله، وهذا الاعتقاد وإن لم يكن حاضلاً لأخذ من المحافظين، إلا أنهما صدر عنهم ما من شأنه أن يكون أثراً لهذا الاعتقاد، وهو عمومهم على ترك نصرة الدين والاستسلام للعدو، كانوا أحر ماء بأن ينزلوا منزلة من يعتقد انتفاء خلو الرسول من قبله، حيث يجدون أتباعهم ثابتين على مللهم حتى الآن فكان حال المحافظين خال من يتهم النصارى بين بقاء الملة، وبناء روساهم، فإذا هلك رسول ملة ظنئاه انتهاء شرعه، وإبطال اتباعه.

والقصر على هذا الوجه قصر قلب، وهو قلب اعتقادهم لوازم ضد الصفة المقصورة عليها، وهي خلو الرسول قبله، ولكل الـلاوام شيء من الأوهام والسرد في الاستمرار على نشر دعوة الإسلام، وهذا ما يشعر به كلام { الزمخشري } (2).

بينما جعل { السكاكي } المقصور عليه هو وصف الرسالة، فيكون محط القصر

(1) آل عمران آية 144
(2) انظر: الكشف 423 / 1
هو قوله: "...رَسُولُ..." دون قوله: "...فَخَلَتْ مِنْ قُبْلِهِ الرَّسُولُ..."،

ويكون القصر قصر إفراد، تنزييل المخاطبين منزلة من اعتقد وصفه بالرسالة مع التنوید
عن الهلال حين رتبوا على ظن موته ظناً لا يفرضها إلا من يعتقد عصمتـه~ من
الموت، ويكون قوله: "...فَخَلَتْ مِنْ قُبْلِهِ الرَّسُولُ..." على هذا الووجه ؛
استناداً لا صفة(1) فيه بعد، وذلك لأن المخاطبين؛ لم يصدر عنهم ما يقتضي
استبعاد موهته بآبي وامي، بل هم ظوه صدفًا.

وعلى كلا التوجيهين فقد نزل المخاطبين منزلة من يجهل قصر الموصوف على
الصفة، وبنكره، فلذلك خووطوا بطرق "النفي والاستناء"، الذي كثر استعماله
في خطاب من يجهل الحكم المقصور عليه وبنكره، دون طريق "إذا"(2).

قد يقول قائل هنا: لم ذكر القتل، وقد علم أنه لا يقتل؟

ويجب عن هذا التساؤل: بأن ذكر القتل هنا؛ لكونه موجزاً عند المخاطبين .

ولكن لم قدم تقدير الموت على تقدير القتل مع أن تقدير القتل هو الذي ثارت
منه الفتنة، وعظم فيه أمر المنحة(3).

ويجب عن هذا أيضاً بأن تقدير الموت على القتل هـ؛ لأن الوصف
الجامع بينه وبين الرسل عليه وعليهم السلام هو الخلو بالمول دون القتل(4).

ومن ينظر في النظم القرآني هنا، يلمح أنه قد أنكر على المخاطبين في هذا
السياق مرتين الأولى بالتعريض بجملة القصر، والأخيرة في البصريه الواقع في قولهـ
تعالى: "...فَأَفْعَلْنِي مَا أَنْتَ فِيِ اللَّهِ عَلَى أَعْقَابِكَ...".

\(1\) انظر: مفتاح العلوم: 289.
\(3\) انظر: الكشف: 1/ 423، إرشاد العقل السليم: 2/ 96، 92، 93.

255
فقوله: «وَمَنْ يُغَفِّرُ الْذَّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ».
وَكَمْ يُعَجِّشُونَ
أوْ ظَلَّمُوا أَفْسَهُمْ ذَكَّرُوا اللَّهَ فَعَافَغَهُمْ وَمَنْ يُغَفِّرُ الْذَّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُعَجِّشُونَ
يُصِرُّوا عَلَّى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْمَونَ»(1).

وَلِمَا يَنْبَذُوكَ تَحْتَ هَذَا الْطَّرِيقِ أيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالْذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحْشَاءً أوْ ظَلَّمُوا أَفْسَهُمْ ذَكَّرُوا اللَّهَ فَعَافَغَهُمْ وَمَنْ يُغَفِّرُ الْذَّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُعَجِّشُونَ»(2).

فَمَا يُغَفِّرُ الْذَّنُوبَ، إِلَّا اللَّهُ...» جَاءَ عَلَى هَذِهِ الْأَسْلَوبِ، أَيْ:

أَسْلَوبُ الْقُسْرُ بالْنَفْسِيَّةِ وَالْإِسْتِنْتِشَأَةِ، حَيْثَ فَقُضَتُ الْمَغْفِرَةُ فِي اللَّهِ سَيِّبِحَانِهُ وَتَعَالَى،
وَقَسَرَهَا عَلَيْهِ؛ إِلَّا بَعْضُهَا إِلَّا كَيْفُهَا وَفَضْلُهَا، وَذَلِكَ أَنْ مَنْ
وَسَعَتْ رَحْمَتَهَا كَلْ شَيْءٍ، لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِي نَشَرُهَا ؛ كَرَّهَا وَفَضْلُهَا، فَهُوَ قَسْرُ
حَقِيقِيَّةٌ، فَمَغْفِرَةُ الْذَّنُوبِ وَالْتَجْازِؤُ عَنَّهَا مَرَّةً إِلَى اللَّهِ سَيِّبِحَانِهُ وَتَعَالَى، وَإِنْ كَانَ
هَذَا مَكَرُورًا كَالْوَضْوُوءِ وَالْصَّلَاةِ وَغَيْرَهَا مِنَ الْفَرَائِضِ وَالْنَّوْعَالِ، وَلَكِنْ لَا يُغَفِّرُ
الْذَّنُوبُ وَتَكْمِرُهَا إِسْتِقْلَالًا، وَلِكَانَ بِذَاذِنَّهُ الْقَيْمَ سَيِّبِحَانِهُ وَتَعَالَى، فِي كَانُ مُرْدَ
الْمَغْفِرَةِ اللَّهُ، فَتَكُونُ مَحْصُورَةً فِي سَيِّبِحَانِهِ وَتَعَالَى، وَالْتَعْبِيرُ بِالْإِسْتِفْهَامِ فِي مَكَانِ النَّفْسِ
يَجْرِكُ الْمِشَاعِرَ، وَيَفْتَدُّ الإِنْيَكُ بِمَا يُتَضَمِّنُهُ مِنَ الدَّلَّالَةِ عَلَى أَنْ مَلْحِظُهُ بِذَلِكَ دَونَ
غَيْرِهِ، أَيْ: لَا يُغَفِّرُ جَنْسُ الْذَّنُوبِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَهَذَا الْأَسْلَوبُ تَحَسُّ فِيهِ الْبَيْظَابٌ
لِتَلَبِّيَ الْمَغْفِرَةَ مِنَ اللَّهِ عِزٌّ وَجِلَّ، عِنُبَّةُ الْجَاهِزَةِ لِلْمَلَكَيْنِ، أَنْ يَقْفُوا فِي مَوَافِكَةِ
الْعَدْوَةِ وَالْمَنْتَزِلَةِ لِخَالِقِهِمْ، طَوْسَأً فِي النَّوْعَةِ وَالْمَغْفِرَةِ
وَإِنْ يَرْكَبُ هَذَا الْتَرْكِيبُ عَلَى صَيْغَةِ الإِنْسَاءِ دَوَانَ الإِخْبَارِ، حَيْثَ لَا يَقْلُ:
» وَمَا يُغَفِّرُ الْذَّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ، تَقْرِيرُ لَهُ الْمَعْنَى، وَتَأكِيدُ لَهُ، كَانَّهُ قَلِيلًا: هُلْ
تَعْرُفُونَ أَحَدًا يُقْدِرُ عَلَى مَغْفِرَةِ الْذَّنُوبِ كَلِمَةً صَغِيرَةً وَكَبِيرَةً، دَقِيقَةً وَجَلِيلَةً،
كَجَا عِنْدَ الْحُفْرَةِ الرَّحْمَٰنِ(3).

وَمِنْهُ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا كَانَ قُولُهُمْ إِلَّا أنَّهُمْ قُلُوْبُأَنَا إِغْفِرْ لَنا ذُنُوبَناً.»

(1) أَلْ عَمَّانَ آيَةً: ١٣٥.
(2) أَنْظُرُ رَجُلَ المَعَانِي: ٣١ / ٤٣.
(3) الْحُفْرَةِ الرَّحْمَٰنِ: ٥ / ٩٣.
واسرعنا في أمرنا وثبت أقدامنا واصرنا على القوم الكافرين

حيث أن هذا بالقصر في قوله تعالى: "ومما كان قولهم بل بريق
النفي والاستثناء" على سبيل القصر الإضافي؛ لرد اعتقاد من قد يتوهم أنهم قالوا
أقوالاً تبيع عن الجزوع والملع، أو الشك في النصر، أو الاستسلام للكفار، وفي هذا
القصر تعرض بالذين جزعوا من ضعاف النفس، أو المنافقين، فقال قائل منهم:

"لو كمنا عبد الله بن أبي، يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان.

وقد قدر خبر كان على امتناع في هذا السياق؛ لأنه خبر متبداً مخصور.
وذلك لأن المقصود حصر أقوالهم حينذ في مقالة: "..ربنا اغفر لنا
ذنوبنا وإسرافنا في أمورنا وثبت أقدامنا واصرنا على القوم الكافرين"، فالقصر
حقيقي، لأن قصر لقوهم الصادق منهم حين حصول ما أصابهم في سبيل الله؛ فذلك
القيد ملاحظ من المقام نظر القصر في قوله: "إذا كان قول المؤمنين إذا دعوا
إلى الله ورسوله يتحكمو بيتهم" (1)، فهو قصر حقيقي مفيد بمن حاصل تقيداً
منطوقاً به. (2)

ومن الملاحظ أن هؤلاء الحنفاء رضي الله عنهم أضافوا الذنب والإسراف إلى
أفسهم في قوله: "..ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمورنا.."، مع كوفهم
ربانيين برأى من التقبض في حب الله تعالى، هضماً لها، واستسقااراً لهم،
إسناداً لـ مما أصابهم إلى أفعالهم، وقدموا الدعاء مغفرة الذنب تبعاً للأمام
حال الدعاء (3)

(1) آل عمران آية: 147.
(2) النور آية: 51.
(3) انظر: التحرير والتفسير: 4 / 121.
(4) انظر: إرشاد العقل السليم: 2 / 96.

257
ثانياً: القصر بـ "إما" 

وهذا هو الطريق الثاني من طريق القصر عند البلاغيين، وهو دون الطريق الأول

وهو طريق النفي والاستثناء، "إما" وإن شاركت النفي الاستثناء في المعنى العام

وهو القصر، وكوثمة معناه كما هو قول المفسرين إلا أن هناك فروقاً بينهما منها.

1- أنه لا يصح معها دخول "من" الزيادة بخلاف ما و إلا

2- أنه لا يصح معها دخول "من" الزيادة بخلاف ما و إلا.

وقد جاءت بعض من آيات هذة السورة الكريمة المبارك على هذا الأسلوب ،

فمن ذلك قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ قُوَّوْا فِي خُطْبَةٍ وَيَكُونُ يَوْمَ الْقَيَامَةِ يُجَمَّعُونَ إِلَيْهِ إِذَا اسْتَضْرَبُوهُمْ

الشيطان بعضاً ما كسبوا ولقد علم الله عثمه إن الله غفور خليم"(1)

هذه الآية استناف لبيان سبب المزينة الخفية، وهي استنلال الشيطان إليه،

والمراد بيوم النثى健身房 يوم أحد (2)، وقد قصر نص هذه الآية الكريمة النولي الذي

حصل من المؤمنين في موقعة أحد في استنلال الشيطان، أي: أن مـا وقع من

مفارقاتهم وواقفهم، وعصبيان أمر الرسول، والتنازع، والتعجل إلى الغيبة كان مـا

آثار الشيطان، لأنه أوقعهم فيه بعض ما كسبوا من صنيعهم، والقصد من هـذا،

حصر تبعه هذا الهزاع على عواقبهم ضمان الله عليهم، وإبطال ما كان زوره

المواقف من رمي تبعه على أمر الرسول، باخروج، وتعرض الله المؤمنين على

الجهاد، ولأجل هذا الأمر وتصحيح هذا المفهوم، لما أنظمه الكـريم إلى أسلوب

القصر، وهو من قصر القلب صفة على موصوف .

وأما يندمج تحت هذا الطريق أيضاً، قوله تعالى: "إِنَّمَا ذَلَّكَ الشَّيَاطِينُ

(1) آل عمران آية : ۱۵۵
(2) التحرير والتفسير : ۴۴۰ / ۴
في خرْف أولِياءه فلا تخافوهم وَخَافْوِي إن كُنتُمْ مؤمنينٌ (1)، وهذه الجملة إما
استنادًا على قول الله: { الذين قال لهُم الناس } (2)؛ بل أٍّلأ أو صفة، كما تقدم، وإما على
الذين قال لهم الناس »، إن جعلت قوله: { الذين قال للهم الناس } (3) مبتدأوالتقدير: الذين قال لهم الناس إلى آخره إمَّا مَهْم يخوَف
الشيطان به (4).

وهذه الآية واردَة على أسلوب القصر بـ «إِلَمَا»، حيث قصرت الآية الكريمة
كيد الشيطان على التحريف بأولِيائه، فهذا غاية كيده، وهذا مصداق لقول النبي
الهَـَـٰـَـُّـُـُـُُّهُمُ رَبُّكَ الَّذِينَ كَيْدُهُ لَمْ يَكُونَ لَهُمُ الْأَمْسِكَةُ (5)ـ، فهو من قصر الموصوف على
الصفة، فهو دائماً يجب على المؤمنين بالخليالات التي تضعم كيد أعدائهم، وليَّأمَّم
إنه اتخذوا هم لم يصمدوا في مواقعهم سوى وقت قصير، حيث سيكونون بعد هذـ.
العصف المأكول، والشيطان لا يملك كما أخبر الحق سوى هذا السبيل لتدّير
الخوف في قلب عبادة الله المؤمنين، ولكن عندما يخيم وقت أبد يتبين للمؤمنين أن
الإرهاب الذي ملَّا الشيطان به قلوبهم ماكان إلا التخريـف؛ لذا ينبغي للمؤمن الحـ.
ألا يخشى إلا الله سبحانه وتعالى، ولألا يتجنب لإرهاب الشيطان وحربه.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: { ولا يَبْخَسَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نَعْمَلُ لَهُمْ خَسَيْرٌ
لَأَفْتُسِهِمْ إِنَّمَا نَعْمَلُ لَهُمْ نَيْزَدَادُو إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مَهِينٌ} (6).

هذه الآية إما عطف على قوله: { ولا يَبْخَسَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَسِيَّبِي اللهِ
أَمْوَاتَهُمْ }، والمقصود مقابلة الإعلام بخلاف الحساب حاليين:

(1) آل عمران آية: 175.
(2) التحرير والتسوير: 4 / 175.
(3) الحديث رواه أحمد في مسنده: رقم (1106)، والنسائي في سنده: رقم (1402).
(4) آل عمران آية: 178.

٢٠٩
إحداها تلوح للناظر حالة ضر، والأخرى تلويح حالة خير، فأعلم الله أن كلتما
الحالتين على خلاف ما يتراه للنااظرين.

وإما عطف على قوله: "ولا يحزلل الذين يسارعون في الكفر"، إذ نماه
عن أن يكون ذلك موجباً لحزنه؛ لأنهم لا يضرون الله شيئاً، م ألقي إليه خيراً لقصدد
إبلاغه إلى المشترين وإحاوهمن المناقين: أن لا يحسبوا أن بقاءهم نوع لهم، بل هـو
إمالة لهم ورداون به إماً؛ ليومن أخذهم بعد ذلك أشد، وقراءة الجمهور: "ولا
يحسن اللى كفرًا" بيناء اللغة، وفاعل الفعل "اللى كفروا"، وقراءة حـرة
بناء الخطاب.

والخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو في عن حسابه لم يقع، فالنهي
للتحذير منه، أو عن حسابه هو خاطر عجز النبي غير أن حسابه تعجب؛ لأن النبي
يعلم أن الإمالة ليس خيراً لهم، أو المحاطب والمقصود غيره من يظـن ذلك من
المؤمنين على طريقة التعبير مثل قوله: "أين شركت ليحبطن عملك"، أو المراد
من الخطاب كل محاطب يصح لذلـك.

وعلى قراءة الباء، فالتيني مقصود به بلوغه إليهم ليعلموا سوء عاقبتهم، وثُـبَرُ
عِيشهم بهذا الوعيد: لأن المسلمين لا يحسبون ذلك من قبل.

الإمالة: الإهمال في الحياة، والمراد به هنا تأخير حياتهم، وعدم استغلالهم في
الحرب، حيث فرحوا بالنصر يوم أحد، وأن قتل المسلمين يوم أحد كانوا أكثر من
قتلاهم.

والإمالة هو التحلية بين الكفرة وبين أعمالهم في كيد المسلمين، وحرحمهم، وعدم
الأخذ على أبيديهم بالنزعة والقتل، كما كان يوم بدر.

يقال: أملى لفسره إذا أرشي لها الطول في المرعي، وهو مأخوذ من اللؤ بـالواو.
وهو سير البعير الشديد، يقال: أمليت للبكر والفرس، إذا وسعت له في القد، لأنه
يتمكن بذلك من الخب والركض، فشبه فعله بشدة السير، وقالوا أمليت لزيت في
غبه، أي: تركه على وجه الاستعارة التصريحة، وأملي لفلان آخر عقابه قال
الحق تبارك وتعالى: والله违هم إن كيدي منهم(1)، واستعير التملي لطول المدة
تشبيها للمعقول بالمحسوس، قالوا: ملاك الله حبيبك تمليء، أي: أطالب عمرك
معه(2).

وفي هذه الآية أداتاً قصر:

الأولى في قوله: (ولَا يَجْحَسَنَ اللَّهُنَّ كَفَرَوْا أَلَمَّا نُمِيلَيْنِ لَهُمْ خَيْرٍ
لَأَتْفَسَّهُمْ...).

والثانية في قوله: (الله يَعْلَمُ أَلَمَّا نُمِيلَيْنِ لَهُمْ إِنَّمَا أُذَابُوهُمْ غَذَاباً مَهِينَ).

والمعنى على الأولى: قصر الحق تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة الإملاء على
الزيادة في الكفر، أي: ما علّيهم إلا ليرددوا إلنا، فيكون أحدهم به أشد،
ومن ينظر في سياق هذا القصر لا يخفى عليه أنه قصر قليل، وذلك لأن الكفرة
يزعمون أو يظنون في قراءة أنفسهم أن إمءال الله لهم، وإعاقته عليهم النفع
إذا هو لرضاه عنهم، وأهمل على الحق، فкажات هذا الآية الكريمة لتكر على هذَا
الرغم، فتجعله هباء منثوراً، كأن لم يكن.

والمعنى على (إله) الثانية قصر الإملاء على الزيادة في الإثم، حين يواقفوا
الحق تبارك وتعالى، وقد نالوا جزاء مما قدموه من خير في الدنيا إن كانوا
فعلوا شيئا من الخير، والقصر في هذه الآية الكريمة أيضاً حقيقياً لأنه

(1) الأعراف آية: 183.
(2) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: 776، التحرير والتنوير: 175.
صاحب من الحق تبارك وتعالى، وكل ما يقوله الحق فهو في هذه الدورة.

وأما يندرج تحت هذه الطريق قوله تعالى: "كل نفس ذا قتة المَسْؤوْت وأئمّا تُوقَعُون أُجْوَرُكم يوم القيامة فَمَنْ زُحِّرَ عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وَمَا الحَبَّةُ الدُّنِيَا إلا مَثَّعاً الفَوْرُ" (1).

بين لنا هذه الآية أن الحق تبارك وتعالى قضى قضاء لا مرد له، وهو أن المؤمن مدرك كل نفس منفوسها، فلا مجال للملحد في هذه الدنيا دار الغُرور، فمَن لم يمت اليوم فسموت غداً، وهذا الأمر أراد الحق أن يقرره في نفس عباده المؤمنين جِرَاء حُزَمهم على استشهاد في سبيل الله من الصحابة، فلا ينبغي أن تسافوا على مَوَت قطلاكم في سبيل الله، ولا يفتحم المناقرون بذلك؛ ولَكَذَا يكون قوله تعالى: "وَأَلَمْ تَمْلَأُونَ أُجْوَرُكم يوم القيامة..." قصر قلب لتزيل المؤمنين فيما أسْأَبُهم من الحزن على قتلاهم وعلى هُرِيمتهم، منزلة من لا يترقب من عمله إلا منافق الدين، وهو النصر والعُنَيفة، مع أن نفحة الآخرة في نعيم الآخرة; ولذلك قال: "وَتُوقِعُون أُجْوَرُكم..." (2)، أي: تكمل لكم، فيه تعرض بأعظم قد حصلت لهم أُجْوَر عظيمة في الدنيا على تأييدهم للدين، فمن النصر يوم بدر، ومنها كف أيادى المشتركون عليهم في أيام مقامهم مكماً إلى أن تمكنوا من الهجرة.

وقد حتمت الآية بقصر آخر في قوله: "وَمَا الحَيَاةُ الدُّنِيَا إلَّا مَتَاعُ الغُرْرُ"، وهو كما يلاحظ قصر بطرق النفي والاستثناء، حيث قصصت الحياة الدنيا على متاع الغُرْرُ، فهي لا تخرج عن ذلك طرفة عين؛ لذا فلا ينبغي للعقل أن يركن إليها، فهي إن أسرت قليلًا أحزنت كثيرًا، وإن أضحت قليلًا أبكت كثيرًا.

---

(1) آل عمران آية: 185.
(2) التحرير والتفصيل: 188.
فيه دارخلاها حساب وحرامها عقاب. فكيف ينبغي للعالقه أن يغتر بما، وهذـا القصر من قصر الموصوف على الصفة، فقصرت الدنيا وهي موصوفة على الغـرار، وهي صفة، وانظر لما انطوت عليه الآية الكريمة من تشبه بليـغ في قوله تعالى:

»وهـا الحـياة الدنيا إلـى ما تـاع الغـرار،« حيث شبه الدنيا بالفتاـع، الذي يلبس به بائعه على طالبه حين يبتعد ويشترى، وقد أخرج الحكـم تابـك وعلـى الكلام هـذا التشبيه مخرج الإنكار على من جعل دينه الاغترار بالنفس، واتمـظ أفوقها، وهـي في الواقع لا تفع فيها، ولا طالع تحتها، وأـية فاتحة ترجي من الشيء الذي يعتبره الفناء.

وإذاما جمع بين: »زُرْحَحَ عـن النـار وأُدْخِلَ الجـنـة« مع أن في الثاني غنية عن الأول، ولدلالة على أن دخول الجنة يشمل تعميم عظيمتهم: النجاة مـن النار، ونعمـم الجنة.

ثالثاً: تقديم ما حقه التأخير:

وذلك كما أسلفتي في مبحث التقـم والتأخـير يكون بتقـم الخير على البـنـدا، أو تقديم المـتعلقات على الفعل أو بعضها على البعض، وقد استوفيت بعضها منـها هنا، وأعرض لطائفة منها هنا.

فمن ذلك قوله تعالى: »لا يَنْتَخِبُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَبَارِفُ أَوْلِيَاءَ مَنْ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ فَلْيَسْتَبْسَرْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَنْفَعَ مِنْهُمَا ثَقَةً وَيَعْذَرُ كَمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ أَقِيمُ كُمُّ (1)

والقصر في هذه الآية طريقه التقـم، حيث قدم الجـرار والخـرار، إلى اللهو... وهو المسند على المسند إليه »الـمصـر...«؛ لإفادة القصر، فمصـر.

(1) آل عمران آية: 28.
الخلائق كما معتقد أهل التوحيد الله سبحانه وتعالى، ليس لهم مصير ولا مرجع إلى غيره، حيث يجمع الله الأولين والآخرين لفصل القضايا بينهم، ففريق في الجنة وفريق السعير، وهناك ينتهي كل معبده من عباده، وكمل متوعد من تابعه، ولا يبقى إلا من تفرد بالعز والمليك والخيوط سبحانه وتعالى، وهذا القصر مقرر لمضمون ما قبله، وللمجاهر في هذا القصر تعريضاً بالوعيد أدرك به صريح التهديد الذي قيله (1).

ومثل ذلك قوله تعالى: "تَلَكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْثَوُها عَلَىٰ لِبَيْنِكُمْ وَاللَّهُ يُرِيُّهَا..." ظلماً للعظامين وليلماً ما في السماوات وما في الأرض وإلي الله ترجع الأمور (1).

حيث قدم الجار والخليج وهو الخير "وَلَهُ..." على المسند إليه "و... ما في السماوات وما في الأرض وإلي الله ترجع الأمور، فكل ما في السماوات وما في الأرض ملك لله سبحانه وتعالى، فهو الخلاق وهو المديب والمصرع لا يعيب عن تصرفه وماكية متقال درة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، حتى إن أحص خصائص الإنسان وهو جسده الذي يحمله ما هو إلا أمانة لديه ليس له حق في أن يتصرف فيه حتى ولو بعد موتها، فهو داخل في الملك العالم الله سبحانه وتعالى، فكيف يغفر غيره، وفلا يجزي الظلم الكرم هناللتقديم والتأخير لتأكيد هذا المعنى وتقديره في النفس مع أنها مقولة به.

كذلك انظمت الآية الكريمة موضوعاً آخر من مواقع التقدم، وهما في قوله تعالى: "وَأَلَّي اللهُ تَوْجِعُ الْأَمْوَرُ..."، حيث قد الجار والخليج "وَأَلَّي اللهُ تَوْجِعُ الْأَمْوَرُ..." على المسند الفقيه "وَأَلَّي اللهُ تَوْجِعُ الْأَمْوَرُ..." لتحقق الفقار، وهو قصر

(1) التحرير والتوضيح: 3/223.
(2) آل عمران آية: 919.
رجوع الناس إلى الله سبحانه وتعالى، وإدراك هذا الأمر من السياق والمعنى الذي تقرر به الآية الكريمة، فمرد الأمور ومرجعها إلى الحق بارك وتعالى، وهذا المعنى قرره الكتاب الحكيم في آيات كثيرة صريحةٍ نارة، وتعريضاً أخرى بجلب الأساليب التي تفهمه كأسلوب القصر كما في هذه الآية الكريمة.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: "فَاعْفَأْهَا المَلَائِكَةَ وَهُوَ قَانِمٌ يُصَلِّي فِي الْحَجَّارَابِ. أَنَّ اللَّهَ يَلَمْكُ بِي حَيَّاً مَّعْنِي يَقُولُ: مَا يَضُرُّكُ النَّاسُ وَمَا يَضُرُّكُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ. وَهُوَ الَّذِي كَأَمَّالَهُۡ وَكَأَمَّالَهُۡ إِلَيْهِ". (1)

وما يفيد القصر أيضاً تقدم المبتدأ على الخبر الفعلي في قوله تعالى: "اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ" ؛ لإفادة القصر ؛ وذلك أن حلق الولد من شيخ فان، وعجز عن أمر في غاية العجب، وليس في وسع أحد أن قوم به إلا الحق بارك وتعالى، ولأجل قدم على العامل ليفيد هذا المعنى ويقرره.

وأما طريقته تقدم الخبر على المبتدأ قوله تعالى: "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَفُرُضٌ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَيْتُهُ مَبَارَكٌ وَهُدّى لِلَّغَالِبِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيْنَ مَا قَامَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمِنْ دُونَهُ كَلَّا أَعْمَنَ أَنْ لَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجٌّ أُلْبِتْ مَنْ أَسْتَطَعَ إِلَى هِيَ عُسْنَ وَمَنْ كَفَّرَ إِنَّ اللَّهَ غَنِّي عَنِّ الْعَالِمِينَ". (2)

الذي يفيد الخصر، فحج البيت عبادة يختص بها الله سبحانه وتعالى، وهذا يعني أنه حق واجب لله في رقاب الناس، لا ينفك عن أدماءه، والحروج ممن عهدها، وإثباث صحة الخبر وإبرازها في صورة الجملة الإسمية الدالة على الثبات والدوم على وجه يفيد كذلك أنه حق واجب لله تعالى في ذم الناس.

وهذه الآية حكيم أعقب به الامتنان: لما في هذا الحكم من التنويه بشأن البيت،

---

(1) آه عمران آية : 97
(2) آه عمران آية : 97.
فلذلك حسن عطفه، والتقدير مباركا، وهدى، وواجبا حجه، فهو عطف على الأحوال.

وفي هذه الآية من صبع الوجوب صيغتان، لام الاستحقاق، وحرف على الدال على تقرر حق في ذمة المجرب بها (1).

وأما يدخل تحت هذا الأسلوب كذلك قوله تعالى: {وَلَيْنَ مَنْ مَهَّمْ أَوْ قَبِيلَتِمْ لَيُبَيِّنَى} الله تَحْضُرُونَ (2).

فقد قُصر الحشر في الآية الكريمة إلى الله سبحانه وتعالى دون غيره، وسُلِك إلى ذلك طريق التقدم والتأخير، حيث قام بتقدم الجار والمجرور {...لَّا إِلَى اللَّهِ تَحْضُرُونَ} على قوله: {...تَحْضُرُونَ}، فقال: {...لَّا إِلَى اللَّهِ تَحْضُرُونَ}، ولم يقل: {تَحْضُرُونَ إلى الله}، ومعنى هذا: إلى الله يَحْضُرُونَ العالم لا إلى غيره، وهذا يدل على أنه لا حاكم في ذلك اليوم، ولا ضار، ولا نافع إلا هو سبحانه وتعالى.

قال الحق تبارك وتعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَا لَيْتَفَقَّرُوا عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ} لمَّا أَمْلَكَ الْبَيْنَ الْأَلْفَ الْأَوَّلِينَ الْقُلُوبَةَ الْمُجِيَّرَةَ كُلّ نَفْسٍ بَعْدًا كَسَبَّتْ لَهَا حَلَّ الْبَيْنَ الْأَلْفَ الْأَوَّلِينَ إِنْ اللَّهُ سُعْيُ الْحَسَبَاتِ وَأَنْفُرُهُمْ يَوْمَ الْآثَرَةِ إِذْ الْقُلُوبُ نَلْتَهَا تَحْتَاحِرٌ كَأَقْبَاطٍ مَا لِلْقَلْبِ مِنْ حُشْيٍ وَلَا شِفَعٍ يُطَاعُ يُعْلَمُ خَائِنَةُ أَلْسِنَةِ وَمَا يُخْفِيُّ الصِّدْرُ وَلَهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَلَهُمْ يَذَّكَّرُونَ بِمِنْ ذَوِيْنَا لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْسَّبِيعُ الْبَصِيرُ (3).

هذا ويرى «أبو حيان» أن التقدم هنا لا يفيد الحصر بل يفيد الاعتناء بالشيء

(1) التحرير والتنوير: 4 / 22.
(2) آل عمران آية: 158.
(3) تفسير الآيات: 16 / 18 / 19 / 20.

٢٦٦
والاهتمام به، وهذه عادته من جعله كل تقدم مجرد الاهتمام؛ وذلك مجرد مخالفته
«جار الله الرحمي» الذي يرى بأن التقدم في هذه الآية وفي غيرها من الآيات يفيد
القصر، ويجعل التقدم في هذه الآية لرعاية الفاصلة، فلم آخر الجار والمحور لفضائل
هذا الغرض بذلك»(1).
والحق يقال أن سياق الآية الكريمة لا يساعد «أبا حيان» على مقالته-هذا، فالكلام في الآية عن الحشر، والحشر لا يكون إلا الله، أضاف إلى ذلك أن الآية جاءت
للمحافظة على الصحابة، وهم يحتاجون إلى من يؤكد لهم الخطابات؛ وهكذا نرى
الخطاب بالفيضان جاء منهجًا بعدة مؤسسات منها التقدم والتأخير الذي يفيد القصر.
وأما قوله إن التقدم لرعاية الفصل، فهذا غرض لا يستحسن بلداً ، فغالبًا ما
يكون تبعاً لغرض آخر، وهو هنا جاء تبعاً للقصر المفاضله من التقدم.
رابعة: القصر بطرق العطف بـ «لا»، أو « بل»، أو « لكن».
والقصر بطرق العطف يراه بعض الباحثين من أقوى طرق القصر؛ وذلك للتصرف
فيه بالطرفين، التثبت والمتفاوض بعيداً(2).
فمن ذلك القصر بـ « بل» في قوله تعالى: « لا أُبْنِيَ اللَّهُ مَوَّلَأَكُمْ وَهُوَ 
خَيْرُ النَّاصِرِينَ»(3).
فانظر لموقع القصر بـ « بل» في هذا النظام القيم، من حيث الجمل، وخفيته
على اللسان، وإحاضته بالمعنى في قوله: « بل الله مولأكم...»، فله تعالى بعد
أن فما المؤمنين عن طاعة الكافرين، واتخاذهم أولياء، وأن هذه الطاعة سبب كـ...
هلاء، أبان أن ولاية المؤمنين يجب أن تكون الله سبحانه وتعالى، فهو وحده النافع والاضرار، وهو سبحانه وتعالى هو الناصر لمن تولاه، وولايته ليس نفعها منحضرًا في الدنيا، بل يتعبد ذلك إلى الآخرة.

"وَهُوَ خَيْرُ النَّاسِرِينَ" أي: أفضل المصوفين بالوصف، فيما يراد منه، وفي موقعه وفائدته، فالنصر يقصد منه دفع الغلب عن المغلوب، فمعنى كان الدفع أقطع للغلب كان النصر أفضل، ويقصد منه دفع الظلم فمعنى كان النصر قاطعًا للظلم وكان موقعه أفضل، وفائدته أكمل، فالنصر لا يخلو من مدحته لأن فيه ظهور الشجاعة، وإباء الضيم والندعة.)

ومنبه القصر بما في قوله تعالى: "وَلا تَحْسَبَ اللَّذِينَ قُتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوَاتًا، بِلَّا أَحِيَّةٌ عَنْدَ رَبِّهِمُ الْبَرَّٰزُوْنَ".

قرأ الجمهور: "أَحِيَّةٌ "رفعًا على «بل هم أحياء»، وقرأ ابن أبي عبيدة «أحياء»، وخرجها أبو البقاء على وجهين:

أحدهما: أن تكون عطفًا على: "أَمُوَاتًا"، قال: كما تقول: «ظنت زيدًا قائماً بل قاعدًا».

والثاني: وإليه ذهب الرائعشي أيضًا أن يكون منصوبًا بإضمار فعل تقديده، بل أحسبهم أحياء، وهذا الوجه سبق إليه أبو إسحاق الزجاج.

فالنصير بن ذمح هنا نفى عن الشهداء الموت الحقيقي، الذي يعقب القتل، تعالىً للسنين التي جعلها الله لهذا الكون، وأثبت لهم الحياة، وذلك يحرف القصر «بل»، بل قصرهم على هذه الحياة الحقة، وهي الحياة في ظل كف الرحمه سبحانه ومعنٍّ.

(1) التحرير والتنوير: 123 / 122 - 136.
(2) آل عمران آية: 169.
(3) القدر المصور: 256 / 268.
هذه الحياة حياة خاصة ترفرع عن مؤهلات هذه الحياة الفانية حياة الأجسام، فهي يجري فيها الدم وينبض فيها القلب، ولا هي حياة الروح التي يحياها جميع الناس بعد موتهم، بل هي حياة لا يعلم كنها إلا الحق سبحانه وتعالى وهذه الحياة مقصورة على هؤلاء الناس لا تتعدىهم إلا غيرهم، ولكن هذه الحياة خاصة لابد أن يكون رزقها خاصاً، وهذا جعل الله رزقها من حنان الخلد حيث تكون أرواحهم في حواصل طير خضر تأتي إلى قناديل حول العرش، كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

ومثلة القصر بما في قوله: "وَلَا يَخْسَنُ الَّذِينَ يَخْتُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ فَضْلِهِ" هو خبرًا لهم بل هو شرٌّ لهم سيطرعون ما يخلو به يوم القيامة وله مصائر السماوات والارض والله يحتملون خبرٍ (1).

قرأ الجمهور: "وَلَا يَخْسَنُ الَّذِينَ يَخْتُلُونَ" وقرأ جماعة ببناء الخطاب، وقرأ الجمهور "تخسن" بكسر السين، وقراءة ابن عامر، وحمزة، وعاصم بفتح السين (2).

وهذه الآية الكرمة صورت لنا نظرات الماديين، الذين لا يؤمنون إلا بما هو محسوس، ويرون في الإنفاق في سبيل الله سبحانه وتعالى معرضاً بهدف كيام المادي ويعرضهم نظرات اقتصادية؛ لذا تراهم يسارعون في تدبير الحيل لأجل الفكاك من الزكاة أو غيرها، يغلب على حكمة، وهنا قلب الحق عليهم، ويتضح أن نفهم هذا مقصورة على كونه شراً لهم لا خير، وذلك بواسطة العطف بـ "بل" »يَّلُو حُسُورٍ لَّهُمْ..." (3).

ومن ذلك القصر بـ "لكن" في قوله تعالى: "ما كان إبراهيم يَرْهَدُوا ولا نصرانيون ولكن كان خبيئاً مسلياً وما كان من المشركين" (4).

(1) آل عمران آية: 180.
(2) التحرير والألفية: 4/ 181.
(3) آل عمران آية: 76. 

٢٤٩
فالآية الكرامة أفادت الاستدراك في أن نفت عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام والمحدثيّة، بل كونه على السلام متقدمًا عليهما في الزمن، والأنسان لا ينبغي لمن كان متأخراً عنهما كما هو المبادر، ثم حرص حال إبراهيم عليه السلام فيما يوافق أصول الإسلام، ولذلك بين حنيفاً بقوله مسلاً؛ لأنهم يعرفون معنى الخمينية ولا يؤمنون بالإسلام، فأعلمهم أن الإسلام هو الخمينية، وهذا القصر قلب، وهو حقيقية تحقيقي، وهذه الآية الكرامة مقيسة على قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب: «وَهُوَ الَّذِي أُوتِيَ عَلَيْهِ مِنْ نَارٍ عَائِشَةَ أُقُصُّهُ مِنْ رَجَالَكُمْ وَلَكِنْ رَسُولِ اللَّهِ» (1)، فالشرك كون كانوا يعتقدون فيه الأبوة لزيد ونبي الرسالة، فقلب عليهم المولى اعتقادهم (2).

خامساً: القصر بضمر الفصل:

وأول موطئ يطالعنا في هذه السورة في قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي أُتِيَ عَلَيْهِ مِنْ نَارٍ عَائِشَةَ أُقُصُّهُ مِنْ رَجَالَكُمْ وَلَكِنْ رَسُولِ اللَّهِ» (3).

حيث خيّر هنا في هذا النظام الكريم المبارك بضمر الفصل (هو...) وصدرت به الآية؛ للقصر؛ لقصر صفة الإزال على الحق تبارك وتعالى؛ وهو قصر حققي تحقيقي، وهو من قصر الصفة على الموصوف؛ ووجه النظم هذا الأسلوب للرد على الكفار الذين زعموا أن هذا القرآن إذا هو أساطير الأولين اكتبها محمد ﷺ على بعض أهل الكتب السابقة؛ ليصرف أنظار أهل هذه الملة الأمية؛ ليكونوا تابعين له.

(1) الأحزاب آية : 40.
(2) حاشية الدسوقي : 1/383، ضمن شروح التلخيص.
(3) آل عمران آية : 7.

٢٧٠
لا يوجد نص يمكن قراءته بشكل طبيعي من الصورة المقدمة.
من يبدع قلوب العباد، وهو الخلق سباحانه فقال معلاهما هم سبل نيله والنبات عليه: "ربنا لا تزور قلوبنا بعد إذ هديتنا وَهَبَّنا مِنْ ذَلِكَ رَحْمَةً ..."، وقد ختم هذا الدعاء بالقصر في قوله: "...إِذَّ أَلَّتَ الْوُجُوبَ" للسبالة لاجهل كمال الصفقة فيه سباحان و تعالى؛ وذلك أن هبات الناس بالنسبة لما أفسد الله من الخيرات والرحمات شيء لا يعبأ به، ولأن الهدية المراد بها هي هديا التوفيق واللهام وهي هدية مقتصرة على الحق لا تتجاوزه إلى غيره؛ لهذا نلاحظ أن الحق تبارك وتعال سلطها رسوله في قوله: "إِذْ أَلَّتَ الْوُجُوبَ"، فهي مقصورة عليه سباحان و تعالى لا تتجاوزه لغيره، ولو كان لأحد غيره نصيب لم تكن لأحد دون رسوله ؛ وقد تضمن مع هذى القصر التأكيد باسمية الجملة و"إن".

ومن ذلك قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَأَن تُخْتَارُ عَنْهُمْ أَوْلَادُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأَوْلَيْكُمْ هُمْ وَقُوْدُ التَّأَكِّيرِ"(1).

وهذه الآية الكريمة استناداً ناشف من حكايته ما دعي به المؤمنون: مدين دوام الهدية؛ وسائر الرحمات؛ وانتظار الفوز يوم القيامة، بذكر حال الكافرين في ذلك اليوم العظيم، على عادة القرآن الكريم من الزواجة بين الوعد والوعيد، وإرادة البشارة بالندارة، وتعییب دعا المؤمنين بهذا حالف المشترکين؛ إمامة إلى أن دعوته استجيبت(2).

وهذه السورة الكريما لما كانت سورة التوحید ؛ وذلك لکرة مساعدة إليه، ونافتحت من أجله، كان الألفاظ خطاباً أن يكون الدعاء فيه إلى الزهد، أهـ مـن

<p>| | | |</p>
<table>
<thead>
<tr>
<th></th>
<th></th>
<th></th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>(1)</td>
<td>الفصل آية : 55.</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>(2)</td>
<td>آل عمران آية : 191.</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>(3)</td>
<td>الدرس: التحقيبة والتدبیر : 3 / 172.</td>
<td>172</td>
</tr>
</tbody>
</table>
الدعاء في غيرها، والإشارة فيه إلى ذلك، أكثر من الإشارة في غيره، فكانت هذه الآية قاطعة للقلوب النيرة بما أشارت إليه من فتنة الأمور والأولاد المؤلمة لمهلك.

والمراد بالوصول: "...النذير..." في هذا النظم الجنس، أي حسن الكفرة الشامل والمنتظم لجميع الأصناف، على مر الأزمان، فليس مقصوداً به قوم دون قوم فكل من كفر، يشمله هذا اللفظ.

والتعريف باسم الإشارة "...أولئك..." هنا لاستحضار هؤلاء الكفراء; كأعم بحقيقة نبأ إليهم: وليبان بعدهم من رحمة الله; ولتبتغوه كذلك إلى أحقاء ما سيأتي من الخبر في قوله: "...هم وقوع الآثار...".

والتعريف بضمير الفصل "...هم..."، والإيتاء به هنا; لإفادته الأختصال، وجعلهم نفس الوقود مبالية في الاحترق; كأن النار ليس لها ما يضمرها إلا هم.

وذلك قوله تعالى: "إن هذا نعيم القصور الحق وما من إله إلا الله وأن الله ليه العزيز الحكيم فإن تولوا فإن الله عليكم بالعاقبين".(1)

 لما كان في علم الله سبحانه وتعالى بأن المجادلين في أمر عيسى عليه السلام سيكفون عن المباهلة(2) بعد المجادلة; خوفًا من الاستصال في الدنيا، مع ما يذكر لهم الله من العذاب في الآخرة، وكان في كفهما عن ذلك دليل قوي على بطلان مادعونه لكل من حضر، أو سمع، حسن تعقيب قوله بهذه الآية(3).

والتعريف بضمير الفصل في قوله: "...له القصور الحق..." يفيد القصر الإضافي الحقيقي، كما يفيده تعريف الطرفين، والحق وصف للقصر، وهو...

(1) آل عمران آية: 26، 34.
(2) المباهلة: أي باهل بعض القوم بعضاً مباهلة، أي: اجتمعوا، فندعوا، فاستولوا لعنة الله على الظلم.
(3) نظم الدور: 2/ 107.
لمقصود بالإفادة هنا، أي: إن هذا هو الحق لا ما يدعيه النصارى من كون المسيح.
قال تعالى رحمه وتعالى: "إنما أُҚِيِّمْتُ لِأَبِيَّنَا إِبْرَاهِيمَ وَأَبِيَّنَا لُوطَ، وَلِلْيَهُودِ وَالْمُسْلِمِينَ، بِأَن يَغْضُبُ الَّذِينَ كَفَّارُ الْأَلْلَهِ، وَيَنَجِدَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ الْأَلْلَهَ، وَيُعَلِّمَهُمْ سِنتَيْنَ، وَيَدْعُوهُنَّ إِلَى الْخَيْرَةِ، وَالْعَدُوَّةِ، وَيَرْضَى مِنْهُمْ رَحْمَةً مَا كَانَ لَهُمْ رَحْمَةً مِّن قَبْلُ.
قال تعالى: "فَإِن يَكُونُ الْأَلْلَهُ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ...")، فهو هذا أفاد تأكيد الخبر عن الله تعالى بالعزة والحكم، والمقصود إبطال الوهبة المسيح عيسى بن مريم على حسب اعتقاد النصارى، وهـم المخاطبون هذا ؛ فإنهم زعموا أن المسيح قتلهم اليهود عليهم لعنة الله عليهم ؛ وذلك دلالة وعجز لابتلائهم مع الألوهة ؛ كيف يكون إلّا وهو غير عزيز ؛ وهو مهمن عليه ، وفي هذا أيضا إبطال إلّا ووهبته ؛ لكونه محتاجا إلى من ينذقه من أيدي الظلمين.
والقصر هنا قصر إفراد ، ولا يصبح أن يكون قصر قلب ؛ وذلك لأن النصارى يثبتون إلهية الله ؛ ولكنهم يشاركون معه عيسى ؛ فلهذا كان أصلويب القصر قـصر إفراد لا قصر قال ؛ ولو كانوا يثبتون الإلهية لعيسى وحده لكان قصر قلـب ؛ وهذا لا يقول به أهل الكتاب ، والجملة السابقة ، تدليل لما قبلها ، وما يدخل تحت هذا البحث ، قوله تعالى: "فَآخَذَ أَخْدَمُ اللَّهِ مِثْلَ الْأَبْوَابِ لَمَّا أَتَيَّشَكَ مِنْ كِتَابٍ وَحَكِيمٍ، ثُمَّ جَاعِلَ مُسَلِّمَ مَعَكَ مَعْمَّا كَانَ لَكَ وَتَحْذِيرَةً قَالَ أَقْرَرْنَ وَأَخْذُنَّكَ عَلَى ذِلِّكَ إِصْرَى قَالَوُا أَقْرَرُوا قَالَ فَأَشِهِذُوا وَأَنَّا مِعْمَّا مِنْ الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِّكَ فَأَوْلَٰئَكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ".
فبعد أن ذكر الحق تبارك وتعالى أنه قد أخذ ميثاق النبيين ، إذا خرج النبي

(3) آل عمران آية: 82 .

274
فهم أحياء ؛ ليؤمن به وليصرنه ؛ وعلى ذلك وأخذ عليهم إصرره ؛ بين تعالى
في هذه الآية الكريمة ؛ أن من حالف وتولى ونقض ما عاهد عليه ؛ فهو فاسق ؛
مستحق لغاية الدم ؛ والإشارة في "ذَلِكَ..." للميثاق ؛ والإشارة باسم الإشارة البعيدة ؛ لتخليص
الميثاق.
والإشارة في "...أُوْلِيَ..." لـ "...مَنَ..." ؛ وجمع باعتبار المعنى ؛ كما
أن الإفراد في "...تَوَلَّى..." باعتبار اللفظ ؛ والإشارة باسم الإشارة الدال على
البعد ؛ للدلالة على تراضي أمرهم في السوء وتماديهم فيه ؛ وبعد منزلتهم في الشر
والفساد ؛ أي ؛ فأولئك المتولون المتصنفون بالصفات القبيحة ؛
فالتعرف في هذه الآية الكريمة ؛ للتبيين على أن المسند إليه جديد بالوصف
المذكور وهو الفاسق ؛ وذلك لтолيه وإعراجه وتفضله للميثاق الذي عاهد الله عليه.
وقد استفيد من هذا الأسلوب ؛ وهو التعرف باسم الإشارة ؛ وضمير الفصل
القصر ؛ وذلك للمبالغة ؛ لأن فسقه في هذه الحالة أشد فسق ؛ فجعله عبء من
الفسق كالعدم ؛
والإثبات باسلوب القصر "...أُوْلِيَ..." هم الفاسقون ؛ وقصر الفسق على من
أخل هذا العهد ؛ دليل أكيد على عظيم هذا العهد ؛ ولهه عهد مستول ؛ ودليل
كذلك على عظم الإمام محمد ﷺ ؛ وأنه من الله تعالى بالمزولة العظمى ؛
ومن ينظر في سياق الآية يلحظ أن الطرف لم يكن يجار في قوله ؛ "...تَوَلَّى
بَعْدَ..." كما هي العادة ؛ وذلك لبيان أن المستحق لغاية الدم من اتصل توليه بلموت
وهذا المعنئ ؛ لا يستفاد إلا من إسقاط حرف الجر(1).

(1) انظر : نظام الدرر : ٤٧١ - ٤٧١.
سادسًا: القصر بتعريف طرف الجملة:

وتعريف طرف في الجملة من طرف القصر التي ذكرها بعض البلاغيين، وكثيرًا ما يتحم ضمير الفصل بين الطرفين:

فمن ذلك قول الحق تبارك وتعالى: "إن الذين اعتنقوا الإسلام و أما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم به ما بينهم ومن يكلف بأيات الله فإن الله سريع الحساب" (1).

قرأ الجمهور بكسر هجاء "إن" "إن الذين..." (2) على أنه استنتاح ابتدائي:

وذلك لبيان فضل هذا الدين.

وهذا شروع في أول غرض نزلت فيه هذه السورة المباركة: غرض محاجة نصارى بحران، فهذا الاستنتاح من مناسبات افتتاح السورة بذكر تزوير القرآن الكريم والتوارث والإنجيل، ثم تتخصيص القرآن بالذكر وتفضيله بأن هديه يفوق هدي ما قبله من الكتاب، إذ هو القرآن، لأن ذلك أساس الدين القومي، وما كان الكلام المتقدم مشتملاً على تعريض باليهود والنصاري، الذين كذبوا بالقرآن، وإبطال قبول وفد بحران، لما طلب منهم الرسول ﷺ الإسلام: "أسلمنا قبلك"، فقال لهم: "كذبتم" (3).

ناسب بعد ذلك أن ينوه بالإسلام، الذي جاء به القرآن، ولذلك عطف عليه هذه الجملة قوله: "...وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم به ما بينهم...".

---

(1) آل عمران آية : 19.
(3) انظر: أسباب التولى : 33.
ولابد هنا من النبه إلى أن الكلام البليغ لا يخلو انتظامه من المناسبة، وإن كان بعضه جاء استناداً.

والتعريف في "الله...الدين..." للجنس؛ إذ لا يستقيم معنى العهد الخارجي هنا، وفي "الإسلاَّم..." تعريف العلم بالغيبة؛ وذلك لأن "الإسلاَّم" صار علمًا بالغيبة على الدين الإسلامي، الذي جاء به نبينا محمد ﷺ.

وعلى جزئي الجملة: المسند، والمسنده إليه بألف في قوله: "إِنَّ الْدُّنْيَا عَنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ..."، أفاد الحصر، أي: لا دين مرضي عند الله تعالى سوى الإسلام.

وقد أكد هذا الحصر بحرف التوكيد "...إِنَّ...".

وقوله: "...غَنِيَّ اللَّهُ..." وصف رجل الدين، والعودة عنده عر وجعل عندها الاعتبار والاعتبار، ليست عدنه علم، فأفاد أن الدين الصحيح هو الإسلام، فيكون كما أسلفنا حصرًا للمسنده إليه بالمعنى فعلاً، لا في جميع اعتباراته، كما في قول "الحسناء":

إِذَا قَبَّحَ الْبَيْكَاءَ عَلَى قَبِيلٍ رَآيتُ بِكَأْكَلَكَ الحَسَنَ الجَمِيرَةَ.

فحرصت الشاعرة الحسن في بكائه، بقاعدة أن المقصود هو الحسن لأنه المعصر باللام، وهذا الحصر بمعنى القياس وبوقت قيب البكاء على القلق، وهو قصر حسن بكائها على ذلك الوقت، ليكون لبكته صورةً مريزةً على بكاء القلق المعصر.

ولكن يمكن الاعتبار على هذا الكلام بأن قد جاءت أديان صحيحة مسن الله سبحانه وتعالى على ألسنة رسول آخرين.

ويمكن الإجابة عن هذا الاعتبار بأن الحصر مؤلٌ بالمعنى بأني الذي الصحيح عند الله

(1) انظر: روح المعاني: ۳/۱۸۲-۱۹۰.
(2) البيت من {الوفر}.
(4) وعنصر السعد: ۲/۱۰۲.

۲۷۷
حين الإخبار، وهو الإسلام، فلو نظرنا إلى الأديان السماوية في ذلك العصر الذي جاء به الإسلام لرأينا أنها قد اعتراها التحريف.

وإما باعتبار الكمال عند الله؛ فيكون القصر باعتبار سائر الأزمان والعصور؛ إذ لا أكمل من هذا الدين، وما قيله من الأديان لم تكن بالغا غاية المراد من البشر في صالح شروطهم، بل كل دين جاء يعالج إضافة إلى صحة العقيدة جانبًا من جوانب الحياة، وهذا المعنى الثاني أرجح؛ وذلك لأن مفاهدة أهم (1).

وذلك قوله تعالى: "أُولِئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ" (2).

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها، وهو قوله: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْفُونَ اللَّهِ قَبْلَهُمْ بِالْحَقِّ وَيَقْفُونَ اللَّهِ قَبْلَهُمْ بِالقُسُطِ مِنَ النَّاسِ فَبِشَرْكِهِمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" (3) أنه لما كان الحلال رداً اقتضى أن يقَال من بعض المعاندين من أهل الضلال: إن هؤلاء القوم أعماَلهم حسنة، واجتهادات في الطاعة، بلнтерتب على الله تعالى: أن تلك الأعمال مجرد صور لا معاني لها الفقهاء الأساسي الذي تقوم عليه، كما أخبرهم أيضاً ذوات بغير قلوب؛ لكي تقع المناسبة بين الأعمال والعمالين (4).

وجيء باسم الإشارة في قوله: "أُولِئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ" ؛ لأنهم تميزوا هذه الأفعال التي دلت عليها صلات الموصل - وهو الكثيرون آيات الله - وقتال الأنياباء بغير الحق، وقتل الذين بأمرهم بالقسط من الناس - أكمل غيور؛ وللتبنيه على أظهر أحقاق بما سيخبر به عنهم بعد اسم الإشارة، وما فيه من معنى المقصود.

__________________________
(1) انظر: التحرير: 190 / 3
(2) آئ عمران آية: 22.
(3) آئ عمران آية: 21.
(4) انظر: نظم الدور: 4 / 301.
وعلى ترميم أمرهم في الضلال، وبعد منزلتهم في فضاعة الحال (1) وأخير عن اسم الإشارة: أولاً...! باسم المصدر...!... اللذين...! بدلًا من الفعل لإيقاف الحذر؛ ولأن فعل الفعل صلة يدل على كونها معلومة للسامع، معهودة عنده، فإن أجريت بالوصول عن اسم، استفاد المخاطب أن ذلك الفعل المعهود المعلوم عنده، المعهود، هو مسند للنحور عنه بالوصول، بمجرد الإحبار بالفعل، فإن تلك المخاطب بصدده عن من أجريت به عنه، ولا يكون ذلك الفعل معلومًا عنه، فإن كان معلومًا عنه جعله صلة، وأجريت بالوصول عن الأسم (2) وما جاء على هذا الأسلوب قوله تعالى: إن الذين كفروا بعد إيمانهم نسوا ارتدادًا كفروا لن يقلل توبتهما وأولئك هم الضالة (3).

وفقد ختمت الآية الكريمة هذا الطريق وهو طريق القصر بتعرف الطرفين مع ذكر ضمير الفصل بينهما في...! أولاً! هم الضالة...! بمعنى أن ضللاءهم مقصور عليهم، ولن يتعداهما إلى غيرهم، وأن هذا هو الضلال لأضلال الكفار أو غيرهم، وذلك لأن ضللاءهم جاء بعد تنوير طعم الإيمان وإحساسهم بمتعة الإيمان، وهذا أمر لا يقدم عليه إلا من ضل سعيه في الحياة في الدنيا، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً؛ فنعود بالله من الحور بعد الكور، ومن الضالة بعد الهدى، والآيات التي جاءت على هذا الطريق من طرق القصر في هذه السورة الكريمة من الكثيرة ممكان، ولكن يكفي من ذلك ماذكر.

وهذه الآية يكون ختماً لهذا البحث.

---

(2) انظر: البحر المحيط: 2/78.
(3) آل عمران آية: 90.
(4)
الفصل الثاني

طرق التعبير بالجملة عن المعنى المراد

الفث من الأول: التعبير بالجملة الخبرية والإنسابية.

الفث من الثاني: التعبير بالجملة الأفاسية والوعليفة.

الفث من الثالث: التفخيم، والتأخير.

الفث من الرابع: العصر، والتجهم.

الفث من الخامس: المقطع، والجزء.
المبحث الأول
التعبير بالجملة الخبرية والإنشائية
المبحث الأول

التعبير بالجملة الخبرية والإنشائية

لو نظرنا إلى كلام العرب ، لوجدناه لا يخرج عن كونه خيالاً أو إنشاءه ، وقد تعجبنا في بعض المباحث عن الخبر وأضربه وعن بعض مؤکداته ، وما يوفى كم ضرب من هذه الأضراب ؛ ولذا فم إن الإطالة إعادة الحديث وتكراره ، أعني في ذلك أن كل ما عرضنا له من مباحث من بداية البحث ، وحتى كتابة هذه الأسرة يدخل تحت مسمى الخبر ؛ ولذا سأضرب عنه صفحًا.

وأما كانت معرفة الشيء فرعاً عن تصوري ، فمن المناسب هنا أن أبدأ هذا المبحث بالتعريف الأسلوب الإنشائي في اللغة ، وفي اصطلاح البلاغيين.

فإن الإنشاء في اللغة : هو الابتداء ، أو الاستعراض (1).

وفي اصطلاح البلاغيين : هو الكلام الذي لا يحمل الصدق والكذب لنفسه (2).

وذلك لأن أساليب الإنشاء يقصد بها إلى إنشاء المعنى ، وصوغة إنشاءه ؛ ليطلب بها مطلوبًا معنيًا ، وهذا لا يعني أن أساليب الإنشاء ليس لها نسبة خارجية ، حتى ينظر في مطابقتها للنسبة الكلامية ، فيكون المعنى على الصدق ، أو عدم مطابقتها ، فيكون المعنى على الكذب ، بل لها نسبة خارجية ، وهكذا في القول المعنى الإنشائي من : تم ، أو أمر ، أو في ، أو استفهام ، أو نداء في نفس التكلم ، ولكن ليس المقصود من الجملة الإنشائية الإخبار بمطابقة هذه النسبة للنسبة الكلامية ، وإذا المقصود هو إنشاء المعنى ، واضداده (3).

وقد أثار إلى هذا المعنى "الدسوفي" في حاشيته حيث قال : "ومما يدل على أن الإنشاء له نسبة خارجية تطابقه ، أو لا تطابقه أن النسبة بين كل أساليب في الواقع .

(1) انظر : لسان العرب : 170 / 167 ; القاموس المحيط : 286 .
(3) انظر : علم المعاني دراسة بلاغية تقدية : 2 / 79.
إما ثبوتية أو سلبية على طريق الخبر العقلية، وإلا لزم ارتفاع النقيضين، أو اجتماعهما، والنتيجة لا يجتمعان، ولا يترتفعان، والنسبة بين الأمريكيين في الواقع نسبة خارجية، وهي إما مطابقة للنسبة المفهومة من الكلام أو لا، والمتتابعة وعدمها أمر لا يدمنا في الخبر والإنشاء، والفارق بينهما إذا هو القصد، وعدم القصد، فالمتتابع لا بد فيه من قصد المتتابعة، أو قصد عدمها، والإنشاء ليس فيه قصد المتتابعة، ولا لعدمها»

وبعد هذه المقدمة التي أرى أنه ليس منها بد، وقبل الدخول في تطبيقات هذا المنهج على آيات السورة، لا بد من إدراك أن أساليب الإنشاء بوجه عام، يمتاز بالبحث، وإثارة الذهن، وتشبيك العقل، وتخريب السامع، أو المخاطب.

وسوف أتناول في هذا البحث بالتحليل البلاغي ما يظهر لي من أساليب الإنشاء في آيات هذه السورة، سواء ما كان على يد أحد، وحقيقة أنه ما خرج منها لبقة بانية؛ مراعياً في ذلك طريقة البلاغيين في عرضهم لما قيل هذا البحث.

والإنشاء يقسمه جمهور البلاغيين إلى قسمين:

القسم الأول: الإنشاء الطبقي:

وهو ما يستند أصلًا على أصول وقت الطبق، كالأمر، والنهي، والنداء، والتمثيل، والاستفهام، وجه الخصائص في هذه الأنواع؛ لأنه إذا أن يقتضي كون مطلوب مكملاً أو لا، الثاني النمطي، والأول إن كان المطلوب به حصول أمر في ذهن الطالب، فهو الاستفهام، وإن كان المطلوب به حصول أمر في الخلوج، فإن كان ذلك الأمر اتخاذ فعل فهو النهائي، وإن كان ثبوته فإن كان بإحذى حروف النداء فهو النداء، وإلا فهو الأمر (1).

(1) حافظة الدسوقي: 1/166. ضمن شروط التحليل.
(2) المطول: 224 ـ 225.

٢٨٣
وهذا النوع هو ما عني به البلاغيون، وحلفوا به وذلك لما انطوى عليه من أعمال الكلام، وما يضيفه عليه كل نوع من أنواعه من فوائد ونكات، على ما سيأتي من خلال نضم بعض آيات هذه السورة الكرامة.

النوع الأول: الأمر.

صيغ الأمر في القرآن الكريم، كانت موضوع عناية الأصوليين، والفقهاء والمفسرين؛ وذلك لاهتمامهم بيان ما يراد بما في أمور الدين، من حيث الوجه والندب والإباحة، وكان المنهج الفقيهي هو المسيطر على الدراسات الإسلامية واللغوية، ولا تكاد تخرج عن دائرة حتى أتيت جاه الله الرحمنى، الذي خرج بالأمر عن هذا الإطار وجعله ألقى بالجانب اللغوي والبلاغي منه بالجانب الشروعي؛ وإن لم يُنفصل انصشاراً تماماً.

وعلى حظاه سار جمهور البلاغيين والمفسرين، الذين تأثروا بكتبه، والأصل: في الأمر أن يكون لطلب الفعل على سبيل الإلزام، فيكون للممثل النواب والمشارك العقاب، وهذا مقتضى القواعد الأصولية التي ترى بأن الأمر بالوجب إلا أن يأتي ما يصرفه عن ذلك، وما جاء وفقاً لهذا الأصل قوله تعالى: "قلُ لِلَّذينَ كَفُّرُوا سَاعَةٌ تَعْمَلُونَ إِلَى جَهَنَّمَ رَيْسَ الْجَهَنَّمِ"، فَاللهُ سِيَاحُهُ

وعتالى في هذه الآية الكرامة بأمر نبيه أن يقول للكافرين على سبيل النذارة والتهديد بأن يتعلمو، ويتكلمو، ثم أمرهم صلى الله عليه وسلم أن يتعلمو سبيلاً، وجريم في هذا التهديد بأطلب عبارة وأبلغوها؛ لأن المقام مقام إطهاب لمزيد الموعظة والتشكيك.

(1) انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الرحمنى: 368 بتصريف.
(2) سورة آل عمران آية: 16.
(3) انظر: التحرير والتشوي: 377 _ 317.
ومن ينظر في نظم هذه الآية الكريمة، يلاحظ أنها اشتملت على خبرين:

الأول: الإخبار بغلبة الكفار في الدنيا.

والتاني: يجعلهم إلى الدار في الآخرة.

وقد قدم الخبر الأول على الثاني في الذكر لتقديم وقته؛ لأنه في الدنيا بينما الشاهد في الآخرة. وقد وقع الإخبار الأول وهذا من معجزات النبي ﷺ؛ لأنه تغيب على الغيب (١).

وكلذك قوله تعالى: "قل أَوَيْنِ بِكَ أَنْ تَحْيُونَ لِذُلْكَ مِنَ اللَّهِ مَثْعَبًا عِندَ رَبِّهِمْ، جَنَّاتٌ تَتَحْرِجُ بِمِنْ تَحْزَبُهَا الْأَنْثَاءَ خَالِدُونَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُقَدَّرَةُ وَرَضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصَبِرِ الْمُبَارَكِ (٢)"، حيث يأمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يخبر هؤلاء القوم بأن مأعد الله لعبادته اللائق خير من هذه الشهوات المذكورة في قوله عر وحال: "لَسْنَ لِلَّدَّيْنَ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النَّسَاءَ وَالْبَيْضَيْنَ وَالْقُطَافِيْنَ القَطَرَةُ مِنَ الْدِّينِ وَالْفَضْلِيْنَ وَالْحُبُّ السَّوِيْنَ وَالْإِثْمِ وَأَخْرِجُ ذَلِكَ مَنْ أَحِبَّ اللَّهُ حُبَّهُ وَاللَّهُ أَصْحَبُهُ حُبَّهُ (٣)"، حيث الخلد، وكفى به من نعمة، وطيب العيش في جنتين عدن معاً.

وقوله أيضاً: "قل إِنَّمَا كُنتُمْ تَحْيُونَ اللَّهُ فَايَعُونُونِي بِحَبِّي، اللَّهُ وَيَتَعَبِّرُ لَكُمْ ذَلَّوُبَكُمْ وَلَّهُ غَفُورُ رَحْمَيْنِ (٤)"، حيث صدرت الآية بأمر ربياني من الله سبحانه إلى رسوله بأمكانه هؤلاء القوم بأن نسبة الله مقرورة بحبي فمن أحب الله لزمه محبة رسوله ﷺ؛ فإن كنتم تزعمون حبة الله فاتبعوني، وذلك لأن حبة الله لا تُنال إلا عن طريقي باتباع ما أمرتم به، والانتهاء عما هُتبكم عنه، وللتحري هنا أن الرسول ﷺ

١٨٨/٧

١. انظر: إعجاز القرآن: ٣٣،٤٣; التفسير الكبیر: ١٨٨/٧.

٢. سورة آل عمران آية: ١٢.

٣. سورة آل عمران آية: ١٤.

٤. سورة آل عمران آية: ٣١.

٢٨٥
يخاطب هؤلاء القوم بصيغة الأمر فيقول: »...فأث بوغوني...«، وهو بلا شك أمر للوجود والعرض منه النصح والإرشاد؛ وذلك لأن دعوة الأنبياء لازمة لقومهم، ليس لم أن يتخلفوا عنها، وإلا لما حصل العذاب والإهلاك لمن خالف في ذلك.

وقوله أيضًا: »وَإِذْ غَدِرَتْ مِنْ أَهْلِكَ نَبِيَّ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدُ الْقِطَانَ وَاللَّهُ سَيْسَعُ عَلَيْهِمْ إِذْ هَزَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ تُفْلِحَ سَيْلًا وَاللَّهُ يَطْهِرُهُمْ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلُوا المُؤْمِنُونَ (1)«، فالنظم الكريم هنا يأمر المؤمنين بأن يتخلىوا التوكل للسماحة وتعالى، فهو من الأمور التي لا تصرف لغيره سماحته وتعالى، فمن توكل على غَيْر الله وكله الحق إليه، ووقع في مزلق حتم من المراتب التي تقدح في العقيدة لذا قال الأمر بالتوكل هنا للوجود، وعَضِدَه ذلك الأمر التقدم للجَيْشَ والجَيْشُ (2)، وعلى فعل التوكل، والذي يقضي الحصر، والخصر لا يكون إلا لأمر لا ينبغي أن يصرف لغيره المخصص، والخصر ممن الأمة هنالك النصح والإرشاد.

ومن ذلك قوله: »نَبِيَّاهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصِيبُوا وَصَبَرُوا وَأَثَابْتُوا أَلْقَوْا اللَّهَ (3)«، حيث اشتمل نظام هذه السورة على جملة من الأوامر وهي الأمر بالصبر والصبر والصبر والصبر والصبر والصبر، يعني تحلى هم النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، فهذه الأوامر التي أمر الله بها ماهي إلا وسيلة لنيل المطلوب، وهو الفلاح في الدنيا والآخرة وهو أمر مطلوب لذوي النهى بل ومؤمر به من قبل الشارع الحكيم، وكما هو متقرر من أحكام الشرع الكريم الوسيلة لما حكمه الغاية، فعليه هذا يكون الأمر بهذه الأشياء للوجود لأنا وسيلة لأمر واجب لا يتحقق إلا بما؛ ولكن هذه الأوامر لا صارف لها عن الأصل الذي يقضي إليها.

---

(1) سورة آل عمران آية : 121
(2) آتى عمران آية : 370

٢٨٦
ولكن الأمر في هذه السورة قد يتعين لغير الوجوب، ويكون مراداً به الدعاء، ويفهم ذلك من مستندات التراكيب، كما في قوله تعالى: "أَلَيْنَ قَتُّولُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ أَفْقَهُ وَذُو نِعْمَةٍ عَلَيْهِ"(1)، فلخطاب في قوله: "فَأَفْقِرُوا وَقُتِّئَا..." من المؤمنين إلى ربهم، فهو من الأدنى إلى الأعلى؛ فيكون المراد من الأمر الدعاء.

وملله قوله تعالى: "قَالَ امْرَأَةُ عِمَّرَانَ رَبِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحْرَرًا فَقَطَّلْنَاهُ مِنْ إِلَّهِ أَلَّهِ السَّمِيعُ الْمَبْلِيمُ"(2)، فالأمر في قوله: "فَقَطَّلْ فِي يَدِ..." للدعاء يفهم ذلك من فحوى الخطاب.

وكذلك قوله: "هَتَأْتَكَ ذَٰلِكَ رَبُّكَ رَبٌّ يَا بَعْذَةٌ مِّنْ لَدُوكَ ذَرِّيَّةٌ طَيِّبَةٌ إِلَّهِ سَمِيعُ الدُّعَا"(3)، فالأمر في قوله: "يَا بَعْذَةٌ لَّي..." للدعاء كذلك.

وقوله: "قَالَ رَبُّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَةً فَأَلْقَيْتُ آيَةً الْمَكَّةَ فَلَ أَكُنْ آمَنَ أَنْ أُرِيدَ إِلَى مَلَكِ الْعَلَمِ"(4)، فالأمر في قوله: "قَالَ أَجْعَلْ لِي آيَةً..." للدعاء.

وقوله: "وَمَا كَانَ قَولُهُمْ إِنَّا قَالُوا رَبِّنَا اغْفِرْنَا ذُنُوبَنا وَإِسْرَافَنا في أَمْرِنَا وَقَتَّبْنَا أُمُورَنَا عَلَى الْقُوَّمِ الكَافِرِينَ"(5)، فصيغ الأمر: "قَالَ أَغْفِرْنَا..." و"قَتَبْنَا..." في جميع ذلك يراد بها للدعاء.

وقد يكون مراداً بالأمر في هذه السورة التعجرين، وذلك كما في قوله تعالى:

(1) آل عمران آية: 16
(2) آل عمران آية: 35
(3) آل عمران آية: 38
(4) آل عمران آية: 41
(5) آل عمران آية: 147

٢٨٧
كل الطعام كان جناً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه مـن قبل أن ينزل التوراة قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين(1) فأمر في قوله:

فقالوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين للعجيز ؛ إذ قد علم ألم لا يانون بالتوراة ؛ لكوهم تختلف ما زعموه ؛ وتوافق المسلمون في قولهم في سبيل تجريم إسرائيل الطعام على نفسه (2).

وقد يكون مراداً بالأمر في هذه السورة الكرامة الإهانة ، كما في قوله تعالى:

«لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير وتحن أغنياء مستنكبين ما قلوا وقتلهم اللائيين يغبر حق وتقول دقوا غذاب الحريـق(3) لأمر في قوله: 

فدُوقوا ... » للإهانة والتهكم بحولاء القوم ؛ وذلك لأن الدوق للجبيل لل주بوب والمشروب ، فخرج عن ذلك إلى العذاب محكمًا بحولاء القوم .

هذه المعاني التي ورد عليها الأمر في هذه السورة ، وقد اشتملت على جمل مـن اللطائف والأسرار ، كما لا يخفى .

---

(1) آل عمران آية: 93.  
(2) انظر: التحرير والتوضيح : 94/9.  
(3) آل عمران آية: 181.
الثنائي : النهي.

النهي : هو النوع الثاني من أنواع الإنشاء الطليل، وهو كما عرفناه البلاغيون: "عبارة عن قول ينفي عن المع على جهة الاستعلاء".

وهو يتثقف مع الأمر في أن كل واحد منهما لابد فيه من اعتبار الاستعلاء، وأفهما جميعاً يتعلقان بالغير، فلا يمكن أن يكون الإنسان آمرًا لنفسه، أو ناهياً لهما، وأفهما جميعاً لابد من اعتبار حال فاعلهما في كونه مريداً لهما ...، ويتغلبان في الصيغة؛ لأن كل واحد منهما مختص بصيغة تختلف الآخر، ويتغلبان في أن الأمر دال على الطلب، والنهي دال على المع، ويتغلبان أيضًا في أن الأمر لابد فيه مسن إرادة مأمورة، وأنه النهي لابد فيه من كراهية منهيه.

وتسورة "آل عمران" حلفت بالكثير من صيغ النهي، بعض منها جاء على الأصل، وهو طلب الكف على جهة الاستعلاء، وبعضها يفيد معان أخرى تستند من مستنبات التراكيز.

فمما جاء على هذا الأصل قوله تعالى: "لا يَتَجَهَّرُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلَيْاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ يُعْلِّمُ الَّذِينَ لَا يَتَجَهَّرُونَ". و"لا يَجْهَرُ الْلَّهُ نَفْسَهُ إِلَى الْلَّهِ الْمُحْلِلُ".

فإن النهي في قوله تعالى: "لا يَتَجَهَّرَ...", جاء من الحق تبارك وتعالى لعبادته المؤمنين، فهو من الأعلى إلى الأدنى، فهو في جإ على الأصل، أي: أن اقتراح الفعل والتفسير به مودى بعداه الله سبحانه وتعالى، كيف لا، وهو يمس جانباً مهما من جوانب العقيدة، وهو الولاء والبراء، فالحق تبارك وتعالى ينهي عبادة المؤمنين عن

(1) الطراز : ٢٨٤ / ٣
(2) المصر السياق : ٢٨٥ / ٥
(3) ئل عمران آية : ٢٨.

٢٨٩
اختذا القافرين أولئك دون المؤمنين يتلون إليهم بالملودة، مع علّمهم عداوّهم لهم وسعيهم الحيثي في سبيل النيل منهم بشئ الوسائل بالخلاج أو القتل أو صدهم عن دينهم، يرجعوا كفارةً وتكونون سواءً، ومن تنكب هذا النهي وارتکب في حسنة مولاة أعداء الله، فليس من الله في شيء من النصرة والتأييد، ورضا نقله ذلك إلى الكفر إن اعتقد حلف فعّلهم، أو ناصر أعداء الله على أوليائه، إلاّ إن كان فعله ذلك نقيب من أولئك القوم لقومهم وغلتهم، فلا يواخذ في ذلك إن كان قلبه مطمئناً بالإيمان ومتحجة عباد الله المؤمنين، ولكن لبئذ ذلك مقرناً بالحناذر الله سبحانه وتعالى، وليذكر أن مرجعه إليه وأنه بحري بما يضمه قلبه ما ظهور على جوارحه.

وقوله تعالى: "إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَرَحْمَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَثْلُ آدمٍ خَلْقَهُ مِنْ نُورٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كَانَ فَيُكَوِّنُ الْحَاشِيَّةَ مِنْ رَبِّهِ فَلَا تَكُنُّ مِنَ الْمُمَتَّرِينَ " (1)، فالحق ببارك وتعالى يهيه حبيب وخيليله محمدًا ﷺ عن الشك في أمر عيسى ﷺ في أمر الألوهية؛ وذلك بسب أنه ولد بلا أب، فيجعله ذلك يرفعه فوق منزلته كما فعلت النصارى حيث وصفوه بالألوهية، أو أنّه ابن الله سبحانه وتعالى، ولكن من ينظر في حآل النبي ﷺ ومعرفته بربه سبحانه وتعالى، يدرك أنه يستحق على النبي ﷺ أن يصدّ منه هذَا الأمر أو هذا الامتياز، فلخطاب وإن كان للنبي ﷺ إلا أن المصعود التعريض بالنصارى أي نصارى بخزان الذين امتنعوا في أمر عيسى ﷺ حتى جعلوه في منزلة فوق منزله، فنعموا زورًا وبحتانا أنّه الله، أو أنّه ابن الله تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيرًا.

وقوله تعالى: "وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمُ " (2).

---

(1) آل عمران آية : 60.
(2) آل عمران آية : 105.
جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى:  "ولكن ملككم أمة يدعون إلى الخبائث ويأمرون بالغير وينهون عن التذكير وأولئك هم المفلكون (1)"، ومن الملاحظ أنه لما أمر بذلك في الآية الأولى أكدته بالنهي مما يضاده من نزول هذه الآيات فيهم من أهل الكتاب مبكاً لهم بضلالهم واحتمالهم في دينهم على أنبائاتهم، فنشر الحقد عز وعالى بنيه (2) أتباع هذا النبي الخاتم محمد ﷺ، وهم أكرم الخلق عليه أن يكونوا مثل من قد خلوا قبلهم من اليهود والنصارى من اختلافهم على أنبائتهم ممن تكذب وقتل لهم وفعلهم بكل الأفعال الشنعاء؛ فيصيبهم بما أصابهم من التفرقة والاختلاف في الدين، مما يجعلهم مجبباً لغيرهم من الأمم سلبًا وفتنة وتشريدًا. وفي الأخرى يصفهم العذاب العظيم، ولا شك أن من ينظر في حال الأمة، يلاحظ أنها عندما ارتكبت النهي وقعت فيما حذرها الله سبحان وتعالى، فحصل التفرقة والاختلاف وتسلط الأمم الكافرة وتداعيها عليها، وأصبحت الأمة تعيش المرحلة الغنائية، لا وزن لها بين الأمم على الرغم من كثرة، فإن الله المشتكي، ولا حصول ولا قوة إلا بالله.

وقول الحق تبارك وتعالى:  "يا أهلها الذين آمنوا لا تأكلوا الزبداء أضعافاً مضاعفةً وأكلوا الله تعالى مفلكون (3)."

تصدر هذه الآية بالنداء وبالوصف  "الذين آمنوا" إقبال متلفطة ناهٍ عن الإقبال على الدنيا إقبالاً يوجب الإعراض عن الآخرين باستباحة كل الربا المتقلب في البقرة من النبي عليه صلوات الله ﷺ وما يقارب الضمان بالذيلان في كل زمان فإن لم تفعلوا فأذنو بحرب الله مسنداً.

(1) آل عمران آية : 106
(2) ترمذ: 25
(3) آل عمران آية : 130

291
ورَسُولِهِ(۱) ﴿وَهَذِهِ الآِثَانُ ﺑِهِ ﻗُدْمَاءُ ٍ، يَكُونُواْ ﻋَلَىٰ ﺻَبْحَةٍ ﺑِهِ ﻗُدْمَاءُ ٍ}}

(۱) البقرة آية : ۲۷۸ ، ونظرة : نظم الدرر ، ۵ / ۶۴ .
(۲) آل عمران آية : ۱۳۹ .
صدّر به، والتعليق بالشرط في قوله: (إِنَّ كُنُثُ مُؤْمِنِينَ) قصد به حرف الهمز الذي يُعِيدُ عليه الله كُنُثُهم مُؤْمِنِينَ عند اللهم إذا أدرى عنهم، ولكنهم لما لا لاح عليهم الوهن والخوف مـن الظلمة، كانوا يعتزلون من ضعف يقهير فقيل لهم: إن علمنا مـن أنفسكم الإيمان، وحكي بـ (إِنَّ) الشرطة التي من شأنه عدم تحقيق شرطها ؛ إجمالاً هذا القصد.

وقد يراد من النبي كالدعاء، ويفهم ذلك من مستعجات التراكيز كقوله:

(۳۲۰) رَبِّنَا لَا تُرِعْ قَلُوبَنَا بِعَدْدِ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَذِكَرِي نَحْشٍ إِلَّا كَأْتَاهُ اِلْوَهَابُ).

فأنا تبارك وتعالى بعد أن بين أقسام القرآن، وأن منه الحكم والتشابه، وإن الناس يفترون مجاهه إلى طريقين: طريق يؤمنون به وأن كلاً من قسمى القرآن مـن عند الله سبحانه وتعالى، وطريق يتعون ما تشابه منه، وذلك لذُكت الشبه في قلوب المؤمنين، وحولهم هم أهل الزي开辟 والتفاوت ومن لف لهم في قوله: (۳۲۰) هو الذي أرسل علـيَّكم الكتاب وَهَذِهِ آيَاتٌ مَحْكَمَاتٌ مِنْ أَمْرِ الْكُتَابِ وَأَخْرَى مُشَابِهاتٍ قَاتِلًا لِلْذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زِيَادَ فِيغَوْنَ مَا تَشَايَبُهُ مِنْ أَيَّامِ الْقُلُوبِ وَالبَيِّنَاتِ وَأَظْهَرُوهَا وَمَا يُعْلَمُ مَثْقُولَةً إِلَّا أَلْـِّهَةٌ وَلَـِّي سِيَّاهُونَ فِي الْعَلَمِ يَقْتُلُونَ آمِنًا بِكُلِّ مِنْ عَنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أَلْـِّهَةٌ (۳۲۰)، وهنا بين النظم القرآن لأن أهل الإيمان لا يكفون بذلك، بل يعلمون أن قلوب العباد بين أصحابهم يقبلها كيف يشاء؛ لذا فهم يسألون الله أن لا يزغ قلوبهم بعد إذ هدتهم، وأن يهب لهم من لدنهم رحمة سبحانه وتعالى.

ومنه قوله تعالى: (۳۲۰) رَبِّنَا وَآيَتَا مَا وَعَلَّمُنَا عَلَى رَسُولِنَا وَلَا نُخَرُّوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

۱) التحريـر والتهذيب : ۴ / ۹۹.
۲) آل عمران آية : ۸.
۳) آل عمران آية : ۷.
إِنَّلَا تَتَخَلَّفُ السَّيِّمَاءُ ﴿١٠٠﴾

حيث يسأل أهل الإيمان رحمه ﷺ أن يؤتىهم ما وعدهم، وألا يخزيهم يوم القيامة ما وعدهم على ألسنة رسوله ﷺ من أن رحمة سبيقت غضبه، فهو سبحانه لا يخلف وعده، ومن أصدق من الله فيما ومن أصدق من الله حديثا سبحانه وتعالى.

(1) آل عمران آية : ١٩٤.
النوع الثالث: الاستفهام.

الاستفهام: نوع من أنواع الإنشاء الطلبي، ومعناه طلب العلم بالشيء لم يكن معلوماً من قبل، وهو الاستخبار الذي قالوا فيه: إنه طلب خبر، وهو معنى الاستفهام، أي: طلب الفهم (1).

وفرق بعض العلماء بينهما، فقالوا: إن الاستخبار ما سبق أولاً، ولم يفهم حق الفهم، فإذا سألت عنه ثانياً، كان استفهما (2).

والذي درجت عليه كتب البلاغة هو مصطلح الاستفهام دون الاستخبار.

وقد تحدث عن هذا الأسلوب كثير من المؤلفين، وعلى رأسهم إمام النحاة سبويه في الكتب، حيث عقد له باباً تحدث فيه عن أدواته والفرق بين هذه الأدوات (3).

كما عرض له القراء في مواضع عدة من كتابه معاني القرآن (4).

كذلك تحدث عنه المبرد في الكامل (5)، والإمام عبد القاهر في الدلائل، حيث عرض لمسائل الاستفهام في الاستفهام في تقدم ما قدم، وتأخير ما أخر في الاصطهاء والأفعال، وذلك عند حدوثه عن التقدم والتأخير (6).

كما تحدث عنه السكاني (7).

_____________________
(1) البرهان: 326 / 326.
(2) الصاحبي: 293; البرهان: 326/3; الإنقاذ: 334/3; معجم المصطلحات البلاغية: 181/1.
(3) الكتب: 1/268/175، وما بعدها.
(4) معاني القرآن: 23/98.
(5) الكامل: 1/277.
(6) دلائل الإخبار: 111.
(7) مفاتيح العلم: 3/3.

295
فقد سار على منهج من جاء بعده من ملخصي كتابه وشرحاته (1)، ولم يخرج من جاء بعدهم عما خطوه لهم.

وقد حتفت سورة آل عمران بالكثير من صيف الاستفهام، ومنها قوله تعالى:

«فَنَفَتْلَاهَا رَبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنٍ وَأَنْفُسِهَا وَأَنْفُسِ هُمَا وَكَفَّرَاهَا زَكْرِيَّا كَلَّمَاهَا وَقَالَ كَلَّمَاهَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمُحْرَابُ وَجَدَ عُنْقُهَا رَفَقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَلَى لَكَ هَذَا قَالَتِهِ هُوَ مِنْ عِيْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُرْزِقُ مِنْ بَيْنِ يَدَينَ بِغَيْرِ حُسَابٍ» (3).

فقوله: «...أَلَى لَكَ هَذَا ...» استفهام من نبي الله زكريا عليه السلام عن الرزق عن الرزق الذي رزقته الله، ولذلك قالت: «...مِنْ عَينِ اللَّهِ»، وسبب استفهام نبي الله زكريا عليه السلام عن الرزق لكونه في غيور وقته وقت أمثاله، قبل: كان عبأ في وقت الشدة، والاستفهام هنا للتعجب والدهشة والغريبة.

و«...أَلَى لَكَ هَذَا» يستفهم بها عن المكان، أي: من أين لك هذا؟ ولذا كان جوابًا: «...مِنْ عَينِ اللَّهِ» (3).

والاستفهام قد برد منه معان أخرى تفهم من مستنبات التراكيب.

فمن ذلك التقرير، كما في قول الحق تبارك وتعالى: «فَقَالَ حَاجَّوكَ قَلِلْ أَسْلَمْتُ وَجُهِّي لِلَّهِ وَمَنْ أَعْمَيْنَى وَقَلِلْ لَنْ تُحِيْنَ أَوْثَانَكَ وَالَّذِينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنَّ أَسْلَمْتُمْ فَقَدْ اهتَدَى وَإِنَّكُمْ تَوَلَّوا فإِنَّكُمْ عُلِّيْكَا عَلَى اللهِ بَصِيرًا بِالْعَبْدِ» (4).

فقول الحق تبارك وتعالى: «...أَسْلَمْتُمْ...»، أي: أسلمتم، يعني أنه قد

---

(1) انظر: التلخيص: 83 ؛ الإيضاح: 228 /1 ؛ شروح التلخيص: 246/2.
(2) آل عمران آية: 37.
(3) انظر: التحرير والتفهيم: 3 /237.
(4) آل عمران آية: 20.
أتآكم من البيانات ما يوجب الإسلام، وتقتضي حصوله لا خالاً، فهل أسلمت أم أنتم بعد على كفركم؟ فهو استفهام في معرض التقرير، والمقصود منه الأمر، وفي جمهء الأمر على صورة الاستفهام قائدة، وهي التعبير بكون المخاطب معهانًا بعيدًا عن الإنصاف؛ لأن المنصف إذا ظهرت له الحجة، لم يتوافق بل في الحال يقبل، ونظره قولك لن حست له المسألة غاية التلخيص، وقامت بإيضاحاً غاية الإيضاح: هل فهمتموها؟ فإن فيه إشارة إلى كون المخاطب بلديًا قبل الفهم، وكذلك في التعبير بالفعل الماضي: "...أسلمت..." دون المضارع، للدلالة على أنه يرجؤ تحقيق الإسلامهم، حتى يكون كالمها في الماضي.

ومثل الاستفهام في قوله تعالى: "إذ تقول للمؤمنين أن تُبْحَبُوا أن تُضِلُّوا...". (1)

والاستفهام التقريري يكتر أن يورد على التلفي، وإنما جيء في التلفي بحرف "لين" الذي يفيد تأكيد التلفي للإشعار بأنهم كانوا يوم بدر لقتلهم وضعفهم مع كثرة عدوهم، كالآفسين من كفاح هذا العدد من الملاكية، فأوقع الاستفهام التقريري على ذلك ليكون تلقيبًا لمن يخال نفسه اليسى من كفاح ذلك العدد من الملاكية بـأن يصرح بما في نفسه، والمقصود من ذلك لازمه، وهذا إثبات أن ذلك العدد كاف، وإلى هذا ذهب ابن عطية. (2)

وبأي هو بيان أن الاستفهام هنا للإفكاء، حيث بـقول: "ودخلت أداة الاستفهام على حرف النفي على سبيل الإفكاء، لانتفاء الكفاح، هذا العدد من...

---

(2) آل عمران آية: 124.
(3) تفسير ابن عطية: 215.
والراجح آنها للإنسان، كما ذهب إلى ذلك البقاعي. يقول: "إذا تَقَوَّلَ يُمْتَوَّطِينِ!..." أي الذين شاركهم في أمر أحد، وفي غمارهم المنافقون، لما زاروا بوجود أكثر المنافقين، حينما كان بعض التائبين أن يرجع ضعفًا وغيناً، مع ما كان النبي عليه الصلاة والسلام أخبرهم به من تلك الرؤيا التي أولاها بذيكك في أصحابه، ليكون إقدامهم على بصيرة، أو يصدهم ذلك عن الخروج إلى العدو كما كان ميل النبي عليه الصلاة والسلام في أكثر أصحابه وإعلامهم إلى المكت في المدينة قال منكراً آنياً بأيأآ رأوا بذلك للنبي: "آلَّئْ يُكَفَّفِيكُمْ؟!".

وأجيب بقوله: "هل إنت قَبِرْوَا...؟"؟ لأنه لما لاتسع المماراة فيه.

وقد يكون الاستفهام للتشويق، كما في قوله تعالى: "أَلَّئْ يُكَفَّفِيكُمْ بِخَيْرٍ من ذَلِكَ الْمَمَاتِينَ أَقْرَرْوا عَندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْصُيَّةٍ الْأَلْسَدَاءُ حَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطْهَرَةَ وَرَضْوَانُ مِنَ الْلَّهِ وَلَّلَّهُ بِالْعُبَرَاءِ يُعْبِدُونَ".

وقوله: "أَلَّئْ يُكَفَّفِيكُمْ..." للعرض وذلك لتشويق المخاطبين إلى تلقى ما سيقص عليهم من أوصاف الجنة، وذلك لعقد المقارنة بينها وبين شهور الدنيا المذكورة في الآية قبلها(1) في قوله: "زَيْنَ اللَّهُ لِلَّدُوُّ الذَّهِبِ الشَّهُوَاتِ مِنَ النَّسَاءِ وَأَلْثَيْنِ والقَانُوتِينَ المُقَنَّطِةُ مِنَ الذَّهِبِ وَالْفِضَّةُ وَالْخَيْلُ المُسْوَٰيَةُ وَالأَلْفَامُ وَأَحْرُثَ ذَلِكَ"(2).

(1) البحر المحيط: 3/332-333.
(2) نظم الدور: 5/56.
(3) آل عمران آية: 25.
(4) التحرير الثور: 4/73.
(5) آل عمران آية: 124.
(6) التحرير والتنوير: 3/184.
فمثاع الحياة الدنيا والله عيندها حسن التواب (1).

وقد يكون للإنجاز والتعجب كما في قوله تعالى: «قالت رَبِّ أَيُّهَا الْيَتِيمُ لَنْ أُخْفِيضَ لَهُ إِنَّ اللَّهَ يَبْلِغُ مَا يَخْلُقُ ما يَشَاءِ إِذَا قَضَى أُمُورًا فَإِنَّمَا يَقْوُلُ لَهُ كَانَ فيكون» (2).

فقوله: «...آوَيْ يَكُونُ لَهُ وَلَدًا...» استنهام يراد به التعجب والإنكار؛ وذلك لأن الطريق للإجابة الوبر، يكون يحصل السبب وهو الاستفهام بين الرجل والمراه، ولذا فما كادت البشري تفرع سمعها حتى أطلقت هذا الاستنهام متعججة ومنكرة؛ ولذا أحبب عن تعجبها وإيكارها بحواجب قبل: «...كُلُّ كُلِّكَ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشَاءُ» (3).

ومثله قوله تعالى: «...يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ نُحَاجِجُنَّ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَوْلَيَّ الْبَيَاتِ التَّوْرَةَ وَالْإنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَنْفَعُونَ هَاتَنَّ هُؤُلَاءِ خَاجِجَتَانِ فِيْمَا كَتَبَ لَهُمْ عِلْمًا قَلِيمًا لَّهُمْ فَيُؤْلَفُونَ» (4).

إِبْرَاهِيمُ يُهوُدِيّاً وَلَا نَصْرَأِيّاً وَلَكِنَّ هَٰذَا خَيْفًا مُسْتَنِبًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُحَمَّدَيْنِ إِذَا أُوْلِى الْأَثْرَاءِ إِبْرَاهِيمُ لِلَّذِينَ أَبْعَدَنَّاهُوهُ وَهَذَا الْبَيَّانُ لَهُمْ وَلِلْذِينَ آمَنُوا عَلِيَّةً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَرَأَيْتُ أَيْنَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكُفُوْنَ بَيَانًا للهَ وَايْمُ تَسْتَهْدُونَ بِيْلَ السَّبِيلِ (5).

لَمْ تُلْعِبُوا الرَّحْلَ بِالْبَلَّاءِ وَتَكْسِمُوا الرَّحْلَ وَالْبَلَاءِ تَعْلَمُونَ» (6).

اشتُمِلَّ نَظَمُ هَذِهِ الآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ عَلَى جُمْهُورٍ منَ الجَمْهُورِ الإِسْتَنَادِيَّةِ

(1) سورةآل عمران آية: 14.
(2) آل عمران آية: 47.
(3) التنبير والتبرير: 348/3.
(4) آل عمران الآيات: 76—77.
(5) 299.
الاستفهامية، التي أضافت على النظم جوًا من الخيال، في حضن هذا الجو الحواري الهادئ، حيث نظر في هذا الجدل الهجوم القوي الذي قال به القارئ الكرم، والوجه لهذين الكتابين من اليهود والنصارى، والذي يهدف في مرحلة الأولى إلى زعزعة المسلمين لدى أهل الكتاب، والكر عندها نقضاً، والتي تهدف إلى التحلية في سبيل النحلية؛ إذ لا بد من تفريغ القلوب من كل شبهة شلت تفكيرها، حتى يتسنى لها تقبل هذا الدين بكل رحابة حتى يلامس شغاف القلوب.

فنظر أن النظم الكرم بدأ هذا الحوار بالنداء مبكتاً، فقال: "يا أهل الكتاب..."، لكي تضمي له الآذن، ولا تشاغل عنه بما يوقت عليها سماع هذَا الكلام، ونلاحظ أن النظم الكرم قام بتوجيه النداء إلى أهل الكتاب، فلم يقلي... نصارى، أو يا يهود، أو غير ذلك من الأسماء التي يمكن أن يندوا هذَا، وفي هذا تعرضهم إلى أن أحق من عرف حقيقة الأمر الذي سئل من شأن إبراهيم هو أنتم يا أهل الكتاب..."؛ فعلمكم بهذا الأمر أحاججتم عن أنبيائكم، والكتب السني، أنزلتهم إليكم، فإن ضل في هذَا الأمر أحد؛ فقد يكون على عذر، ولكن أنتين فما عذركم، وأنتين أهل كتاب، وكأنى وقد أخذت هذه المقدمة بمجمع قلؤكم وبعد أن أرغوه أصحابهم، بدأ ينضج مسلماهم فقال مستفهماً متكراً ومتعمباً منهم: "لمَّا تحاولون في إبراهيم وما أرسلت التوراة والأنجيل إلا من بعد اغفل Applicants"؟، حقاً إنه سؤال منفوح غاية الإفهام، فلو أتينا بإجابات مثل حساب قامة بضأ لدكها، ولأني عليها كان لم تكن شيئاً مذكوراً؛ إذ يا أهل العقول والتفكير كيف ينسب إنسان أي إنسان، إلى دين من الأديان وقد تقدم عليها مسات السنن، فالرسالت لا تشتمل من تقدمها، بل تشمل معاصرتها ومن أتى من بعده، فإذا كان الأمر كذلك، كيف يكون إبراهيم الفيحاء، يهودياً أو نصرانياً، وقد تقدم على عصر تلك الرسالتين حقاً إنه لأمر غير عجيب، ثم لم يلبث القرآن الكريم، وهم في غمرة هذَا السؤال.
يفكرون ويكذرون، أن يوجههم ضربة أخرى قاسمة، عندما وجههم استفهامًا يحمل في طبيعته الأمر، فأتمنى يا من أنتين الكتاب إن لم تنفعوا بأمور الوعي الذي جاء به أنبياء الله ورسله، أن لم فيه غفلة تفكرون بها، ولو تفكركتم بما لا شك أنكم ستتدعون عن غيكم، ولكن الحق يقول لا عقل ولا دين، وهذا ديدن بدين إسرائيلي في كل زمان ومكان.

وتأتي بالقرآن الكريم يعلم أن هذه الضياعات المتلاحقة تستجل هذا العدو يتنح من حزائها، ويصبح مشوش الفكر حيران; لذا نرى النظام يلجأ إلى التنبؤات أحرى، ولكن بأسلوب مغاير; رغبة في التحديد وشبح الذهن، وإقامة الحجة، ففجأة هُما بداء التنبؤه فقال: «ها...ها...»، ثم أتبعها بتركيب يتنمّم تعبأ وتكسير وتبيّنها، وهو قوله: «...أنت هؤلاء حاجةُمُ فِيَّا لَكُمْ وَبَعْلُمَ...»، ولذلك نرى مثقل هذا التركيب في أسلوب العرب يؤكّد غالباً باسم إشارة بعده، فيقال: «ها أناذا، وها أنتن أولاً، أو هؤلاء».

ووقوع المحاجة من الإنسان ذي العلم شيء لا غبار عليه، ولا إنكار فيه، ولا عجب منه، ولكن كونه من إنسان، ليس من ذوي العلم بالأمر هو ما يدعو إلى العجب، والخبرة، وهذا من البلاد، وأفق العلم هم أولئك المتعلمون، ولا شك أن لأهل الكتاب من هذا الأمر نصيبًا؛ لذا نرى الحق تبارك وتعال شدد عليهم التكبير في ذلك فقال: «...فَلَمْ تُحَاجُّوُنَّ فِي مَنْ لَا كَثِيرٌ بِهِ عَلَمٌ...»، فخير لكم أن تردو العلم إلى أهله «...وَاللَّهُ يُعَلِّمُ وَأَلْمَاَنَا تَعْلَمُونَ...».

ولا زال القرآن كما أرسلت يقود حربًا ضروسًا لا هوادة فيها مع إخوان القرودة والخنازير من اليهود والنصارى؛ ولذ نراه ينوع أساليب القتال، وأدواته العدود في كل معركة بما لا يتوقفه من عدة وعتاد، فسرة بالنداء، وتذكرة بأساليب الاستفهام المتونعة، وأخرى بأساليب النفّي؛ لعل العدو أمام هذه الأساليب يرجع إلى رشدٍ...
وهو ذا في حوار ثان مع أهل الكتاب، جاعلاً الأسلوب الإنشائي هو عماد هذا الحوار، وهي الأدوات نفسها التي استخدمناها الأسلوب القرآني في حواره السابق مع المختاطبين فقال سبحانه: «يا أهل الكتاب لم تكن علواً على الأنبياء بل علواً نزلاً وكونتم تشهدون يا أهل الكتاب لم تليستون الحق باليقين وكونتم تعلمون الحق واتباعكم تعلمون»(1).

فبعد أن عرض لهم الحق سبحانه في الآية الكرم بكرهم، في الآية السابقة;

ولكن النظام الكريم هم التغالبي، وعدم إلغاءه باللذان، أو لكونه بلغوا من الغيبة مبلغًا لا يستهان به، حتى أصبح التعريض لا يكفي، بل لا يبد من التصرع. نرى النظام القرآني الكريم، وبعد أن استحل اتباعهم بالنداء يقول: «...لم تكفرُون بآيات الله...»، فأنكر عليهم الكفر بآيات الله، الدالة على ألوهيه، وعلى صدى أبياته ورسله عليهم السلام وومتاه على ذلك، وهذا الكفر قبيح هم أشد القبيح، ويتؤكد ذلك لأنهم من أهل كتاب يأمرهم بالإيمان وينهاهم عن الكفر، والعجب كله العجب أن هذا الكفر الذي تلبسوا به، يتجدد معهم في كل وقت فقالوا:

«...لم تكفرُون...»، حتى أصبح ديدهم وهجراهم، مما لا يطعن معه في رجوعهم إلى الإيمان إلا أن يشاء الله، وترداد شناعة هذا الأمر وهو الكفر حالة كونه يأتي مقارنةً لآيات ومعجزات الدالة على صدق هذا النبي الأمي، بل الآيات تذكر عليهم يشاهدونها في كل يوم، وفي كل وقت، ولكن من يضلل الله فما له من هداه.

وبعد أن فرأوا النظام القرآني الكريم أهل الكتاب، وأنكر عليهم كفرهم، عاد عليهم أخرون بالنداء هم، قاصداً من في هذه الإعادة التويجه، تسجيل بال版权所有 عليهم بأفخم ترني عليهم الصصائص والتوجيهات، ولكن لاحياء من تنادي، وكصرحه.

٣.٢٧
في وادي الملتقى آذانا صاغية.

وهاهو الهدف يعود عليهم مرة ثانية بالانتكاز والتوضيح في قوله: «للم تُثبت أحكام الباطل وتكتمون الحقيقة»، وحذره أن هؤلاء المرضى أزليان لدى هالاكين الأميين، فلطالما لبسوا الحق بالباطل، وقاموا بكتمان الحق، ومع أنباهتهم في القدم، ثم مع نبية، حيث علموا صدقه وصدق ما أرسل به، وأن الحق من رهم، وأن النبي الذي بشت به أنباؤه عليهم السلام، وجام وصفه في كتبهم، ولكن جبلتهم أملت عليهم إلا إلياس الحق بالباطل وكتمان الحق، يريدون به صرف الأمة عنيها، ولكن يبلب الله ذلك سباحته وتعالية، ثم هم لا يزالون يمارسون قذارهم تلك مع العالم الإسلامي اليوم، لقوموا بتأليل العلم على آمة الإسلام، ويهذ ذلك واضحًا في إعلامهم بشن قنواته، حتى ليسوا الباطل نُوء الحقيقة، وقاموا بكتمان ما يعلمونه من حقائق ناصعة عن هذا الدين وأهله، ولكن يبلب الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

والحقيقة التي يقررها دائمًا النظم القرآني، ويلح عليها في أواخر الآية، هى أن
ضلال اليهود وكتبهم، كان عن علم، فهو ضلال شهرة لا شبهة، شهرة التسلسل على العلم، والرغبة في التسلسل عليه؛ ولذا نرى القرآن يحتوي آية وهذه الجملة الحالية
... وأنتم تعلمون، أي: وأنتم من أهل العلم والمعرفة، وهنا العلم وتلك
المعرفة ليسا مقصورين على جيل الأقدمين بل من عاصر النبي الأمي، وهو مستمر فيكم حتى يبرر الله الأرض ومن عليها، يلخص هذا من التعبير بالمضارع
... تعلمون، وقد فرغ هذا الفعل من مفعوله وكذلك ... تشهدون...» من
الآية السابقة؛ ليشمل ويدعو كل ما يمكن أن يدخل تحته من أمر، لأفهم على علم
باتفاق الأموات وعظامها، أضاف إلى ذلك أن في ترك الفعل تحقيقًا لغرض لنظفي،
هو مراعاة الفواصل، لتكون الفواصل بحرف النون، الذين له لذة في السمع.

٣٠٣
ومما يلاحظ هنا أن النظم القرآنيّ الكرم عامّل المناقشين معاملة أهل الكتاب مّن حيث اللجوء في خطاهم إلى أساليب الإنشاء، والتي تصل في طياتها التفريع والزجر والتهديد. انظر إلى قول الحق بارك وتعال: "كيف يهدى الله يهويا كفروا بعثة إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وقبحهم الذين لا يهدي القوّم الظالمين أولئك جزاؤهم أن علّمهم لغة الله الملاكية والناس أجمعين خاليين فيها لا يخفف عنهم الغذاء ولا هم ينظرون إن الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم"(1).

فلحث أن النظم الكريم استهل هذا الخطاب الموجه لمن آمن بالله رباً ومحمد وبالإسلام ديناً، ثم انقلب على عقبيه مرتين، وربطه طبيعيّاً بسأله الاستفهام "كيف..."، والذي جاء في هذا النظم الكريم، فإن النكار على هؤلاء القوّم الذين دافعوا عن الإمام تابوا عليهم، ومن انقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وهذا حق لامريّة فيه، كما أن الحق سببه يجري الشاكرين.

ويجوز أن يكون المراد من الاستفهام: الاستبعاد، وذلك لأن هؤلاء القوّم آمنوا، وعلموا ما في كتب الله، ثم كفروا بعد إماهم، فانقلب على عقبيه، لسوء طوبتهم، وبعدهم في الضلال، وإيغائهم فيه(2).

والمجسم الكريم قد اختار هذا اللفظ "كيف..." لإيصال النكار إلى هؤلاء القوّم الذين ساءت طوبتهم، وذلك لأن الحقائق احتجز في الغالب عودة، وتقدير النظم الكريم على ذلك: لا يهدي الله هؤلاء القوّم، لظلمهم بوضع ثمرة الجهل بنقض عهد الله سببه وتعالى المؤكد بواسطة رسله موضع مثرة.

(1) آل عمران الآيات: 86، 87، 88، 89.
(2) نظر: البحر الحميث: 3، 251؛ آثار الدليل: 2، 29، 62: النذر المصنون: 2، 160، 161: إرشاد العقل السليم: 2، 56، 57.
وقد يكون للإنسان والتوثيق كما في قوله تعالى: "قلُّ: يَأَهْلُ الْكِتَابِ لَمَّا تَكْفُرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ". 

ومن ينظر في نظم هذه الآية الكريمة ؛ يلاحظ نظاماً بديعًا ، فالنظام الكريم استنبط بالموجب "قلُّ..." الموجه لبني محمد ﷺ ليختار إخوان القردة والخبازير من اليهود والنصارى ، وليبلغهم رسالة الله ﷺ لرسوله ﷺ ، وكذلك للاهتمام بالمقول. 

فالأمر قد صدر من الحق تبارك وتعالى بـ "قلُّ..." ، ولكن يا ترى ما هو المقول ؟ لاشكر أنه النداء وما بعده ، وما أكثر ما نودي اليهود والنصارى في هذـه السورة وفي غيرها من السور القرآنية بـ "قلُّ يا أهْلُ الْكِتَابِ..." ، ولعل السر في ذلك أن كوكب من أهل الكتاب يوجب عليهم الإيمان بهذا النبي الأميّ وصديقـه ؛ لكونـه معلوماً لديهم فهم يعرفون أبناءهم ، وقد ذكرت أوصافـه وأوصاف أتباعه في النزعة والإنجيل ، وفي ذلك مبالغة في تقصيب حاكم ، حيث علموا صدقتـه ، ولم يؤمنوا به.

ثم أعني النظم القرآني الكريم النداء بالتوضيح والانكار لأن يكون لكنـهم آيـات الله سبحانه من الأسباب المقنعة ، ولكنه الحمد الذي بلغ به حين أوردهم النار وبعكس الوعد المروود ، وما أصدق العرب عندما قالوا: "قَاتِلُوا الْحَسَدَ حَتَّى يُخَالَ格力ِكُمْ بِالْمَشْرِقِ وَبِالْغَرْبِ". 

ومن ينظر في الآية التي تلي هذه الآية الكريمة ، وهو قوله تعالى: "قلُّ: يَأَهْلُ الْكِتَابِ لَمَّا تَكْفُرُوا بِآياتِ اللَّهِ مِنْ آنِئَ تَعْمَلُونَهَا عَجَّلُوا وَأَنْتُمْ شَهِداً وَمَا اللَّهُ 

(1) آل عمران آية : 98 . 
(2) انظر : إرشاد العقل السليم : 2 / 63 ; روح المعان : 4 / 14 . 

305
بِعِفَائِيَ غَيْرَهُمْ تَعْمَلُونَ (1) يَلِحُظُ أنَّ الْخَطَابَ وَالْبَسَاءَ قَدْ تَكَرَّرَا «قُلْ يَا أُهْلَ الْكِتَابِ...» وَذَلِكَ مِبَالِغَةٌ فِي تَقْرِيبِ أُهْلِ الْكِتَابِ ؛ وَلِإِشْعَارِهِمْ أَنَّ كَلَّا مِنَ الْكِتَابِ وَالْبَسَأَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهُوَ طَرِيقُ الْقُوُمِ الْمُوَلِّيِّ الْخَالِقُ في نَفْسِهِ ، وَكَافِٰفٌ فِي جَلِبِ عَذَابِ اللَّهِ ، وَسَخَطِهِ عَلَيْهِمْ (2) .

وَقَدْ أَعْقَبَ الْحَقَّ هذَا الْتَوْبِيْحَ وَالْتَقْرِيبَ بِتَوْبِيْحٍ ثَانٍ ، وَذَلِكَ الَّذِي الْإِسْتِفْهَامُ فِي قُوُلِهِ (3) لَمْ تَصْدُونَ ...» ، وَالَّذِي يَنْكُرُ عَلَيْهِمْ مَجَادِلَتَهُمْ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ ، بَعْدَ أَنْ أَنْكُرُ عَلَيْهِمْ ضَلَالَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ (4) .

وَمَثَلْ ذَلِكَ الَّذِي الْإِسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِيَ الْعَجَّازِيُّ فِي قُوُلِهِ تَعَالَ : «وَكَيْفَ تَكْفَرُونَ وَأَلْقَمْ تُقَلِّي عَلَيْكُمْ آيَاتَ اللَّهِ وَفِيكمُ رَسُوُلُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمُ بَاللَّهِ فَلْيَكُفْ هُدَّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (5) مِنْ مَعِينِ الْإِنْكَارِ الْوَقْعِ ، كَمَا فِي قُوُلِهِ تَعَالَ : «كَيْفَ يُكْفِرُونَ لِلنَّاسِ غَيْبَهُمْ» (6) ، لَمْ يَمْعَنِي إِنْكَارُ الْوَقْعِ ، كَمَا فِي قُوُلِهِ تَعَالَ : «كَيْفَ تَكْفَرُونَ بِاللَّهِ وَكَيْفَ أَمَوَاةٌ» (7) ، وَفِي تَوْجِيهِ الْإِنْكَارِ وَالاِسْتِعْبَادِ إِلَى كِيفَيَةِ الْكَفْرِ فِي المِبَالِغَةِ مَا لِيَسُ فِي تَوْجِيهِهِ إِلَيْهِ نَفْسِهِ ، بَالْقَالُ : أَنْكَفُرُونَ ؛ لَأَنَّ كُلَّ مُوجَدٍ لَا بَدِّ لِأَنْ يَكُفُّونَ وَجوُهُهُ عَلَى حَالِمِنَ الأَحْوَالِ ؛ فَإِذَا أَنْكُرُ ، وَنَفَّى جَمِيعَ أَحْوَالِ وَجوُهُهُ ، فَقُدْ أَنْفَقَ وَجُوهُهُ بِالْكَلِيلِ (8) .

(1) آل عمران آية: 99.
(2) أنظر: أُناْورُ الدِّورُ: 33؛ إِرْشَادُ العَقْلِ السَّلِيمِ: 2/ 63.
(3) أنظر: التَّحْرِيرُ والْبُشْرُ: 4/ 65.
(4) آل عمران آية: 101.
(5) الزُّبايَة آية: 7.
(6) البقرة آية: 28.

306
وقد يكون للتبكيت والإنكار، كما في قوله تعالى: "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وَلَمْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جاَهَرُوا بِفَتَحَكَّمٍ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ وَلَقَدْ كَتَبْنَاهُمُ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أنْ تَلْقَوُهُ فَقَدْ رَأَيْسُوهُ وَأَتَمْ تَتَّشَرَّىۖ (1) فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَ وَقَعَ النِّهَاءُ بِلِفظِ الْإِسْتِفْهَامِ، الَّذِي أَتَى فِي هَذِهِ الآيَةِ الْكَرِيمَ لِلْتَبْكِيَتِ وَالْإِنْكَارِ، أَيْ: لَا تَحِبُّوا أن تَدْخِلُوا الجَنَّةَ، وَلَا يُقَفْ مَنْ كَمْ يَجَادِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَيْحَانَهُ وَتَعَالَۚ (2)".

(1) آل عمران آية: 143.
اليوم الرابع: ال悔ء

من أقسام الإنشاء الطليعي للهداء، وهو طلب إقبال المدعو إلى الداعي بحد
حرف مخصصة.

وقد وقف البلاغيون مع أسلوب الهداء في مؤلفهم، وأولوه عناية كبيرة لما ينطوي عليه هذا الأسلوب من نكتات وطائف، تخلل الإعجاز القرآني في أهداء
صورة.

ولم تقبل النهائية هذه السورة الكريمة وجدت أن أكثر الهداء في أياضه،
jاء بحرف الهداء `يا`، والهداء يؤدي به في النظم القرآني الكريمة جلب انتباه
المستمعين والمختصرين وتحصل إسهاماتهم؛ وهذا غالبًا ما يليه الحكم سواء كان أمرًا،
أو غيرًا، كما في قوله تعالى: `يأيُدَهُ أُمَّا أُمِّنَوْا أَنْ أُقُومُوا اللَّهُ حَقّ تُقُوَّمَهُ وَلَا تَوَلَّوْا إِلَى دُنْيا
أُمَّمِ مُسْلِمَةٍ` (1) وقوله: `فِي أُمَّتِكَ أُمِّنَوْا كَأَنْ كَلَّا أَكُلُّوا الْرِّيْبَ أَصَاعَ فَمُضَاعَفَةٍ
وَأَقْطَرُوا اللَّهُ لَعْلُكُمُ عُفْوًا`. (2)

وقد يعقب الهداء استفهام كما في قوله تعالى: `يأهَلُ الْكِتَابِ لَمْ تَلْبِسُونَ
الْحَقّ بِالْبَاطِلِ وَكَتَبُونَ الْحَقّ وَأَنْتُمْ تَكْتُونَهُ`. (3)

وقد يكون الهداء لإدخال الأنس على المشهد كما في قوله تعالى: `وَأَرْدُ قَالْتُ
المَلَائِكَةُ بَابِرُمْنِ اِنَّ اللَّهَ اسْتَفْتَقَكُ وَطَهْرَكَ وَأَسْتَفْتَقَكَ عَلَيِّ نَسْئَاءِ الْعَالَمِينَ بَيْنَكَ وَشَفَافَتٌ
أَقْتُيِ لَيْبَعْ وَأَسْجَلْيُ وَأَرُكِبَيْ مَعَ الْرَّاكِبِينَ`. (4)

(1) انظر : عروس الأفراح : ٣٣٣.
(2) آل عمران آية : ١٠٢.
(3) آل عمران آية : ١٣٠.
(4) آل عمران آية : ٧١.
(5) آل عمران آية : ٤٣.
فلحظ في هذا النظم الرئيسي الكرم، أن الملاكهة عليهم السلام، قاموا بخطاب
مرم عليهما السلام باسمها الصريح فقالوا: «...(يامعمر...(»، وذلك تأنيسةً لها عليها
السلام. وتوقعها لما تلقية إليها من الشارة بالاصطفاء على نساء العالمين كافة
وبتطهيرها لها.

وقامت ملاكهة الرحمن عليهم السلام بإعادة السيداء مرة أخرى في قوله:
...(يامعمر أفنى إبراهيم وآدموي وآركعب مع الزكاة)؛ لقصس الإعجاب
بماذا ؛ لأن النداء الأول قد كفى في تحصيل المصروض من إبطاله بسماع كلام
الملاكهة، فكان النداء الثاني مستعملًا في مجرد التنبيه، الذي ينتقل منه لأزمه، وهو
التنويه بهذه الحال، والإعجاب بها ونظرية قول أمراء القدم.

(1) تقول: وقد قال الغزالة بني ماعر: عقرة بعيري. يامعمر الفقير فائرل.
فهو مستعمل في التنبيه المنتقل منه إلى التوبة.

وقد يندهف حرف النداء، كما قوله تعالى: «ربنا آمنًا بما أزلت وآمنًا
الرسول فكانتا مع الشاهدين».

فالمؤمنون لما خاطبوا نبي الله محمد، ع، بأدب حم، وتغليب كاملاً، ترقوا
إلى خطاب من أرسله، وهو الحق سبحةه وتعالى، وإعظامًا للأمر، وزيادة في
التأكيد، فقالوا منصفين لأداة النداء استحضارًا لعظمة ب القرار لمزيد القدر،
وترحي منزلة الحب: «ربنا آمنًا بما أزلت...»، وحذف حرف النداء هو
الأسلوب الشائع في القرآن، مع لفظ الرض، وكما أسلفني لم يذكر حرف النداء مبع

(1) البيت من { الطويل }، وهو من معلقه الشهيرة.
(2) وهو في: ديوانه: 146؛ معجم الفلاس اللغة: 91.
(3) انظر: البحر الخيط: 3/146؛ التحرير والتنوير: 244.
(4) آل عمران آية: 53.
309
لغض الرب إلا في موضعين هما في قوله تعالى: "روالرسول بارب إن قومي أتخدوا هذا القرآن مهجوراً"، وفي قوله: "وقيله يارب إن هؤلاء قوماً لا يؤمنون"، والسر في إظهار حرف النداء في هذين الموضعين ؛ التعبر عن حالتة نفسها ألم بالرسول ؛ وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم ؛ فلم يزدهم ذلك إلا تمادياً في كفرهم ؛ فأطبق لهم على فواده ؛ وأكافأ شعر بتخلي الرحب عن نصرته ؛ وبعده عن أن يبد إليه بدي المساعدة ؛ فأتا بحرف النداء ؛ كلاماً يريد أن يرفع صوته ؛ زيادة في الضراعة إلى الله واستجلاب رضاه.

وقول الحق تبارك وتعالى: "ربنا إلّك من ندخل الضراء فقد أعرِضت وَمَا للظالِمِينَ من أُصُارِ"، ربنا إلّا سلمة مُنادًى بِلِلِّهَيْنِ أن أهْيَوا بِرَيْمُهٖ قَانِمًا رِبَّنَا فَاغْفِرْ لنا ذنوبنا وَكُفُّ عنِّي شَيْئَنا وَتَوَفَّنا مِنْ النَّارِ رَبَّنَا وَآمِنِنا مَا وَعَمِّدْنا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تَعْرِنَا بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلّكَ لَا تَخَفِفْ السَّيِّبَادَ".

فمن نظر في نظم هذه الآيات والآية قبلها، يلاحظ أنه قد تكرر النداء خمس مرات، وكل ذلك على سبيل الاستعطفاء، وتطلب رحمة الله تعالى بعدئيه هذا الاسم الشريف الدال على التوبة والملك والإصلاح، وفي تكرار: "ربنا..."، في الآيات دلالة على جوانب الإلحاح في المسألة، واعتماد كرّة الطلاب عن جعفر بن محمد رضي الله تعالى: "من حزبه أمر، فقال: بارب خمس مرات، أنجه الله، وأعطاه ما أراد، وأقرؤوا: "أَلَمْ تَرَ عَنْ تَمْرِيْنَ اللَّهُ قِيَامَةً وَقَفَّرَ"، وعلي جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والارض ربيما خلقته هدا بعطاه.

(1) الفرقان آية: 30.
(2) الزخرف آية: 88.
(3) نظر نظم الدور: 418. من بلافغ القرآن: 169.
(4) آل عمران الأيت: 192، 194، 193.
سيسملاء أفعال عذاب النار ربنا إنك من دخل النار فقد أخرجته... إبن لا تخليف المبتعث...» وهذا استباط منه رحمه الله، وفقه في الفهم، وذلك لأن نظم هذه السورة انتظم هذه الوجه التي ذكرها.

فانظر كيف بدأوا دعاءهم، لقد بدأوه بالدعاء بالنجاة من أقصى مرهوب، وهو النار أعداهم الله منها فقالوا: «ربنا إبن إنك من دخل النار فقد أخرجته...»، وأي حزى يمكن أن يواجهه الكفائر أقصى من العذاب بالنار؟ لا شك أن غمضة في النار واحدة، فيها من الحزى ما الله به علم، فكيف إذا انضم مع ذلك الخلوقد فيها، لا شك أنه غمضة الإجراء، وهذا الأسلوب الذي جاء عليه نظم آية الكرسي شبيه بقول العرب: «من أدرك مرعي الصمان فقد أدرك»، والمصراد به ترويل المستعاذ منه، وهو النار، تنبها على شدة حورهم، وطلبهم الوقاية منه.

قد يقول قائل: ما السر والفسائدة من الجميع بين المنادي في قوله: 

»...مُنادِيٌّ...»، قوله: »...يَنَادِيَ...»؟

ويمكن الإجابة عن هذا التساؤل بأن ذكر النداء مطلقاً في قوله:

»...مُنادِيٌّ...» ثم مقدماً في قوله بالإيمان في قوله تعالى: »...يَنَادِي لِلْإِيمَانِ...»، وذلك تفخيماً لشأن المنادي لأنه لا منادي أعظم من منادي ينادي الإيمان; وذلك أن المنادي إذا أطلق ذهب الروم إلى منادي للحروب، أو لإطفاء النار، أو لإغاثة المكروب، أو لكافية التنازل، أو لبعض المنافع، وكذلك الهادى قد يطل على من يهدى للطريق، وهادي لسداد الرأي وغير ذلك، فإذا قلت: ينادي للإيمان، وهادي للإسلام، فقد رفعت عن شأن المنادي، وهادي وفخمته وقال بعضهم جاء هذا الأسلوب على التقدم والأخير، أي: سمعنا منادياً للإيمان ينادي بأن آمنوا، كما يقال: جاء منادي الأمير ينادي بكذا وكذا.

ومن ينظر في سياق هذه الآية يلاحظ أن النظم الكريم، أوقع الفعل على المسمى وهو «...فندقياً...» من قوله: «...ربنا إنا سمعنا فندقياً...» وحذف المسموع، وذلك لدلالة وصفه عليه، و فيه مبالغة ليست في إيقاعه على نفس المسموع (1).

وأنت هنا لدقة النظم الكريم في هذه الآية الكرامة، وكيف أن التأكيد أتى في موضعه الأحذى به، حيث إن هؤلاء المؤمنين لما أيقنوا أهل لا يفكون عن تقصير، وإن بالغوا في الاجتهاد؛ لأنه لا يستطيع أحد أن يقدر الله حق قدره، شبه بحال مسن لم يؤمن، اقتضى القلم التأكيد، إشارة إلى هضم أنفسهم بالاعتراف بذلوا، فقدونوا مع علمهم بأن المخطوب عالم بكل شيء، «...ربنا إنا...»، فأظهروا النون مبالغة في التأكيد.

(1) انظر: آثار التدوين: 2/ 61.
النوع الخامس: التداء
من أقسام الإنشاء الطبقي النمطي، وهو: طلب حصول شيء عبوب بشرط أن يكون مستحيلاً، أو ممكنًا لا يتوقع حصوله(1).

والأداة الموضوعة للنمطي «ليت»، وقد يتميز بغيرها كـ«هـل»، و«لعل»، و«لو»، وهذه الأدوات ليست موضوعة للنمطي، ولكن تنقل للنمطي لاعتبارات بلاغية.

 ولم يقع النمطي بـ«ليت» في هذه السورة الكريمة، ووقع بـ«لو»، والنمطي بـ«لو» يؤدي به حينما يكون النمطي عزيزا صعب الوقوع، بعيد المنال، كما في قوله تعالى: «وَيْمَ تَدْهَكَ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَلِمَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرٍ وَمَا عَلِمَتْ مِنْ سُوَءٍ تُؤْدُوْنَ آنَّ بِينَاهَا رَبّهُ أَمَداً بَعِيدًا وَيَحْدَرُ كَمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوٰفٌ، بِالْعِبَادِ»(2).

فالحق سيحاجه وتعالى بيننا في هذا النظام الرباني الكريم أن كل نفس مستجد مسجد عملته في سالف أيامها في الدنيا من حير أو شر؛ فإن كان صالحاً حين أن يكون قد ازداد من الأعمال الصالحة، وإن كان مسيحاً؛ حين أن لو كان بينه وبين هذا اليوم الرباب الرعيب أبداً بعيداً، ولا شك أن هذا النمطي عزية، صعب المنال؛ وذلك لأن «لو» وضعت في حقائقها لتشمل على امتثال النص، ومن هنا كانت حرف امتثال لامتثال.

وقوله تعالى: «وَدَّتْ طَائِفَةً مِنْ أُهُلِّ الْكِتَابِ لَوْ يُضْلِوْنَ كُمْ وَمَا يُضَلُّونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يُشْعُرُونَ»(3).

---
(1) انظر: التعريفات: 95؛ من بحث القرآن: 167.
(2) آل عمران الآيات: 30.
(3) آل عمران الآيات: 69.
فالحق تبارك وتعالى يعلم مدى اليأس الذي يحتاج نفوس المناشفين جراء إخفاقهم في صرف المسلمين عن دينهم؛ وذلك لاطمئنان قلوبهم بالإيمان الذي خالط شعاع قلوبهم؛ لذا نلحظ أن النظم الربانية بورد هذا التمرين بـ"لو"؛ لبيان مدى تعسره وصعوبته؛ ومن ينظر في سير تلك القمم، يدرك ما كان يعانيه تلك النكارات من عناوين ومشقته في سبيل محاولة التبانيه، بل إن أحدهم ليقول لأمه: يا آله لو كان ذلك ألف نفس فخرجت نفسيًا نفسيًا على أترك ديني ما تركته، وبعضهم كان يمشط بأمتشاط الحديد بين عظمه وحجمه على أن يترك دينه ومع ذلك لا يزيده ذلك إلا إقبالًا عليه؟ لذا كان إيراد التمرين بـ"لو" كشف بيان ما يعترى نفسها من يأس وقنوط من رجوع أهل الإيمان عن إكاثر.
البحث الثاني:
الإنشاء غير الطبي

تحددت في بداية هذا الفصل عن الإنشاء، وقتت: إنه يقسم إلى قسمين:
خطي، وغير طبي، وتحديث في البحث الأول عن الإنشاء الطبي، وعن أعراضه
البلاغية، وسيكون حديثي في هذا البحث عن الإنشاء غير الطبي، وهو: متيلا
مستعب wrappers، وقد ذكر له علماء البلاغة كثيراً من الصيغ، كالتعجب،
والقسم، وصيغ المدع والدم، والرحاء، وغيرها من الصيغ.

وهو القسم لم يلق عناية من قبل البلاغيين كما لقيه قصيمه الإنشاء الطبي،
ولعل مرد هذا الأمر إلى أن الإنشاء الطبي - كما قلت سابقاً - غني بالاعتبارات
والملاحظات البلاغية بخلاف الإنشاء غير الطبي، وهذا قول محتمل للصواب، فمـن
أنعم النظر في هذا الأسلوب ألفاء بعيداً بالاعتبارات والملاحظات البلاغية الدقيقة،
وكلاهما في القرآن الكريم، والمقام هو الذي يستدعي هذا أو ذلك.

وقد أهم البلاغيون الحديث عن أساليب الإنشاء الطبي لأمرين هما:
1- أن أكثر هذه الأساليب في الأصل أحداث نقلت إلى معين الإنشاء.
2- أنها لا تستعمل إلا في معانيها التي وضعت لها، فالقسم لا يفيد إلا القسم،
والتعجب لا يرد لتغير التعجب.

وهو هذا لا يعني أن تلك الأساليب حالاً من الاعتبارات البلاغية، والاريخا
الجمالية، بل تكمن وراءها ملاحظات بلاغية، واعتبارات دقيق، وليست نظرنا إلى
أسلوب التعجب في التعبيرات الجديدة، لو جدنا وراءها كثيراً من الدقيق التي يتوجه
فيها الإحساس بالمعنى.

(1) انظر: علم المعاني دراسة بلاغية ونقدي، 2/63.
315
ولكي يكون ذلك واضحًا سأعرض لبعض هذه الأساليب، وأجلِي ما وراءها من أسرار واعتبارات من خلال آيات هذه السورة.

وعلى من ظواهر هذا القسم من الإنشاء غير الطبي في هذه السورة الكريمة صبِّر المدح والندم، حيث عانت من كثير من آيات هذه السورة، كما في قوله تعالى:

"أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم ورجانات تجري من تحتها الالهاء خالدين فيها ونعم أجر العاملين" (1).

وقوله: "أن الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاختبؤهم فرَّادِهِم إيمانا وقاعدة حسبن الله ونعم الله وكميل" (2).

وقوله: "قل للذين كفروا سُعدُبُون وتحتُرون إلى جَهَنَّم وَيَسِرُ المَهَادُ" (3).

وقوله: "سلفتي في قلوب الذين كفروا الرُّغَم بما آشرَك واشترى بالله ما لا يمَّ
يزول به سلطاً وما أهاهم النار ومنس متوا الفاطقين" (4).

وقوله: "أَفَمْ آتِب رضوان الله كم بسخط من الله وما أها مجهنم وينس النصير" (5).

وقوله: "مَتَاع قليل ثم ما أهاهم جهنم وينس المهد" (6).

وقبل بيان السر البلاغي لمجيء تصغيي المدح والندم كما في هذه السورة، لابد

---

1. آل عمران الآيات: 136
2. آل عمران الآيات: 173
3. آل عمران الآيات: 14
4. آل عمران الآيات: 151
5. آل عمران الآيات: 162
6. آال عمران الآيات: 197

---

٣١٦
من ملاحظة أمر انظوى عليه الاستعمال، وهو أن هاتين الصيغتين، لا يجتم بمها إلا الأمور العظام كمدح الجنة وما أعد الله فيها من النعيم من دخلها مما لا عيين رأته ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أو ذم النار وما أعد الله فيها من دخلها من أنواع العذاب والنكال، كما هو في هذه السورة وغيرها، فهما يثبتها على الحق سبحةه و تعالى، وهذا يعطينا تصويرًا بأن المدح بهذه الصيغ أو اللمدح هو الغاية التي ليس وراءها مطلب، أو فوقها غاية.

ووجه البلاغة في هاتين الصيغتين أن التعبير مما يكسب النظم القرآنية الكرم الإيجاز الذي يعد سمة من سمات اللغة العربية وركبزة من ركائزها، وذلك أن يتضمن من خلال حك حرف المخوص بالمدح أو المخوص بالذم؛ جريآ وراء الأسلوب العيني في مثل هذا التركيب ويقدر المخوص بالمدح بـ "الجنة"، والذم "النار"، وإذا كان ثناء على الحق تبارك وتعالى فيقدر المخوص بالمدح لفص الجملة "الله"، كذلك ما يلاحظ من الإيجاز في حيث قدر المخوص بكلمة واحدة اختصر بما التركيب السابق على هذا الأسلوب. هذا جانب من جوانب بلاغة هذا الأسلوب.

كما أن هاتين الصيغتين تضفيان الفخامة على المدح بهذه الصفة، و التحقير والازدراء للمذموم بها؛ ولذا تم اصطغاف هذا الأسلوب - كما أسجلت - لـمدح الجنة وذم النيران.

هذا ما يمكن قوله عن هذا الأسلوب، والله أعلى وأعلم.